عبد العزيز سيد الأهل

# الخليفة الزاهد

## عمر بن عبد العزيز

obeikandl.com

إِذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز
ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من
وراء ذلك خيراً إِن شاء الله .

أحمد بن حنبل

جميع الحقوق محفوظة

obeikandl.com

# مقدمة

•

كانت مدة عمر بن عبد العزيز سكينة للناس وأمناً ، وهدأة للخواطر واطمئنانا ، ثم مرّت المدة ولم تعد ، لأن الزمن وهو متشابه الأجزاء والدوران لم يجد لعمر بن عبد العزيز شبيهـــا ، وصارت كلمة «المدة» علماً على عهده كلما ذكرت المظالم المردودة والعدالات المفروضة .

وكان الناس يلتقون في زمن الوليد بن عبـــد الملك فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع . فلما ولي سليمان ، وكان صاحب زواج ونهمٍ ، جعل الناس يتساءلون عن الجواري والطعام ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجـــل للرجل : ما وِرْدُك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ وما تصوم من الشهر ؟

وامتلأت المدة على قصرها بالرجال وتحصنت بالأعمال وكأن الله لم يدع لعمر بن عبد العزيز قولاً الا جعل عليه دليلاً يصدقه ، فلم يسمع الناس منه قولاً قط إلا وافق عمله قوله ، ولم يقـل لهم

أحد رويداً حتى يَصْدُقَ أو يكذبَ فيستبين . وأصاب عمر بذلك في تاريخ البشرية حظاً موفقاً سعيداً .

وبات عمر بما عمل في حياته في مكان الرضا من الناس عامة حتى تسابقوا على القول فيه. فقال الامام الباقر : إن لكل قوم نجيبةً وان نجيبة بني امية عمر بن عبد العزيز ، وإنه يبعث يوم القيامة امةً وحده . وقالت فاطمة بنت الحسين : لو كان بقي لنا عمر بن عبد العزيز ما احتجنا بعده الى شيء . ثم قال فيه الحسن البصري وأحمد بن حنبل و كثير من الحكماء الأعلام .

ولقد صار الترحم على هذا الخليفة تقليداً بين الناس . ومن عجيب ما حكي أن رجلاً جاء إلى هشام بن عبد الملك في خلافته فقال له : يا أمير المؤمنين ، ان عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان ، حتى اذا استخلف عمر رحمه الله نزعها . فقال له هشام: أعد مقالتك. فقال واعاد قوله : حتى اذا استخلف عمر رحمه الله نزعها، وترحم عليه ولم يترحم على من أقر له القطيعة. فقال هشام : والله إن فيك لعَجَباً ! إنك تذكر من أقطع جدك القطيعة ومن أقرها فلا تترحم عليه ، وتذكر من نزعها فتترحم عليه ، وإنا قد أمضينا ما صنع عمر رحمه الله !

●

ونحن مع الناس ننخرط في تقليدهم بالترحم عليه ، فنصنع له كتاباً نُقرأ فيه التفاصيل التي ذكرها له المؤرخون ، ونُعطي بَعْضُ الرأي الذي اقتدرنا عليه ، ونُجمَعُ شمل الأخبار التي كانت متفرقة شتى ،ولعلنا نرجو بذلك ان نكون بهذا من المترحمين عليه!

وقد جعلت الكتاب ثمانيـة أبواب وراء كل باب فصوله التي تجتمع وتأتلف. وسيرى القارىء انني أجتهدت في ذلك ما وسعني الجهـــد وما وسعني الزمن الذي يأبى إلا أن يملأ بياضه وسواده بأعمال أخرى تجهد وتضني .

وإني لأسأل الله أن يجعل من سببي بعمر بن عبد العزيز أسهما تدمي قلب الظالم وتروساً ترد عني المظالم .

عبد العزيز سيد الاهل

# نبعة السهام

•

عمر بن الخطاب

بينما كان عمر بن الخطاب يحج في خلافته ذات عام مرّ بجبل يقال له « ضَجْنَان » على بريد [٢] من مكة في طريق عرفات ، فوثبت إلى خاطره ذكرى شقاء أليم كان قد ألم به من سياط أبيه ، فوقف يتأمل المكان والذكرى ويسترسل في تأمله ويمدّ نظره الى الوادي ويرجع به الى القمة ، حتى اذا استمكن قال : لا إله إلا الله العظيم ، المعطي من شاء ما شاء ، كنت في هذا الوادي في مِدْرعة صوف أرعى إبل الخطاب ، وكان فظًّا ، يتعبني إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت ، وقد أمسيت الليلة وليس بيني وبين الله أحد !

وقف عمر هكذا يتأمل ويتذكر ويقول ذلك القول ليُشهد الناس على ما كان من حاله في أمر الشقاء طفلًا وصبياً يلهب أبوه

---

(١) النبع شجر للقسي والسهام ينبت في قمم الجبال.

(٢) البريد فرسخان أو اثنا عشر ميلا — معجم البلدان ج ٥ ص ٤٢٦

الخطاب جلدته بسوطه ليرعى الابل في منأى عن مكة ، وكان عليه ألا يقصّر ، بل عليه ألا يستريح . ثم نظر عمر وهو يعيد بصره من حضيض الوادي ويصعّده الى قمة الجبل فاذا هو قد ارتفع خليفة على الناس وصعد فوقهم جميعاً كما صعدت قمة « ضجنان » وأشرفت في عزة وعلو على حضيض الوادي . وارتسم في خاطر عمر منظران قد تباينا ، ودارت فيه على عجل خيالات حزن وعَجب ، فشهد بما كان فيه من شقاء الطفولة وظلمة الشرك ، ثم عجب لما أصابه من النعيم حين أسلم فصار على رؤوس الامكنة وفوق هامات الناس وليس بينه وبين الله احد .

ولم ينكر عمر بن الخطاب فضل ابيه الخطاب حين ذكره بالقسوة ، ولكنه أشار الى يده عليه حيث ألهب فيه — منذ كان طفلًا وصبياً يرعى له إبله — جذوة إحساسه وهيّج حدته حين أتعبه في العمل وأمضّه وأوجعه ولم يمهّد لجنبه ليستريح ، فشبّ الراعي الصغير حمياً متحمساً ذا حدة وسطوة يحسن رعاية الابل ويلين قيادها ، ويصبر على عيش البادية متمدرعاً في صوف في مكان قصيّ عند وادي « ضجنان » .

فلما نقل الاسلامُ عمر من الظلمات الى النور ، وصعد عمر به الى حكم الناس وجدَ العربَ كالابل الآنفة [٣] ، تتّبع قائدَها ، وعليه أن ينظر أين يقودها ؟ وظلّت في عمر من سياط ابيه فزعةٌ من القسوة وبقيّة من الحدّة في صبرٍ لا ينفد وجهد لا يمل ورأي لا يتردد ، وكأنما تحول فيه هيْجُ الحدة وخوف العقوبة الى طبع

(٣) الجمل الآنف الذي وضعت في أنفه البرة وحلقة الحديد فاشتكى أنفه منها.

دافع يحثه على العدل والمضيّ والتنفيذ ، فلما صار اليه أمر الناس رحم فأطمع وقسا فزجر ، وفيما بين الرحمة والقسوة ساق الناس سوْق الابل ورعاهم رعيتها فاستطاع ان يحملهم على الطريق .

### اولاد عمر

وتدلى هذا العرق والميراث من عمر بن الخطاب في قوة بيّنة إلى أولاده ، وكانت له فيهم مظاهر تختلف وتتباين ، غير انها كانت كلها تنحرف نحو الحدّة وتنطبع بطابع عمريّ ، فاذا اراد بنو عمر شيئاً أقدموا واقتحموا فلم تمنعهم قوة ولم تكسرهم مخافة ، وإذا امتنعوا عن شيء صدّوا عن طبع وأمسكوا دون اصطناع حيلة . وحين حرّم عليهم أبوهم أن يكونوا خلفاء تجافت عن الخلافة جنوبهم وغضّت عن لمعتها قلوبهم وأبصارهم ، وامتنعوا عن اقتناع كأنه طبع في العرق ودم من الميراث ورثوه من هيجة نفس ابيهم إلى الخير والعدل في حماسة واندفاع . ولم يكن هذا المظهر من أولاد عمر إلا دلالة على الحدة الموروثة بدت في لون سلبيّ وصوت ساكت ، وكانت الدلالة أتم صمتاً وأسْكَنَ حركة في ابنه عاصم ابن عمر بن الخطاب .

### عاصم بن عمر

وكانت مرّت سنون خمس على موت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ولد عاصم بن عمر بالمدينة ، فلم يقدّر له أن يكون صحابياً ولكنه سمع حديث النبي من أبيه فرواه عنه . فلما شبّ وأيفع انتظم في جند إفريقية تحت راية عبد الله بن أبي سَرْح ، ودخل

اليها مجاهداً فاتحاً سنة سبع وعشرين ، فلما ادى ما كتب عليه من القتال وما تطوّع له من النصرة رجع إلى أهله بالمدينة وأقام بها . [٤]

وتعاظم عاصم بن عمر عن العبث كله في حياته ، ولم يرَ الناس أحداً منهم إلا أنه تكلم ببعض ما يريد غير عاصم ، فقد كان نزر الكلام من حياء وعفة وحبّ للمسالمة وإيثار للخير ، فاذا حدث بينه وبين أحد شيء وخاف عاصم أن يحتدم الغضب وتشتد الخصومة ترك مجلسه وطرح حجتـــه حتى تهدأ الثائرة ، ثم يعود إن رأى أن يعود . وورث أبناؤه منه خالص صفاته تلك ، فأطفأوا في نفوسهم ثائر الغضب ، وبرّدوا عنهم نيران الأحقاد .

وقد رووا أنه حدث بين عاصم وبين رجل من قريش كلام في ارض قد تنازعا فيها : فجعل القرشيّ يغالي في خصومته حتى تهدد عاصماً قائلاً له : ان كنت صادقاً فادخلها ! فقال له عاصم : أوَقد بلغ بك الغضب كل هذا ؟ هي لك ! فاستحيا القرشيّ من قوله وقال له : بل هي لك ! فتركها جميعاً لم يأخذها واحد منهما حتى ماتا ، ولم يتعرض لها أولادهما ، وبقيت طِلْقا حلالا للفقراء والمساكين . [٥]

## فتاة بني هذول

وجرى القدر لعاصم بحظ حسن فكان زواجه — حين أراد أن

---

(٤) قيل انه مات بين خلافة يزيد وخلافة عبدالملك بن مروان ، فقيل انه مات سنة ٦٣ وقيل سنة ٧٠ أي انه مات بعد مولد عمر بن عبدالعزيز وفي طفولته — رياض النفوس ج ١ ص ٨٩ — النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٨٥ — شذرات الذهب ج ١ ص ٧٧ .

(٥) رياض النفوس ج ١ ص ٧٧

يتزوج — الى فتاة من بني هلال ، كانت ذات وعي وفهم وحكمة وتديّن ، زوّجها له أبوه عمر بن الخطاب . وقد كان عمر يريد هو أن يتزوج منها لولا أنه كبر ولم تبق فيه رغبة ، لأنه رآها أحق النساء بان ترتفع من خيمتها في حواشي المدينة الى بيوت الخلفاء .

فبينما كان عمر يَعُسّ في حواشي المدينـــة وهو خليفة أصابه الاعياء فاتكأ على جانب جدار ، فاذا امرأة تقول لفتاة لها — وقد أمنت من يسمع قولها — : قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء .

فقالت الفتاة : أو ما علمتِ بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟

قالت المرأة : وما كان من عزمته ؟

قالت : انه أمر مناديه فنادى ألاّ يشاب اللبن بالماء .

قالت المرأة: قومي الى اللبن فامذقيه ، فانك بموضع لا يراك عمر ولا مناديه .

فقالت الصبيّة : والله ما كنت لأطيعـــه في الملأ وأعصيه في الخلاء !

وطارت المقالة الى سمع عمر فعجب لمـا دار فيها ، وكان عجبه أشدّ لوعي فتـاة فقيرة من وراء الخيام تستجيب لنداء الخير من غير تردد . ولم يجفّ حلق المنادي من ندائه بالأمر عـلى الناس ، وهي في أشد الحاجة لمذق اللبن ليكثر فيكثر الربح ، ولم يكن عمر يعلم أن تلك التي تحضها على المذق أمّها ، ولو علم لذهب في تعجبه اكثر مما ذهب ، لأنّ الفتاة تغضب أمّها من حيث لا ينالها من رضا الخليفة شيء ، ومن يعلمه بأمرها ، وهو منها رفيع الشأن عالٍ بعيد ؟

وودّ عمر من فوره لو تزوّج هو نفسه هـذه الفتاة ، وإنهـا لخليقة ان تكون له زوجا، إلا انه كبر وعلت سنّه وفاتته الرغبة والميل . وكان معه مولاه « أسلم » فقـال له بصوت خافت لا يُسمَع في الخيمة : يا أسلم ، علّم البـاب واعرف الموضع ، ثم مضى في عسسه. فلما أصبح قال : يا أسلم ، امض الى ذلك الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها ، وهل لها من بعل ؟

قال أسلم : فأتيت الموضع فنظرت ، فاذا الفتـاة أيم لا بعل لها ، واذا تيك أمها واذا ليس لها رجل ، وكانت امرأة من بني هلال ، فأتيت عمر بن الخطاب ، فدعا ولده جميعا فقـال : هل فيكم من يحتاج الى امرأة أزوّجه ؟ ولو كان بأبيكم ميل ما سبقه احد منكم الى هـذه الجارية ! فقال له عاصم ابنه : يا أبت ، إنه لا زوجة لي فزوجني، فقال له: اذهب يا بنيّ فتزوجها ، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب ! فذهب عاصم فتزوجها [٦] .

### ام عاصم

ولكن الفتاة الهلالية ذات الانقياد والطاعة لم تـلد لعاصم ذكراً ، وإنما ولدت أنثى ، وليس الذكر كالأنثى ، فلمـا ولدتها أسمتها « أم عاصم » . ونبتت أم عاصم نباتاً حسناً ، وتعلمت حين شبت رواية الحديث عن أبيها عن جدها ، وأثِرَ عنها مما روته من الحديث « نعم الادام الخل ! » [٧] ، وكأنمـا اصطبغت أم عاصم

---

(٦) ابن الجوزي ص ٦٥ ـ ابن عبد الحـكم ص ١٧ ـ شذرات الذهب ج١ ص ١١٩

(٧) الاغاني ج٨ ص ١٥٥

بصبغة بيت عمر فاتجهت نحو التقشف والزهد ، فكان هذا الحديث أشهر ما أثر انها روته ، ولم يكن في بيت عمر بن الخطاب ما هو أعظم من العبادة والزهد ولا أكثر دوراناً في الكلام من الحديث عن الخلّ والزيت !

ثم بدرت من أم عاصم حين كانت صبية وزوجة بوادر من المروءة والبرّ ، وهزتها فَعْلات الكرم والمودّة ، وحدثوا عنها أنها يوم مرت بأيْلَة [٨] وهي في طريقها الى زوجها عبد العزيز بن مروان والي مصر جاءها رجل معتوه فقدّم إليها هدية فقبلتها منه وأثابته عليها فرضي . فلما ماتت أم عاصم وتزوج عبد العزيز بأختها حفصة ومرت بأيلة تريد مصر في طريق أختها جاءها المعتوه نفسه فأهدى إليها فلم تثبه كما فعلت أختها من قبل ، فغضب المعتوه وقال : ليست حفصة من رجال أم عاصم ! فذهبت قولة المعتوه مثلا مضروباً شرودا [٩] .

### عبد العزيز بن مروان

وكانت نشأت في الأروم الأموية فروعٌ قد طابت ومالت عن السرف ورغبت في القصد ، وكانت هذه الفروع ـ وهي ترفّ في ثياب من العز وأبهة الملك ـ ذات جوهر يجري مع الصفاء . وكان من بين هذه الفروع ذات النضرة عبد العزيز بن مروان : نشأ في المدينة فطبّعته على خيرها ورَوَى عن بعض رجالها الحديث كأبي هريرة وغيره [١٠] ، فلما رحل الى مصر وتولى أمرها

(٨) أيلة حين تنتهي أرض الحجاز وتبدأ الشام: معجم البلدان ج١ ص٣٩١

(٩) الأغاني ج٨ ص ١٤٦

(١٠) شذرات الذهب ج١ ص ٩٥

خالطت قلبَه الخشية لرقة أهلها وحسن طاعتهم ، وحين ابتعد عن أهله مال نحو العفّة وقصْد الاعتدال .

ورقّ ذوق عبد العزيز ، وبلغ من الترف حداً رفيعاً ، وتأثر بما رأى في الشام ومصر من الدور والأبنية والآثار ، فجعل يسابق الخلفاء والأمراء من اهله في البناء وإعلاء الجدران وضرب الدنانير ، ثم جعل يتخير الأمكنة لسكناه ، ويشتري عشرات من الدور يزخرفها وينجّدها ثم يهبها لأولاده [١١] . فلما عصف طاعون الجارف بأهل مصر القديمة (فسطاط عمرو) تحول عبدالعزيز إلى مكان طيب الهواء قد استحسن موضعه فاشتراه من قبط مصر بعشرة آلاف دينار ، واختط به مدينة حلوان ، بينها وبين الفسطاط نحو فرسخين من جهة الصعيد مشرفة على النيل ، ثم بنى داره بها وزخرفها وموّهها بالذهب ووضع قريباً منها مقياس حلوان .[١٢]

وطالت الأبهة بعبد العزيز وامتدت مفخرته فبنى دار الاضياف [١٣] وضرب حولها قباب الجود وادار فيها الموائد ودعا الى طعامه ، فكثرت بداره الضيفان وكثر رماد النار ، اذ كان له في كل يوم الف جفنة من الف قِدْر لِقَرى الناس .

كل يوم كأنه عيد اضحى عند عبد العزيزاو يوم فطر
وله الف جفنة مترعات كل يوم يمدها الف قدر [١٤]

---

(١١) انظر باب « ذكر الخطط » في فتوح مصر واخبارها لابن عبد الحكم
(١٢) النجوم الزاهرة ج١ ص ١٨٥
(١٣) فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٣
(١٤) معجم البلدان ج٣ ص ٣٢٦

وكما كان عبدالعزيزبن مروان كثير قِرَى الضيفان كان جواداً على اصحابه الذين وفدوا عليه من المدينة والحجاز فبنى لهم الدور وغرس لهم النخيل في حلوان وجيزة الفسطاط [١٥] ، وكان يرد على الجميل الذي يوهب له بما ليس في حسبان احد، وكان مع ذلك كله على نية طيبة وناحية من الورع ، يميز الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الحلال والحرام ، فحين أراد ان يتزوج اراد ذاتَ عِرْق ، فان العرق دساس ، واراد الا يتزوج من حسناء في منبت سوء كما فعـــل بعض اهله من بني مروان ، ثم رأى أن يكون مهر زوجته من أنقى ماله الحلال وأبعده عن الشك ، فقد كان بعض ماله مختلطاً مجلوباً من المظالم، ولعرفانه به وخوفه منه قال لقيّمه: اجمع لي اربعمائة دينار من طيب مالي فأني اريد ان اتزوج الى اهل بيت لهم صلاح، فجمع له قيّمه ما اراد ، فتزوج به ام عاصم [١٦] . وفرح عبد العزيز وفرح اهله بهـذا الزواج فرحاً عظيماً ، وأقبلوا عليـه بالمنح والهدايا حتى انهم ليقولون انهم أوقدوا المصابيح ليلة زواجه بطيب الغالية بدل الزيت .

### عمر بن عبد العزيز

وكانت تاهت مظنّة عمر بن الخطاب وبشارته لابنه عاصم حين لم تلد الهلالية ذكرا، وولدت انثى، ثم رجعت بشارة عمر فتاهت مرة اخرى حين تزوّجت ام عاصم عبد العزيز بن مروان وولدت له اشقاء اربعة : ابا بكر وعمر ومحمدا وعاصما ، ولكنّ مواريث

(١٥) فتوح مصر وأخبارها ص ١٠٣

(١٦) صفة الصفوة ج٢ ص ٦٣

الأبوين اخذت تجتمع في عمر اكثر مما تجتمع في اخوته ، فورث منهما صفاتٍ تتفق وتختلف: ورث منهما معاً جوهر التقوى وحب المروءة والميل الى الانصاف. وورث من ابيه خاصة ذوقه الرفيع وادراكه الدقيق. وورث من امه خاصة حدتها وحماستها ولسَنها وقصدها في الكلام .

فانه حين استترت حدة عمر بن الخطاب في ابنه عاصم عادت فظهرت في حفيدته ام عاصم ، فلم تكن تدع امراً يهيجها إلا اهتاجت له ، ولم تترك غلطة ولا هفوة الا حاسبت عليها حساباً عسيرا . ولو كان المخطىء زوجها لم تعفه ولو كان هذا الزوج والياً واقفاً على رؤوس الناس .

وارسل عبد العزيز بن مروان والي مصر الى زوجته ام عاصم – وكانت في زورة لأهلها بالمدينة – ان تقدم عليه بحلوان مصر ومعها ابنها عمر ، فأخبرت عمَّها عبد الله بن عمر بن الخطاب بما رغب فيه زوجها ، فطلب اليها ان تلبي فتسافر ، وتُبقي ابنها عمر بالمدينة ليُنشَّأ ويُعلَم ، وقد صار آل الخطاب حوله يتعشقونه وينعطفون عليه بالمحبة والترضية ، لأنه وُلِد أكثر الناس شبهاً بأبيهم عمر ، فخلفته ام عاصم كما اراد عمها ، وقصدت مصر وحدها تريد حلوان .

فلما قدمت ولم يكن معها ابنها سألها عبد العزيز عنه فأخبرته ، فسر لبقائه بالمدينة في عطف اخواله آل الخطاب الذين آثرهم فتزوج منهم . وكانت وراء هذه الفرحة الظاهرة فرحةٌ اخرى ابلغ منها ، فان بني امية كانوا يتوددون لآل الخطاب ويرجون

رضاهم عسى ان يؤثر ذلك في اهل المدينـــة فيرضوا لمكان آل الخطاب فيهم . ورأى عبد العزيز من فوره ان يوظف لابنه من يخدمه ومن يعلمه هناك ، ثم اسرع فكتب بما علم وعمل الى اخيه عبد الملك الخليفة في دمشق ، فانطلقت نفس عبد الملك ، وفرح لهذه البادرة التي تقربه من المدينـــة باتصال حبله بآل الخطاب ، واجرى على ابن اخيه في كل شهر من مال الفيء الف دينار .

نشأة عمر

ونُشّيء عمر بن عبد العزيز في المدينة في مطارف النعمـــة ومباذل الجود ، ولجّت به نعمة أعمامه وحنان أخواله فمشى في الأرض وكأنما يكوّن لنفسه طبقة وحده ، هي بين السادة من أهل المدينة وبين السادة من أمراء دمشق ، غير ان مظاهره كلها كانت تميل إلى أن تكون صنعة أموية من أن تكون مطبوعة بطابع آل الخطاب .

شبّ عمر أبيض جميلا حسن اللون دقيق الوجه ممتلىء الجسم ريّان لا يصرف الرائي عنه بصره إذا رآه [17] ، فاذا ادّهن بالطيب عصفت في طريقه رائحة طيبـه فتشم من بعد ، فاذا جاوز الطريق بقيت رائحته مستقرة في المكان الذي يمرّ به ، وقد يتطيب بالعنبر فتبتل يده به ، فاذا طبع بخاتمه طينة الكتاب ورقعـــة القرطاس اتّسخت الطينة من العنبر [18] . وينتظر الناس ثيابه بباب الغسال

(١٧) ابن عبد الحكم ص ٥٣ ــ شذرات الذهب ج١ ص ١١٩ ــ ابن الجوزي ص ١٤٦

(١٨) ابن عبد الحكم ص ٢٢

فاذا ارسلها تسابق الناس اليه يعطونه دراهم كثـــيرة حتى يغسل ثيابهم في إثر ثيابه من كثرة ما حملت وما تترك في الماء من عنبر وطيب [١٩]

وإذا مشى عمر راح متبختراً متكبراً يتصنع له مشية ، هي له وحده ، يخترعها بين الكبر والتبختر ، كأنها مشية الجـــارية إذا كَعَبَت . وقد أعجبت مشيته تلك جواريَ المدينة وكواعبها فأخذن يقلدن المشية العمرية ، ويسرن على خطتها وموازينها حتى يرشقن اذا سرن وتجمل رشاقتهن في العيون [٢٠]

وأرخى عمر شعره ورجّله ، ولبس في إصبعـه خاتماً له فصّ ثمين ، أعطاه اياه ابن عمـــه الوليد ، كان جاءه من ارض المغرب وفتوح افريقية [٢١] ، وارتدى أغلى الأزر ، ولبس أثمن الأردية ، حتى كان يشتري الازار الواحد بمائة دينار ، ويشتري مُطرّف الخز بثمانمائة درهم ، ويضع يده عليه يجسّه فيستخشنه ولا يعجبه ، ويلبسه مكرهاً ، وصار الثوب لا يكون بالياً في نظره اذا بلي او مرّ عليه زمن طويل ، ولكنه صار يكون بالياً عنـده متى لبسه فوقعت عليه لأول لَبْسةٍ أنظار الناس . وقد غلا عمر في ذلك وتمادى حتى أوشك ألا يعجبه ثوب ، وكاد يجعل ماله كله في زينة الأثواب ثم لا يقنع حتى قال ذات مرة : لقد خفت أن يعجز رزقي عن كسوتي ! وما لبست ثوباً قط فرآه الناس عليّ الا خيّل لي

---

(١٩) الأغاني ج٨ ص ١٥٠ ـ صفة الصفوة ج٢ ص ٦٧

(٢٠) ابن عبد الحكم ص ٢١

(٢١) ابن الجوزي ص ١١١

انه قد بلي [٢٢]

وبدت على عمر مظاهر التكبّر والترف الأمويّ الصارخ ، فاذا سار لم يسر الا في جماعة من غلمانه وعبيدانه ، واذا دخل طرف ازاره الثمين في نعله جذب الازار فشقه ولا ينحني على نعله فيخلعها لينطلق الازار ، واذا سقط أحد شقي ردائه عن منكبه تكبّر ان يرفعه ، واذا انقطعت نعله لم يعرج عليها ، فاذا لحقه بها احد من خدمه عنفه وردّها [٢٣] . وظل عمر هكذا يزيد مظاهره غلواً وتمادياً حتى رماه بالكبر كثير من الناس [٢٤]

ولقد عاد عليه هذا الغلو بالخطأ والعقوبة ، فمذ عني بترجيل شعره وتسكينه وهو مسرف في السكون الى مرجّلته لتتم له جماله ، حتى تأخر مرة عن الصلاة ، وكان مؤدبه صالح بن كيسان ينتظره بباب المسجد ، فلما جاء بأخرة من الوقت سأله صالح عن سبب ابطائه ، فقال له : كانت مرجلتي تسكّن شعري ؛ فقال له : بلغ بك حبك تسكين شعرك ان تؤثره على الصلاة ؟ وكتب بذلك الى أبيه في مصر ، فأرسل عبد العزيز رسولاً الى المدينة لم يكلمه حتى حلق شعره [٢٥]

ولم يملك عمر نفسه من ميراث الحدة الطاغية التي ورثها من امه وكأنما عادت فدوّت في دمائه صرخة عمر بن الخطاب ، وكثيراً

---

(٢٢) ابن الجوزي ص ١٤٦

(٢٣) ابن الجوزي ص ١٥٠ — ابن عبد الحكم ص ٢١

(٢٤) ابن الجوزي ص ١٧٤

(٢٥) ابن الجوزي ص ٩

ما جرّته الى الزلل ، وقد خافه عبيده منها مخافة شديدة فأولوه طاعة عمياء ، وحين اجترأ عليه عبد له أسود وكان عمر في عنفوان حداثته أمسك عمر بتلابيبه وطرحه ، وجعل يضربه والعبد يستغيث ، وهو يثقل عليه بالضرب ، فتركه العبد يفعل . ثم رأى العبد أن يكسر فيه نخوة الحدّة ، فتربص لهدأة منه ذات يوم ثم قال له : هل جنيت جناية قط غضب بها عليك مولاك ؟

قال عمر : نعم .

فقال العبد : فهل عجّل عليك العقوبة ؟

قال : اللهم لا

قال : فلم تعجل عليّ ولم يعجل عليك ؟

فاستحيا عمر ، وعاودته الرقة ، وتركه قائلًا : قم فأنت حر لوجه الله تعالى ! ٢٦

رؤيا صادقة

وقد كرّم آل الخطاب عمر بن عبد العزيز وانحنت عليه ضلوعهم مع ان عبد العزيز بن مروان كان له عشرة أولاد ، هم : أبو بكر وعمر ومحمد وعاصم ، وامهم أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب . والأصبغ وسهل وسهيل والريان وأم الحكم وام البنين وأمهاتهم مختلفات ، بعضهم من ام عبدالله بنت عبدالله بن عمرو بن العاص وبعضهم من ام ولد اخرى رومية يقال لها مارية ٢٧ . فلعمر من ام عاصم أشقاء ثلاثة ، ولكن آل الخطاب أفردوا عمر

---

(٢٦) مروج الذهب ج ٢ ص ١٢١

(٢٧) فتوح مصر وأخبارها ص ١١٢

بالتكريم من بين أشقائه لأنه كان شبيه أبيهم ، ولأنهم رأوا فيه مخايل أمل يكاد يتحقق تأويلاً لرؤيا كان رآها أبوهم عمر بن الخطاب ، وكانت رؤيا يتمناها الناس أن تسرع فتولد ، فلما ولدت قويت وصارت فراسة عرفت من الخَلق والخُلق والحركة والمزاج ، ثم كانت كائناً حياً ينبض في ذات عمر بن عبد العزيز .

كان ابن الخطاب قد رأى رؤيا ، فقام منها يمسح النوم عن وجهه ويعرك عينيه ويقول : مَنْ هذا الذي يكون أشجّ من ولدي ، ويسير بسيرتي ؟ ٢٨ ، ويقول : إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً ٢٩ . وقد طوّفت هذه الرؤيا بعين ابن الخطاب فتعجب لها ، لأنه كان قد أصرّ على حرمان ولده جميعاً من الخلافة ، حتى من يكون كفئا لها منهم كابنه عبد الله . ولعل ابن الخطاب ودّ ألا يرى — حتى في منامه — مَنْ يلي الخلافة من ولده أو أحفاده . قد اشفق على أهله فلم يشأ ان يحمل أحد منهم إصْرَ امة ، ورَجا أن يخرجوا جميعاً من الدنيا ، قد حظوا منها بالكفاف لا عليهم ولا لهم .

ولكن عمر برغم نفسه وأمانيه صدّق الرؤيا . فلما قصّها على أهله صدقها أهله ، وانتظروا تأويلها . ودأب عبدالله بن عمر يقول قولة أبيه : ليت شعري ! من هـذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة ، يملأ الأرض عدلاً ! ٣٠ . وانتقلت القولة من فم إلى فم ؛

---

(٢٨) ابن عبد الحكم ص ١٨

(٢٩) المعارف ص ١٠٨

(٣٠) ابن الجوزي ص ٧

ونشت في أولاد عمر وأنسبائهم ، وفي بني امية والناس ، وعرفها الشيخ والصبي والطفل ، فانتظروا جميعاً الأشجّ الذي يحكم ، وكانوا على ثقة من ان رؤيا عمر بن الخطاب لم تكن إلا حقاً وصدقاً. وحتى الحجاج بن يوسف الثقفي وقف في المنتظرين المصدقين ٣١

ثم حان لعمر بن عبد العزيز أن يزور أباه في مصر وهو غلام ، فارتحل اليه ، حتى اذا جاء حلوان انطلق يتدلل ويتنقّل كما شاء له هواه ليرى بحلوان مصر ما لم يرَ بالمدينة . وخرج ذات يوم يتفرج بما شاء ، واصطحب أخاً له غير شقيق هو « الأصبغ » فأتيا معاً اصطبل الخيل ، وبينما عمر يلعب بلا حذر ، ويمضي في غفلة من وراء الخيل رمحته بغلة ، فأصابت الرمحة جبينه — وكانت شديدة — فشجت رأسه ، فصاح الأصبغ ضاحكاً حين رأى ما أصاب أخاه ، وجعل يقول : الله اكبر ! هذا أشجّ بني مروان الذي يملك ! ٣٢

كان الدم يسيل من عمر ، وعمر يتألم ، والأصبغ فرح يضحك ويصيح ويكبّر ثم يقول : هذا أشجّ بني مروان ! والأصبغ أموي ، ولكنه يرى أخاه أشبه ببني الخطاب منه ببني أمية ، بل كان إخوة الأصبغ وأهله جميعاً يرون ذلك ، وكانت لحاظهم ترمق عمر وقلوبهم تطيف به كلما درج وخطا واتضحت فيه السمات ، فلما رمحته البغلة فشجّته لم يملك الاصبغ أن صاح بما صاح به ، وطغى شعوره عليه فاستعلن وصاح بما أيقن ضاحكاً مكبراً.

وبلغ الخبر دار الأمير فأسرعت ام عاصم الى ابنها وبلغت

---

(٣١) ابن عبد الحكم ص ١٤٢

(٣٢) المعارف ص ١٥٨ — ثمار القلوب ص ٨٨

مكانه في جماعة من خدمها قبل ان يبلغه أبوه ، وأقبلت عليه تضمه اليها وتمسح الدم عن وجهه [٣٣] ، ثم لم تمسك عليها حدتها حين علمت ان الأصبغ كان يضحك ، فأقبلت على زوجها تعذله وتلومه وتقول له في علانية حين جاء: أما الكبير فيُخدم، وأما الصغير فيُكرم، وأما الوسط فيضيع ! لم لا تتخذ لابني حاضناً حتى اصابه ما ترى ؟

وجعل عبد العزيز يغضي ويمسح الدم عن وجه ابنه وهو مغتاظ على الأصبغ لما بلغه من ضحكه عند سقوط عمر ، وقال له : يسقط أخوك فتضحك سروراً منك بما اصابه ؟ فقال الأصبغ : ليس ذلك أيها الأمير ! لم تضحكني شماتة به ، ولا سرور بسقوطه ، ولكني كنت ارى العلامات من اشج بني امية مجتمعة فيه إلا الشجة ، فلما سقط وشج سرني ذلك لتكامل العلامات فيه فأضحكني ، وهو والله أشجّ بني أمية [٣٤] ؛ فسكت عبد العزيز عن الأصبغ وتأمل شجة عمر فمال الى زوجته أم عاصم يقول لها : ويحك ! انه أشج بني مروان ، وانه لسعيد ! [٣٥]

وقيل لعمر منذ ذلك الحين : أشج بني مروان ، وأشج بني أمية ، وأشج قريش . وصار بهذه العلامة موضع الحسد من أمراء امية واولاد عبد الملك خاصة ، وقد قالوا إنه لما صار عمر غلاماً ادناه عبد الملك منه وجعل يؤثره ويرقّ له ، فاذا دخل عليه رفعه فوق ولده جميعاً إلا الوليد ، فعاتبه احد ابنائه على ذلك ، فقال له : اوما تعلم لمَ فعلتُ ذلك ؟ قال : لا ، فقال عبد الملك : إنه

(٣٣) الطبري ج ٥ ص ٣١٩

(٣٤) ابن عبد الحكم ص ٢٠

(٣٥) ابن الجوزي ص ٧ ـ الاغاني ج ٨ ص ١٤٩ ـ ابن عبد الحكم ص ١٩

سيلي الخلافة يوماً ، وهو اشجّ بني مروان الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ان تملأ جوراً ، فما لي لا احبه ولا أدنيه ! [٣٦]

## الجوهر السليم

ولكنّ ابهة عمر ومظهره لم يكن لهما كل الطغيان على جوهره وقلبه ، فان قلبه — منذ طفولته — كان معلقاً بأخواله اولاد عمر ابن الخطاب ، يحبهم ويترسم طريقهم ويتمنى لو اصبح مثلهم . يرى فيهم القدوة الصالحة والمثل الكامل . وكان اذا زار خاله عبد الله ثم رجع من عنده رجع وقلبه مشغول به ، فيقول لأمه : يا أمّه ، أحب ان اكون مثل خالي عبد الله ، فتؤفف به امه ، وتستكثر عليه هواه ، وتقول له : اغرب اغرب ! انت تكون مثل خالك ؟ تقول ذلك وتكرره له [٣٧] . ولم تكن أم عاصم مخطئة فيما تؤفف وتستكثر ، فان عبدالله بن عمر كان اعظم آل الخطاب بعد ابيه ، وما من احد الا مالت به الدنيا ومال بها ما خلا عمر وابنه عبدالله ، ولم يعلق قلب رجل بالعبادة والخير كما علق قلب عبدالله حتى قال سعيد بن المسيب : لو شهدتُ لاحد انه من اهل الجنة لشهدت لعبدالله بن عمر [٣٨] .

وكذلك استتر وراء مشية الخيلاء والتبختر ومخايل الأنفة والكبر جوهر سليم ، واختبأ وراء حجاب خفيف ، فقد كان عمر — مع حدته على بعض غلمانه حين يخطئون — سهلَ الحجاب على

---

(٣٦) الاغاني ج ٨ ص ١٤٦

(٣٧) ابن عبد الحكم ص ١٩

(٣٨) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٣٤

اخوانه ، كريم المودة لهم ، يبتغي بمعروفه اهل الحاجة منهم . ولم يكن بينه وبين الغلمان الذين هم مثله ما يفرق بينه وبينهم او يفضله عليهم ، فتناولوا منه ما يتناول الأخ من اخيه الذي لا سلطان له عليه [٣٩] .

علم عمر

ثم اقبل عمر منذ رجع الى المدينة بعد شجته على حفظ القرآن [٤٠] وعلى دراسة الحديث ، عفيفاً مطيعاً سليم النفس ، حتى اذا تم له الحفظ أخذ يحدث عن بعض الصحابة واعلام التابعين ويروي عنهم : فحدث عن عبدالله بن جعفر وعن أنس وابي بكر بن عبد الرحمن وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود . وقد روى عمر عن ابن عتبة هذا اكثر مما روى عن جميع الناس [٤١]

ولم يكن يضاهي ابن عتبة عند عمر غير القاسم بن محمد بن ابي بكر ، أحد الثلاثة الذين ولدوا من فتيات فسادوا اهل الارض عبادة وزهداً ، وصاروا في زمانهم زينة الدنيا ، ففتنوا اهل المدينة بالزواج من الفتيات بعد ان كانوا عنهن راغبين [٤٢] وهم القاسم بن محمد وسالم بن عبدالله وعلي بن الحسين زين العابدين .

أما ابن عتبة فقد أحبه عمر وآثره ، وجعل يختلف الى مجلسه كثيراً اذ كان بحراً من بحور العلم [٤٣] ذا رأي وفقه وعفة ووقار ،

(٣٩) ابن الجوزي ص ٣٣ ، ١٧٤
(٤٠) شذرات الذهب ج ١ ص ١١٩
(٤١) ابن الجوزي ص ٨
(٤٢) زين العابدين ص ٤٦
(٤٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٧

وكان يمنح العلم لتلاميذه كما يريد فان أحبّ أذن لهم فدخلوا عليه وجلسوا ، وان لم يحب تفرقوا ورجعوا . وعمر نفسه كان مع ابن عتبة واحداً من هؤلاء التلاميذ ، يذهب اليه مرة فيأذن له ويعلمه ، ويذهب اليه أخرى فيرده ولا يأذن له ، ويرجع عمر عن ابن عتبة راضياً اذا ردّه كما لو أذن له [٤٤]

ولقد خفّ ابن عتبة على قلب عمر وصار يملأ عليه نفسه وزمانه ، وسيطر عليه سيطرة قوية وثبتت صورته في خاطره ثم لم تزل ابدا . وصار يراه في مخيلته نائماً ويقظان . وما كان الخطب يصيب عمر حتى يرى ابن عتبة في منامه او صحوه يوصيه ويعظه . ولقد قال لامرأته ذات مرة : فوالله يا فاطمة ما أكاد اغضب الا كأني انظر الى عبدالله قائماً يخاطبني [٤٥] ، ولم يكن ذلك من عمر الا لانه ألفَ ابن عتبة وصُبِغت روحه به ، ونزعت عروقه اليه ، ثم اوشك عمر ان يكون كابن عتبة ، ووشيكاً سيكون .

ثم روى عمر الحديث عن خاله عبدالله بن عمر وعن عبد العزيز ابيه وعن عمر بن ابي سلمة والسائب ويوسف بن عبدالله بن سلام وعبادة بن الصامت وتميم الداريّ والمغيرة بن شعبة . ثم روى عن عائشة وام هانيء وخولة بنت الحكم ، ثم روى عن سعيد بن المسيب وعبدالله بن ابراهيم بن قارظ وعروة بن الزبير وعامر بن سعد بن ابي وقاص وابي بردة ، وعن عراك بن مالك والزهريّ ومحمد بن كعب ومطور الحبشيّ وابي حازم ، وعن خلق غير

---

(٤٤) ابن الجوزي ص ٩ ـ صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٧

(٤٥) ابن الجوزي ص ٢٤٩

هؤلاء كثير [٤٦]

أسند عمر الحديث ورواه عن جماعة من الصحابة وجماعة من التابعين ، ثم لم يلبث ان اشتغل عن الرواية فقلّ حديثه ، ولكنه كان قد بلغ مبلغاً كبيراً من العلم بالسنن ، وصار ثبتاً حجة حافظاً ، يرى ويستنبط ، بالغاً مرتبة الاجتهاد ، وأقبل عليه كثير من الفقهاء يأخذون عنه [٤٧] ، وعاد اليه بعض الذين أخذ منهم يأخذون منه [٤٨] ، حتى اذا ذهب الى الشام بعدُ جعل الفقهاء من اهلها واهل الحجاز يستفتونه فيفتيهم [٤٩] ، بل كان كل من ظنه محتاجاً الى العلم فامتحنه رآه مستغنياً ، حتى قال ميمون بن مهران أحد اصحابه : أتينا عمر فظننا انه يحتاج الينا فاذا نحن تلاميذه ! [٥٠] .

## فاطمة بنت عبد الملك

فلما استوى شبابه تاقت نفسه الى مصاهرة عمه عبد الملك والزواج من ابنته فاطمة [٥١] ، وتاقت نفس عبدالملك الى مصاهرة عمر وتزويجه ابنته . فلما أذن القدر وحان الموعد ، وكان عمر في زورة لعبدالملك بالشام ، وهو في العشرين او دونها ، لم يتردد الخليفة ان يعرض عليه الزواج من ابنته ، فقبل عمر ووفى لعمّه جزاء ما اكثر له من بره ، وما اغدق عليه من هباته .

(٤٦) ابن الجوزي ص ١٢ ـ صفة الصفوة ج ٢ ص ٧١
(٤٧) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٨
(٤٨) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٢
(٤٩) ابن الجوزي ص ٢٨
(٥٠) ابن الجوزي ص ٢٧
(٥١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦١

قال عبدالملك لعمر وهو يزوره : قد زوجك أمير المؤمنين بنته فاطمة . فقال عمر : وصلك الله ياأمير المؤمنين ، فقد اجزلت وكفيت ! فسر عبدالملك واعجب برده وجوابه وابدى له استحسانه . وثار الحسد في بعض اولاده فقالوا له : هذا كلام تعلمّه فأداه!

ولم يَرَ عبدالملك بدّاً من ان ينتهز فرصة المفاجأة ليُظهر اولاده على ذكاء عمر ويخمد غضبهم عليه ، وظل يترقب حتى دخل عليه عمر يوماً وعنده اولاده فقال : ياعمر ، كم نفقتك ؟ فقال عمر : الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين . قال: ما هي؟قال: «والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقتروا، وكان بين ذلك قواما . »فقال عبدالملك لأولاده : منْ علمه هذا ؟ [٥٢]

القطائع

رَووْا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : جُعل رزق هذه الأمة في سنابك خيلها وأزّجة رماحها ما لم يزرعوا فاذا زرعوا كانوا من الناس [٥٣] . فلما فتح العرب الفتوح والبلدان لم يؤذن لهم بأن يملكوا الأرض ويزرعوها وانما ترك ذلك لأهل الذمة أو لمن يُسْلم منهم ويَوّد أن يظل زارعا .

واختلف الرواة في اول من اقطع العرب ارضاً من الرؤساء. فقيل إن رسول الله اقطع عليّ بن ابي طالب بئرَ قيس والشجرة، ثم اقطع ابو بكر الزبيرَ ما بين الجُرْف الى قناة، ثم اقطع عمر بن

(٥٢) ابن الجوزي ص ٢٧

(٥٣) الخراج للقرشي ص ٨١

الخطاب خمسةً من اصحاب رسول الله : سعدَ بن ابي وقاص وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرَتّ واسامة بن زيد والزبير بن العوام، ثم باع اسامة ارضه. وكذلك اقطع عمر عليّ بن ابي طالب يَنبع. وقالوا اقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلًا ارضاً ، فلما كان عمر بن الخطاب ترك في يد الرجل من الأرض ما يعمره واقطع بقيتها غيره [٥٤] .

وقالوا : اول من اقطع الارض عمر بن الخطاب ، فأنه اصفى اموال كسرى وآل كسرى وكلّ من فرّ عن ارضه او قتل في المعركة ، وكلّ مغيض ماء او اجمة ، فكان عمر بن الخطاب يُقطِع من هذه لمن اقطع ، وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث [٥٥] . وكان فيمن اقطعهم عمر رجل يقال له ابن سَنْدر، اقطعه عمر « منيَة الأصبغ » ولم يقْطِع عمر احداً من الناس من ارض مصر الا ابنَ سَنْدر ، فلم تزل له حتى مات فاشتراها الأصبغ ابن عبد العزيز من ورثته فسميت باسمه .[٥٦] وقالوا انه ليس بمصر قطيعة اقدم منها ولا افضل . وكان سبب ذلك انه كان لزنباع الجذاميّ غلام نصرانيّ يقال له سندر فوجده زنباع يقبّل جارية له فجبّه وقطع اذنيه وانفه ، فاتى سندر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل الى زنباع فقال : « لاتحملوهم ما لا تطيقون ،

---

(٥٤) الخراج للقرشي ص ٧٧ ، ٧٨ ، والجرف وقناة مكانان قرب المدينة

(٥٥) يرى ابو يوسف صاحب الخراج ان للامام العدل ان يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الاسلام ويضع ذلك في موضعه ولا يحابي به : الخراج لابي يوسف ص ٥٧

(٥٦) منية الأصبغ في شرقي مصر : معجم البلدان ج ٨ ص ١٨٨

واطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، فـــان رضيتم فأمسكوا ، وان كرهتموهم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، ومَنْ مثّل به او احرق بالنار فهو حر وهو مولى الله ورسوله ». فاعتق سندر واسلم ، ولكنه لم يَرَ لنفسه نفعاً ولا قدرة ، فقال اوصِ بي يا رسول الله ، قال : « أُوصي بك كلَّ مسلم ! » واقام سندر عند رسول الله يرفق به . فلما اشتد مرض رسول الله قال له سندر : يا رسول الله إنا كما ترى فمن لنا بعدك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اوصي بك كل مؤمن !

فلما توفي رسول الله اتى سندر الى ابي بكر فقـــال : احفظ فيّ وصية النبي صلى الله عليه وسلم ، فعـاله ابو بكر حتى توفي ، ثم اتى عمر بن الخطاب فقال له : احفظ فيّ وصية رسول الله ، فقال : نعم ان رضيتَ ان تقوم عنـدي اجريتُ عليك ما كان يُجْري عليك ابو بكر ، وإلا فانظر اي المواضع اكتب لك . فقـــال سندر : مصر ، فإنها ارض ريف ، فكتب له إلى عمرو بن العاص : احفظ فيه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قدم على عمرو أقطع له ارضاً واسعة وداراً ، فجعل سندر يعيش فيها ، فلما مات قبضت في مال الله[٥٧]

اما قطائع عمر في الشام فكانت لأجناد المسلمين حـــين عسكروا في مرج بَرَدَا ما بين المِزَّة ومرج شعبان[٥٨] جنبـــتي بَرَدَا وكانت مروجاً مباحة لأهـل دمشق وقراها ليست لأحد

(٥٧) فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٧

(٥٨) شعبان بطن من القحطانية .

منهم ، فأقاموا بها حتى اوطأ الله المشركين ذلاً وقهراً ، واحيا كلُّ قوم محلتهم وهياوا فيها بناء، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب فأمضاه لهم ، فبنوا الدور ونصبوا الشجر ، ثم امضاه عثمان ومن بعده [٥٩]

هكذا قيل . ولكن قوماً آخرين ينكرون ان يكون عمر ابن الخطاب قد اقطع وقالوا : لم يُقْطِع ابو بكر ولا عمر ولا عليّ ، وقالوا اول من اقطع القطائع عثمان بن عفان وبيعت الأرضون . وكان بدْء ذلك حين هزم الله الروم وهربوا عما في ايديهم من المزارع ،فصارت تلك المزارع والقرى صافيةً للمسلمين موقوفة ، يقبّلها [٦٠] والي المسلمين وتدخل قبالتها بيتَ المال فتخرج نفقةً مع ما يخرج من الخراج .

ثم كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان إن الذي اجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل امرائهم ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها، ووصف معاوية في كتابه المزارعَ الصافية بالشام وسمّاها له ، وسأله ان يقطعه اياها ليقوى بها على ما وصف له ، وانها ليست من قرى اهل الذمة ولا الخراج . فكتب اليه عثمان بذلك كتابا . قالوا : فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وافضى الى معاوية الأمر، فأقرّها على حالها ثم جعلها من بعده حبساً على فقراء اهل بيته والمسلمين .

---

(٥٩) تاريخ مدينة دمشق المجلدة الأولى ص ٥٩٣ـ٥٩٧

(٦٠) التقبيل : الكفالة والضمان .

قالوا : ثم ان اناساً من قريش واشراف العرب سألوا معاوية ان يُقْطعهم من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان اقطعه اياها ففعل ، فمضت لهم اموالاً يبيعون ويهبون ويورثون . ثم انتقل معاوية من إقطاع الأرض الى إقطاع القرى والدور ، ولكنه لم يمض الأمر كله اذ ثار الناس وتكلموا فرجع عما نوى .

قالوا : اقطع ابنه يزيد بن معاوية قرية من قرى الفيوم بمصر ، فأعظم الناس ذلك وتكلموا فيه ، فلما بلغه ذلك رهب قالةَ الناس فردّ تلك القرية الى الخراج كما كانت للمسلمين ، وكان معاوية كالجمل الطّنيّ [٦١] يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، يرمي بالكلمة فان ذلت العرب امضاها وان انكروها لم يمضها [٦٢]

فلما افضى الأمر الى عبد الملك بن مروان — وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية اقطعها احداً — سأله اشراف الناس القطائعَ منها ففعل حتى لم يبق منها شيء . ثم نظر عبدالملك الى ارض من ارض الخراج وقد باد اهلها ولم يتركوا عقباً فأقطع الأشرافَ منها ، ورفع ما كان عليها من خراجها ، ورآه جائزاً له مثل إخراجه الجوائز للخاصة من بيت المال .

ثم سأل الناس عبدالملك والوليد وسليمان قطائع من ارض القرى التي بأيدي أهل الذمة — وكانت تعد ارضاً للمسلمين ولكنها دفعت الى اهل الذمة على ان يأكلوا منها ويؤدوا خراجها وليس لهم بيعها ولا لأحد ان يشتري منها — فأبى ذلك عليهم هؤلاء

---

(٦١) الطني بالضم وتضعيف الطاء والنون والياء : الجسيم.

(٦٢) فتوح مصر وأخبارها ص ١٠١

الخلفاء ، فعاد الناس يسألونهم أن يأذنوا لهم في شرْي الارضين من اهل الذمة فأذنوا لهم . ومن ثَمّ صارت الارض والقرى والدور دُولةً بين الناس .

وقد استحل بنو أمية الصوافي وشراءها وسكناها ، ولكنّ بني هاشم حرّموها . قال سفيان الثوري : ان كانت لبني أمية حلالاً فهي على بني هاشم حرام ، وان كانت على بني أمية حراماً فهي على بني هاشم أحرم واحرم .

### قطائع عمر

اما عمر بن عبد العزيز فلما صار له ان يتصرف في ماله ويتزوج ، فقد وهب له بنو امية — غير ما ورث من ابيه واهل بيته — هبات كثيرة ، وضياعاً منتشرة غنية في كل الآفاق : صارت له ارض يغلها في الحجاز والشام وفي مصر واليمن والبحرين ، ونزل له بعض الخلفاء عن حقه في قطائع غنية ذات غلات ، وقبل عمر ابن عبدالعزيز ما اعطوه راضياً مبتهجاً لم يردّه مهما كان مأتاه : من مواريث او من مظالم ، فليس عليه هو من ذنب — كما ظن — وانما هو رجل يوهب له ، فان كان هناك من ذنب فانما هو على غيره من آبائه واجداده . لم يردّ عمر شيئاً مما اهدي اليه ، بل لم يسأل عن اصله ومأتاه ، حتى صار له من الغنى والثروة ما ليس لغيره من كثير من الأمراء .

صارت له السويداء وخيبر وفدك بالحجاز ، وصارت له المكيدس وجبل الورس باليمن ، وصارت له بَدَا وجزين[٦٣] من

(٦٣) هكذا في تاريخ دمشق ص ٥٩٨ ولعلها حزين ( بالحاء ) لأن التي بالجيم ليست من أرض بعلبك وإنما من ارض صيداء . وكذلك بدا .

ارض بعلبك بالشام ، وصارت له قطائع متفرقة في مصر واليمامة والبحرين ، وكان لبعض هذه القطائع سجلات ، وبعضها ليس له سجل . كانت اكثر من ان يحصيها عمر او يراها ، وقد وفد عليه منها دخلٌ ضخم من المال قدروه بأربعين الف دينار تفد عليه من غلتها كل عام .

إمرة خناصرة[٦٤]

ولما جاوز عمر العشرين من عمره ورآه عبدالملك قد بلغ من المكانة في العلم والاجتهاد والجاه ورفعة الشأن ما يجعله جديراً بامرة الناس رأى ان ينصبه والياً على إقليم قريب صغير ليتعلم ويجرب ويزداد خبرة ودراية . وكان عبدالعزيز بن مروان قد مات وصارت ولاية العهد الى الوليد وسليمان ، ولم يصر لأبناء عبد العزيز وراثة في الخلافة ، فأراد عبدالملك ان يمسح عن عمر حزنه على أبيه ويرضيه بعد إقصاء عرقه ، فولاه خناصرة سنة خمس وثمانين ، فأقام بها عمر والياً حتى مات عبدالملك واستخلف الوليد ، فأرسل اليه الوليد بامرة المدينة بعد ان خلع عنها هشام بن اسماعيل[٦٥] .

---

(٦٤) خناصرة بليدة من اعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية ذكرها الجعدي وابن الرقاع والمتنبي وجران العود في اشعارهم وفيها يقول المتنبي :

احب حمصاً الى خناصرة ... وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح لبـ ... ـنان وثغري على محياها
وصفت فيها مصيف بادية ... شتوت بالحصحصان مشتاها
ان اعشبت روضة رعيناها ... او ذكرت حلة غزوناها

معجم البلدان ج ٣ ص ٤٦٧

(٦٥) زين العابدين ص ٧٦

# ولاية المدينة

بداية الفطنة

تأثر الوليد بن عبدالملك بمحبة أبيه لعمر بن عبد العزيز ، وتأثر بما صار لعمر من مكانة في قضاء حاجات الناس وحاجات بني أمية خاصة ، وكانت صارت له به آصرة المصاهرة بزواج عمر من أخته فاطمة ، فلما استخلف الوليد وبلغ عمر الخامسة والعشرين من عمره ولاه امرة المدينة ، وولاه بعد هشام بن اسماعيل المخزومي الذي كان آذى الناس وابتلاهم ، وخصّ اهل البيت بالبلاء وأشد الايذاء . فولاه الوليد ليهدىء به النفوس الثائرة ويرضي القلوب النافرة .

فلما كتب الوليد لعمر بولايته على المدينة أبطأ عن الخروج اليها ، لأنه كان يعلم ما أصاب أهلها من هشام بن اسماعيل ، فأرسل اليه الوليد يسأله : ما باله لا يخرج الى عمله ؟ فرجع اليه الرسول يقول : زعم عمر أن له اليك ثلاث حوائج . فقال الوليد : عجّله عليّ . فلما جاء قال : إن أباك ولى من كان قبلي ، فأنا احب ألا تأخذني بعمل اهل العدوان والظلم . فلم ير الوليد إلا ان يقبل

لأنه يريد رضا اهل المدينة ، فقال لعمر : اعمل بالحق وإن لم ترفع الينا إلا درهماً واحداً [٦٦]

وقدم عمر المدينة في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين ، ولم ينس ان يقدم اليها في موكب من زينته فقدمها في موكب عظيم يتألف من ثلاثين بعيراً . فلما دخل المدينة على حين فرحة من أهلها دخل دار جده مروان حيث كانت من اكبر دورها واعزها ، ثم أقبل الناس فسلموا عليه بالامارة ورحبوا به ترحيباً عظيما [٦٧]

ودخل عمر المدينة كما كان بها غلاماً ، تعصف ريحه ويسترسل شعره . وكما كان من قبل مسبل الازار ، يجرّ ذيله متبختراً في مشيته العمرية ، لم يترك مما كان فيه شيئاً [٦٨]

مشورة الفقهاء

ولكن عمر وقد أخذ على الوليد ألا يُسأل عن عمل اهل الظلم والجور — رأى ان يجرب خطة جديدة لم تَتَح له في خناصرة ، او لعله جرّبها هناك في نطاق ضيّق ، فرأى ان يبدأ عمله بالشورى لئلا تقع عليه مسئولية أمر ليس لأهل المدينة رأي فيه ولا اقبال عليه .

وكانت المدينة تعجّ بأهل العلم والزهد والوعظ ، وقد اشتهر من بينهم الفقهاء السبعة الذين عاشوا بها متعاصرين ،

---

(٦٦) ابن الجوزي ص ٣٢

(٦٧) الطبري ج ٥ ص ٢١٦

(٦٨) ابن عبدالحكم ص ٢٠

وعنهم انتشر العلم والفتيا في الدين بعد الصحابة ، وكلهم من سادات الناس وأعلام التابعين .

ولم يكن هؤلاء الفقهاء السبعة صاغة كلام لا يؤثر كلامهم وإن رقّ وراق ولا ينفع وعظهم مهما علا وبلغ . إنهم لم يكونوا ملبّسين ، لأن التلبيس وإظهار المموّه وشغل الناس عما في أيديهم لتتم الرياسة وتُقضَى آراب الدنيا ـ لم يكن كل ذلك من صنعتهم ، ولكنهم كانوا يخلصون السرّ كما يخلصون العلانية ، وكانت أعمالهم توافق علومهم ، وأقوالهم من نياتهم ، فصاروا أئمة يُقتدى بهم ويوثق بكلامهم وتُصدَّق أحكامهم .

اثنان منهم يتسابقان في الفضل ويتفاضلان في السبق هما سعيد ابن المسيّب بن حزن وسليمان بن يسار ، وكلاهما من الطبقة الأولى من التابعين . أما سعيد فلم يكن قد بقي من هو أعلم بقضاء رسول الله وقضاء صاحبيه منه [٦٩] . وأما سليمان بن يسار مولى ميمونة أم المؤمنين فكان عالماً فهماً وعابداً ورعاً وثقة حجة . وكان سليمان عندهم أفهم من سعيد ، وقد روى عن خلق كثير منهم ابن عباس وأبو هريرة وأم سلمة ، وروى عنه الزهري وجماعة من الأكابر ، وكان المستفتي إذا أتى سعيد بن المسيب فسأله عن شيء قال له سعيد : اذهب إلى سليمان بن يسار ، فإنه أعلم من بقي اليوم ! وكان سليمان أعلم أهل المدينة جميعاً بأحكام الطلاق [٧٠]

وأما الخمسة الباقون فكانوا جميعاً من الطبقة الثانية من التابعين ،

---

(٦٩) صفة الصفوة ج ٢ ص ٤٤

(٧٠) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٣٦

وهم : عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة القرشيّ المخزومي ، وخارجة بن زيد ابن ثابت الأنصاريّ ، ثم القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وابن خالته سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب .

وابنُ عتبة راهب قريش عالم ناسك ، لقي خلقاً كثيراً من الصحابة، وسمع عن ابن عباس وأبي هريرة وأم المؤمنين عائشة، ثم روى عنه الزهريّ وغيره . وقد قال الزهري فيه حين لقيه ليأخذ منه : سمعت من العلم شيئاً كثيراً فظننت أني قد اكتفيت حتى لقيت عبيدالله فإذا كأني ليس في يدي شيء ! [٧١]

وأبو بكر بن عبد الرحمن عالم كثير الصلاة والعبادة ، سمّي أيضاً راهب قريش أو راهب المدينة ، روى عن أبي مسعود الأنصاري وأبي هريرة وعائشة وأم سلمة [٧٢] وغيرهم .

وخارجة بن زيد تابعيّ جليل القدر ، ورث عن أبيه زيد علم الفرائض ، وكان أبوه من أكابر الصحابة وأعلم الناس بالفرائض وقسمة المواريث. وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرَضكم زيد .

أما القاسم وسالم فكانا ابني خالة ، وأمّاهما من بنات يزدجرد ابن كسرى . وكان القاسم أعلم من سالم [٧٣] ، رجلاً مهيباً وقوراً لايقول إلا ما يعلم، وما كان أحد أعلم بالسنّة منه، وكان عمر بن عبد

---

(٧١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٠٠

(٧٢) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٢

(٧٣) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٢٤

العزيز يقول: لو كان لي من الامر شيء لوليتُ القاسم بن محمد الخلافة[٧٤] أما سالم فكان سيداً عالماً ثقة، روى عن أبيه وغيره، ثم روى عنه الزهري ونافع. وكان سالم زاهداً يلبس الصوف ويعالج بيديه ويعمل ويستغني، وكان حسن الجسم، قال: دخلتُ على الوليد بن عبد الملك فقال: ما أحسن جسمك! فما طعامك؟ قلت: الكعك والزيت، قال: وتشتهيه؟ قلت: أدعه حتى اشتهيه فاذا اشتهيته أكلته. وكان سالم يقول: إياكم ومداومة اللحم فان له ضراوة كضراوة الشراب[٧٥]

وكان سالم في وفرة من الغنى والعفة. دخل هشام بن عبد الملك الكعبة وكان ولياً للعهد فاذا هو بسالم، فقال له: سلني حاجة، فقال له سالم: إني لأستحي من الله أن أسأل في بيت الله غيره. فلما خرجا قال له هشام: الآن قد خرجتَ فسلني حاجتك، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: بل من حوائج الدنيا، فقال سالم: ما سألتُ من يملكها فكيف أسأل من لا يملكها؟[٧٦]

رأى عمر ان يستشير ستة من هؤلاء الفقهاء ويترك سعيد ابن المسيب لما كان من سنّه وضعفه ولما كان بينه وبين الوليد وبني أمية، وضمّ اليهم أربعة من سادات العبّاد والفقهاء، هم عروة بن

---

(٧٤) صفة الصفوة ج ٢ ص ٤٩

(٧٥) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٩٤

(٧٦) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥١

الزبير ، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وعبدالله بن عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عامر بن ربيعة ، فصاروا عشرة من الفقهاء الاعلام .

ولم يكن في أرض الله أعبد من هؤلاء ، ولا أخشى ولا اعلم ، الا من لم يقدر على الرجوع الى عمر اذا دعاه من سنٍّ او ضعف ، والا علي بن الحسين زين العابدين . فدعا عمر اليه اولئك العشرة ليستشيرهم ويقضي بما يرون .

وجاء الفقهاء فدخلوا عليه فجلسوا ، فأخبرهم بما رأى ، وأنه انما دعاهم لأمر يؤجرون عليه ، ويكونون أعواناً على الحق ، وأخبرهم أنه لا يريد أن يقطع أمراً الا برأيهم جميعاً ، او برأي من يحضر منهم ، وطلب اليهم أن يراقبوا المظالم ويرفعوها اليه ، فخرجوا من عنده وهم يجزّونه خيراً [٧٧]

ميول عمر

دعا عمر هؤلاء الفقهاء الصلحاء ليعاونوه ويشيروا عليه ، ولكنه لم يكن قد مال كل الميل الى الطريق التي يرسمون والرأي الذي يرون . وقد بدا أن عمر لم يكن يقوى على أن يسمع منهم أو من غيرهم العذل والملامة ان عذلوا او لاموا ، وبدا أن عمر دعاهم وهو متأثر بهم حين كان غلاماً يتأدب بالمدينة ويتعلم ، فكان المثال الحسن عنده ضخماً ، والقدوة الصالحة في عينه جليلة ذات تقديس ، فكان يرى في ابن عتبة مثال الراعي الشفيق على ابله ، يقسو عليها ليجنبها مواقع الهلكة ، وكان يرى القاسم أحق الناس بالخلافة ،

(٧٧) الطبري ج ٥ ص ٢١٦

ويرى زين العابدين سيد الناس . وللناشئين الشادين والآخذين بطرَف من الحياه نظرةٌ الى القدوة والمثال غير ما ينظرون اليها اذا شبوا وكبروا وجربوا ، وقد تتبدل الحال اذا صار المقتدي الشادي أميراً وحاكماً على الناس . ومع ان عمر لم يغيّر رأيه في هؤلاء الفقهاء ، وأقبل عليهم يستشيرهم ، فان التاريخ صمت دون ان يقص لهؤلاء مع عمر اخباراً ذات بال .

وإنه بينما مال عمر اليهم هذه الميلة وأرادهم المشورة مال عنهم ميلة اخرى ، وانحرف عن طريقتهم في خاصة نفسه بعض الانحراف ، وظل يروح بين هذه وهذه لم يسنّ له طريقاً خالصة يلزمها ، وراح يجمع مع العلم رواية الشعر ، ويجمع الى الفقه سماع الغزل والغناء وصناعة الالحان .

روى عن الأخطل إنشاده بين يدي عبد الملك [٧٨] ، وروى عن ابن الخطيم . وأذن للشعراء والرجّاز أن يقصدوه ، فأنشده دُكينٌ الراجز وأعطاه عمر خمس عشرة ناقة من كرائم الابل [٧٩] . وجاءه نصيب وهو بالمسجد وأراد ان ينشده من مراثيه في أبيه فقال له عمر : لا تقل فتحزنني ، وطلب اليه ان ينشده غزلاً ، فأنشده فأعطاه . ثم دخل عليه حُمَيد الأبجيّ المسمّى « أخا الخمر » لكثرة شربه لها ووصفه اياها فلم يردّه وسمع لما ينشده [٨٠]

وسمع عمر للاصوات وطرب لها ، وتمادى فصفق بيديه ورجليه ،

---

(٧٨) الموشح ص ١٣٧

(٧٩) الأغاني ج ٨ ص ١٤٩

(٨٠) معجم البلدان ج ١ ص ٣٣٠

ثم تمادى فغنى ووضع الألحان للغناء ، ولكنه لم يجعل غناءه ليصل به الى خسائس الامور ، وانما كان إظهار أثر من آثار علمه لحسّه ، حتى يتبيَّن النِّسب التي تتألف في نفسه ويظهر حكمتها ، وكذلك كان تماديه جميلًا مستحسناً وإن كان فيه بعض الخروج عن العادة والأَلْف عند صالحي المؤمنين .

وغنى عمر بصوت نديّ حسن التطريب حتى انه كان يلهي بحسنه من انقطع في المسجد الى الصلاة . وقد رووْا أنه دخل المسجد ذات ليلة فصلى قريباً من سعيد بن المسيب ، ورفع صوته بالتلاوة ، فقال سعيد لغلامه « بُرْد » : يا بُرْد ، نحّ عنا هذا القارىء فقد آذانا بصلاته . وتمادى عمر في صلاته وتلاوته ، فعاد سعيد لغلامه فقال له : ويحك يا برد ! ألم أقل لك نحِّ هذا القارىء عنا ؟ فهاب الغلام أن يقول للامير شيئاً فرفع صوته قائلًا لسعيد : ليس المسجد لنا ! فسمع عمر فأدرك فأخذ نعليه وتنحّى الى ناحية من المسجد وصلى [٨١]

والتلاوة الجيدة كان عمر يستحسنها ، وقد سمع لمسلم بن جُنْدَب ، وكان قاصّ المسجد وقارئه ، سمعه يقرأ القرآن ويجيد ترتيله فأعجبه حسنه فقال : من سره أن يسمع القرآن غضاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب [٨٢] .

ثم كانت في عمر بين الميلتين ميلة ثالثة إلى الفكاهة والمزاح ، غير أنه كان مقتصداً فيها لا يخرج بها عن القصد وسيما الوقار .

---

(٨١) ابن عبد الحكم ص ٢٢

(٨٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤٦ ـ تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٣٩٦

غضبة على فقيه

وكان ميل عمر لمشورة الفقهاء خيراً له ، فلم يَدَعوه يسبح في ميلاته كيف يشاء ، بل أخذوا يلومونه كلٌّ من جانبه بقدر ما يرى لعله يُقصِر أو يسلك طريقاً سدداً . وقد حدث أن كان ذات يوم – وهو في ولايته – يمر بالمدينة ساحباً ثوبه جاراً ذيله ، فناداه محمد بن كعب القرظيّ قائلًا : يا عمر ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما جاوز الكعبين فهو في النار ! » فالتفت إليه عمر مغضباً وأغلظ عليه في الرد فقال له: اتق الله يا بن كعب! لا تكن ذبالة تضيء للناس وتحرق نفسها . ثم افترقا [٨٣]

كان عمر يمرّ متبختراً في مشيته العمرية في ثوب طويل مجرور الذيل ، ولم يكن عمر قد أثقله التكلف أو أحب أن ينفرد من بين الناس بما يخالفهم لينبّه على موضعه ويشير إلى نفسه ، ولكنها كانت عادة الصغر ، فلم يُجَشِّم نفسه تكلفاً أو يحمّلها مئونة غليظة ، فكره لذلك ما قاله محمّد بن كعب .

وأما القرظيّ فكان يعرف عمر حق المعرفة ، وإنما أراد له المشاركة في الخير ، وحرص على أن يكون في مظهر أهل الفضل ، كما وضعت لهم السنة وفرضت الشريعة ، ولعل عمر أدرك أن صاحبه أراد خيراً وقال صدقاً ، ولكنه أسرع فاحتد فقال .

وهكذا بدا أن عمر ضاق بابن كعب حين نهاه أن يجر ذيله . وغاية الظن أن عمر لم يكن يريد من الفقهاء إلا أن يرفعوا إليه مظالم الناس ويشيروا عليه حين يستشير ، أما التعرض له في خاصة

(٨٣) ابن عبد الحكم ص ١٤٦

نفسه فما كان يريده أو يصطبر عليه .

## الأمير الأمير

وما فتىء الناس يسمون عمر « بالأمير » كلما تحدثوا . ولم يكن أحد ممن يفد عليه أو يجالسه أو يخبر عنه إلا وهو قائل : « الأمير الأمير » حتى كاد اسم عمر يختفي من سوق الحديث ويحل مكانه اللقب . ولقد ضاقت نفس مزاحم بن أبي مزاحم مولى عمر بما يحدث من هذا الأمر ، حين رأى عمر يغالي لنفسه والناس يغالون له ، فانتظر ريثما تحين الفرصة . ثم حدث أن حانت مسرعةً إذ حبس عمر رجلًا ، وجاوز في حبسه القدر الذي يجب عليه ، فكلمه مزاحم في اطلاقه ، فقال له عمر : ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو اكثر مما مرّ ، فوجد مزاحم الفرصة قد سنحت ورأى الأمر قد جاوز حده فقال له مغضباً : يا عمر بن عبدالعزيز ، إني أحذرك ليلةً تمخض بالقيامة ، وفي صبيحتها تقوم الساعة ! يا عمر ، ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع قال الأمير قال الأمير !

قال عمر بن عبدالعزيز : ان أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم ، فوالله ما هو الا أن قال ذلك فكأنما كشف عن وجهي غطاءً ! [٨٤]

## مسجد المدينة

وجاء أمر الوليد الى عمر بأن يوسع مسجد المدينة ، وأمره ان

---

(٨٤) ابن الجوزي ص ١٤٠

يُدخل حُجُرات الزوجات بالمسجد ، وقد كان أبوه عبد الملك حاول ذلك ثم كفَّ عنه لأن اهل المدينة حين علموا بنيته فزعوا وضجوا ، ثم رأى الوليد أن الفرصة قد سنحت وعمر بن عبدالعزيز على المدينة لمكانه من أخواله آل الخطاب ومكان آل الخطاب من اهل المدينة ، ثم ان عمر يجمع الفقهاء حوله ، وكل أولئك كفيل بأن يرضي من لم يكن راضياً متى همَّ عمر به ، فصدع عمر بأمر الوليد [٨٥]

وبيوت النبي كانت تسعة ، بعضها من جريد مطيَّن ، وبعضها من حجارة ضخمة قد رُضِمَ بعضُها فوق بعض [٨٦] ، وسقوفها من جريد وقد دنت بحيث ينال الغلام الناشيء السقف بيده . وكان لكل بيت حجرة قد جعلت من أكسية من شعر مربوطة في خشب السرو . فلما توفي أزواج النبي وأراد عبدالملك ان يخلط الحجرات بالمسجد ضجَّ اهل المدينة بالبكاء كيوم مات النبي ، فأمسك عبد الملك ورجع عما رأى [٨٧]

ولما جاء أمر الوليد جمع عمر اليه وجوه الناس والسروات من الفقهاء ، فرأوا ما رآه وما رأى الوليد . وشمر عمر وشمر معاونوه ، وتقدموا معه يدلونه على اعلام المسجد ويقدرونه ويضعون أساسه [٨٨] . وأدخل عمر الحجرات بالمسجد ، واشترى ما بنواحيه ،

---

(٨٥) الطبرى ج ٥ ص ٢٢٢

(٨٦) الرضم عملية في البناء ساذجة لايراعى فيها نحت الأحجار وانتظامها.

(٨٧) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٢٦

(٨٨) الطبري ج ٥ ص ٢٢٢

ثم بنى ووسع وزخرف ، وقدّم القبلة ، وجوّف المحراب ،ورفع المنارة ، فكان أول من أحدث تجويف المحاريب في المساجد [٨٩] . وحين بنى المئذنة ازدادت المآذن انتشاراً من بعده في بلاد المسلمين تشبّهاً بمآذن الشام [٩٠]

وكان أنْ بدأ عمر البناء بعمال من أهل المدينة ، ومدّ يده لمعونته في أول من مدّ مؤدبهُ الفقيه المحدّث ذو المروءة والدين صالح بن كيسان ، وظلوا يدأبون حتى جاءهم المدد من فَعَلة أهل الشام ، ثم جاءت معونة صاحب الروم من الفعلة ومثاقيل الذهب وأحمال الفسيفساء [٩١]

إصدارات شتى

ثم كتب الوليد إلى عمر أن يسهّل الثنايا [٩٢] ، وأن يحفر الآبار ، وأن ينشيء الفنادق والخانات على طريق الحاج ويكثر منها على سكة خراسان لتأمين السائرين عليها وتزويدهم بما يريدون من الشراء ، ثم أمره أن ينشيء فوارة بالمدينة ، فعمل عمر ما أمر به ، وعمل الفوارة وأجرى الماء في بيتها ، فبدت ذات منظر رائع وفن معجب أنيق [٩٣]

فلما أتمّ عمر ما أمر بتشييده وتسهيله وحفره وإنشائه جوزي من الوليد بأن جعل عاملاً على مكة وعلى الطائف مع إمرة

---

(٨٩) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٧ ، ٢١٥

(٩٠) تاريخ العرب المطول ص ٢٣١

(٩١) الطبري ج ٥ ص ٢٢٣

(٩٢) الثنايا جمع ثنية كقضية: العقبة أو طريقها أو الجبل أو الطريقة فيه أو اليه.

(٩٣) الطبري ج ٥ ص ٢٢٤

المدينة، ثم عقدت له عام تسعين راية الامارة على كل أنحاء الحجاز[٩٤]

زيارة الوليد

وعنّ للوليد بن عبد الملك أن يحجّ في السنة الحادية والتسعين، فكتب إلى عمر بما أراد، فرحب عمر بما نوى الخليفة وما اعتزم. فلما حان له أن يجيء خرج عمر من المدينة يتلقاه في موكب عظيم، كان فيه من خاصة أهل المدينة عشرون رجلًا من الكبراء. وخرجوا جميعاً حتى بلغوا السويداء إحدى قطائع عمر ومزارعه، وكان موكباً يُلقي حملًا ضخماً على الابل ومتون الخيل.

وأقبل الوليد راكباً لم ينزل حين رآهم، إذ كان من عادة الخلفاء أن ينزل لهم الناس إن كانوا ركبانا، ويقوموا إن كانوا جلوساً[٩٥]، ولكنّ الناس حين رأوا الوليد لم ينزلوا وأرادوا لقاءه ركبانا، فأسرع حاجب الوليد يدنو منهم ثم صرخ فيهم: انزلوا لأمير المؤمنين! فنزلوا.

ثم اشار اليهم الوليد أن يركبوا، فركبوا. ثم دعا بعمر اليه وحده فسايَرَه حتى نزل بذي خشب على مسيرة ليلة واحدة من المدينة[٩٦] ثم أحضر عمر أصحابه فدعاهم الوليد رجلًا رجلًا فسلموا عليه، ودعا بالغداء فتغدوا عنده ذلك اليوم.

ودخل الوليد المدينة فغدا من فوره إلى المسجد ينظر إلى بنائه، وكان قد أخلي له قبل أن يصل إليه، ولبّى الناس جميعاً

---

(٩٤) الطبري ج ٥ ص ٢٣٠

(٩٥) العقد الفريد ج ٤ ص ٩٢

(٩٦) معجم البلدان ج ٣ ص ٤٤٠

أمر عمر في مغادرة المسجد الا سعيد بن المسيب ،فإنه جلس عند القبلة كعادته لا يبالي ، ولم يجرؤ أحد من الحراس أن يخرجه فقد مضى عليه خمسون عاماً لم تفته في يوم منها التكبيرة الأولى عند كل صلاة . وجلس سعيد في مكانه وليس عليه من الثياب الا ريطتان ما تساويان غير خمسة دراهم ، فجعلوا يتوسلون اليه أن يقوم من مقامه حتى يجيء الوليد ويخرج ، فقال سعيد : لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي أقوم فيه ! وكان بين الوليد وبين سعيد حساب .

سعيد بن المسيب

في سنة خمس وثمانين توفي عبد العزيز بن مروان بعد أن ولي مصر عشرين سنة ، وكانت له ولاية العهد من بعد أخيه عبد الملك، عقد لهما أبوهما مروان بذلك ، فلما مات عبد العزيز بن مروان عقد عبد الملك من بعده لولديه : الوليد ثم سليمان ٩٧ ، وبعث الى هشام بن اسماعيل المخزومي عامله على المدينة أن يدعو الناس لبيعة ولديه ، فبايع الناس غير سعيد بن المسيب فانه أبى وقال : لا أبايع وعبدالملك حيّ !

وسعيد بن المسيّب بن حَزْن أبو محمد المخزوميّ المدنيّ كان حينئذ أحد أعلام الدنيا ، وسيد التابعين ، وواحداً من الفقهاء السبعة ، وقد رأى الدنيا تكفَى مئونتها بأربعمائة دينار ، فلما امتلكها اتجر بها في الزيت وجعل يرتزق منها دون ان يقتضي من علمه مالاً ودون ان يمدّ يده للعطاء . ولما مات العبادلة صار الفقه في جميع البلدان الى الموالي إلا المدينة فكان فقيهها سعيد . وقد

(٩٧) شذرات الذهب ج ١ ص ٩٥

جمع بين العلم والعمل حديثاً وتفسيراً وفقهاً وورعاً وعبادة، وحج اربعين مرة الى بيت الله الحرام .

ولكن ذلك كله لم يكن ليحمي سعيد بن المسيب من غضب عبدالملك وسخط هشام بن اسماعيل حين امتنع عن المبايعة . وكان الشتم والجلد والتشهير والقتل عقوبات مفروضة على الفقهاء في هذا العصر : عصر عبدالملك خاصة ، ولم يكن هناك مَنْ يغتفر له الخطأ لمكانته من الجاه أو العلم أو التعبد إذا لم يرض الخليفة أو يغضّ الأمير . وقد ابتدع الحجاج للعصاة – في نظره – وسائل الملاحاة والتعذيب والحبس والقتل . وقتل الحجاج سعيدَ بن جبير بعد أن لاحاه ، وكانت أدنى كلمة مما قال سعيد بن جبير للحجاج تفتت الصخر وتهدّ الجبال . وقد أمر الحجاج بضرب عنقه ووجهه شطر القبلة وبين يدي الصلاة .

وسارت الدولة على هذا النهج . فلما أمر عبدالملك أن يبايع أهل المدينة لوليه وأبى سعيد بن المسيب – أمر عبدالملك عامله على المدينة هشام بن اسماعيل أن يضرب سعيداً فضربه هشام ستين سوطاً ، وطاف به على الناس وهو في تُبّانٍ من صوف وعليه مَسُوح ، وطاف به حتى إذا بلغ الثَنيّة التي كانوا يقتلون عندها العصاة ردّه حياً ، فحزن سعيد حين ردّوه لأنه ظن أنه مقتول فلم يعارض لبس المسوح والتبان ، ولو كان علم أنه مردود حياً لرفض أن يلبس . فلما بلغ الخبرُ عبدَالملك قال : قبح الله هشاماً : إنه كان ينبغي أن يدعوه الى البيعة ، فان أبى يضرب عنقه او

يكف عنه [٩٨] .

وكذلك جاء الوليد على معرفة بسعيد بن المسيب ، وجاء يحفظ له إباءه لمبايعته له من قبل ، وربما ودّ الوليد أن يرى في المسجد كل الناس غير سعيد ! وودّ عمر بن عبد العزيز لذلك لو تنحّى سعيد عن طريق الخليفة حتى يذهب ! ولكنه لم يستطع اذ كان مضى على سعيد تقليد خمسين عاما وعادتها ، لم يناذ للصلاة في فريضة مكتوبة الا وسعيد أسبق الناس الى المسجد قبل الأذان [٩٩] ، فلما قيل لسعيد ليخرج أو يتنحّى عن مكانه عند القبلة أبى وقال : لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي أقوم فيه !

ودخل الوليد المسجد فلم يَرَ فيه احدا ، قد أخلي له . ثم حانت منه التفاتة فرأى سعيدا جالسا عند القبلة . وبلغت الحيرة بعمر مبلغها ، وعرف الوليد أنه أبى أن يخرج ، وحاول عمر أن يفوّت الأمر . وكل مكان في المسجد كان يهون حين يجلس فيه سعيد الا القبلة ، فقد كان الوليد مشغوفاً بأن يراها ، لأنها والمئذنة فنّه الذي ابتدعه هو وعمر تشبهاً بآذن الشام .

قال عمر بن عبد العزيز : فجعلتُ أعدل بالوليد في ناحية المسجد لئلا يراه ، فالتفت الوليد الى القبلة فقال : من هذا الشيخ ؟ أهو سعيد ؟ فقلت : نعم . . . ومن حاله كذا وكذا . . . وجعلت أعتذر له وأقول : ولو علم بمكانك لقام فسلّم عليك . . . وهو ضعيف البصر . . . فقال الوليد : قد علمنا حاله ، ونحن نأتيه - وكان

---

(٩٨) الطبري ج ٥ ص ٩٠٢

(٩٩) صفة الصفوة ج٢ ص ٤٤

سعيد قد ضعف بصره – فدار في المسجد ثم جاءه فقال : كيف أنت أيها الشيخ ؟ فوالله ما تحرك سعيد ، فقال : بخير والحمد لله ! فكيف أمير المؤمنين ، وكيف حاله ؟ قال عمر : ثم انصرف الوليد وهو يقول : هذا بقية الناس ! وانا اقول : أجل يا أمير المؤمنين ! [١٠٠]

خطبة الوليد

وابتهج الوليد بما رأى في ذلك اليوم ، أو حاول أن يظهر أنه ابتهج ، فقسم بالمدينة رقيقاً من العجم كثيراً ، وآنية من ذهب وفضة ، وأموالاً . ومضى فوقف على الفوارة التي انشأ عمر ، فنظر الى بيت مائها وتدفقها منه فأعجبته ، فأمر لها بقوام يقومون عليها ، وأمر أن يسقى أهل المسجد منها [١٠١] .

ولكن الوليد ما لبث أن طغى شعوره على مظهره فغطاه وذهب ابتهاجه ، فقد أدرك ما في نفوس أهل المدينة منه ومن أهل بيته فغضب ولم يكظم غيظه ، وانتظر الجمعة وذهب الى المسجد فصلى بالناس ثم خطب فتوعد أهل المدينة ، وزاد فغيّر التقليد وخالف العادة فخطب الجمعة على المنبر قاعداً ! ثم ترك المدينة من قريب .

ولم تكن خطبة الوليد الا نفخاً في وقود ، فانكشف بها الرماد الرقيق عن الجمر والتهب ، وانقلب أهل المدينة يعلنون

---

(١٠٠) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٣ – اليعقوبي ج ٣ ص ٢٩ – الطبري ج ٥ ص ٩١

(١٠١) الطبري ج ٥ ص ٢٤

الغضب عليه ويزيدون ، وكان غضب أهل المدينة عليه جديداً على قديم ، أما الجديد فإنه خالف التقليد وقعد وهو يخطب تكبراً وغلظة عليهم ، وقد انزل وجوه المدينة الركبان وجرّهم وراءه حتى تفضل فدعاهم للغداء معه بذي خُشُب ، وقد طرد الناس عن المسجد حتى يكون له وحده ساعة يزوره ، وحبذا اباء سعيد بن المسيب عليه فلم يخرج .

وقد وهب الوليد الرقيق والذهب والأموال لسادات الناس ليترضاهم ، أما الفقراء فلم يأخذوا شيئاً لأنه لم يبال بهم ، واشتعل لهب الغضب في المدينة ففتحت أبوابها لمن يطردهم الحجاج أو يفرون منه ، فرداً بعد فرد ، ووفداً بعد وفد ، وتلقاهم أهلها يؤثرونهم على أنفسهم كعادتهم ، واندفع عمر ابن عبدالعزيز في تيار النفوس وغضب معها ، فتغاضى عن الوافدين ، ثم مدّ يده اليهم بالاحسان ثم بكى لهم وانحنى عليهم ، وكتب الى الوليد يخبره بظلم الحجاج وسفكه للدماء ، وخوّفه عواقب ما يفعله بأهل العراق [١٠٢]

وجاء الموسم الثاني في السنة الثانية والتسعين ، فعقد الوليد لواء الحجّ للحجاج بن يوسف ، وان يمرّ بالمدينة وهو يغدو للحج . وكتب الى عمر بذلك ، وعرف أهل المدينة فهاجوا ، فكتب عمر الى الخليفة يستعفيه ان يمرّ الحجاج به ، فان النفوس تغلي عليه . وخاف الوليد طغيان الأمر فأمر الحجاجَ ان يجاوز المدينة في

---

(١٠٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٦ .

طريقه ويسلك الى مكة من طريق أخرى [١٠٣]

وكذلك نفّذ الوليد نصفَ الأمر الذي أراده فانه لم يمنع الحجاج جملة من إمرة الحج ولكنه منعه ان يمرّ بالمدينة ، ومن ثم أصبح في نفسه شيء من عمر أو ثبت هـذا الشيء الذي كان في نفسه منه ، وقد تلجلج به حين زار المدينة في العام السابق ورأى غضب اهل المدينة عليه وعصيان سعيدبن المسيب واعتذار عمر له، فلما كتب له عمر بما كتب وثق بما تلجلج في نفسه من عمـر ، وانتظر له !

وانكشف الحجاج على ما كتب عمر للوليد فاضطغنه عليه ، فجعل يشمّ انفاس الحجاز ويقبض صدره لها . فلما رجع كتب للوليد بما اضطغن وانقبض، وجعل يشكو عمر ويدسّ له ويحرّض عليه ويقول له : إنّ كثيراً من مرّاق اهل العراق قد جَلَوا عنه ولجأوا الى المدينة ومكة ، وان ذلك وَهن وضعف ! وما زال الحجاج بالوليد حتى صدّقه في عمر وأذعن له ،وأرسل اليه يستشيره فيمن يوليه الحجاز اذا عزل عنه عمر بن عبد العزيز .

مفترق الطريق

ولم يفطن عمر للامر كله وانما أحسّ بشيء في نفس الوليد ، فرأى أن يرضيه ليتركه الوليد يمضي على خطته في الحجاز ، في ظلال هذا الرضا المكسوب . وأخذ الوليد يجرب عمر ليَرَى أينفّذ كل أمره ويرضيه؟ فاندفع عمر ينفّذ له كل امره : أرسل اليه الوليد ان يضرب على المدينة بعثاً فصدع عمـر بالأمر وأخرج

(١٠٣) ابن عبد الحكم ص ٢٤

منها أَلفيْ رجل للقتال . ثم كتب الوليد الى عمر أن يضرب رجلاً مائة سوط فصدع عمر بالأمر وضرب الرجل ولم يَرْع فيه حقاً ، وكان له صاحباً وكان اشله عليه كرماء .

وأصيب الرجل المضروب او أصيب عمر بحظ سيء ، فقد كانت في نفس عمر ضغينة عليه ، ولكنه أخمد نارها حيناً ، لأن الرجل حين كان أغضب عمر من ذي قبل لم يتعدّه الى احد آخر . ولكن الرجل اخذ يوغل فيما يُغضب ، وتعدّى فأغضب الخليفة وأغضب بني أمية جميعاً . وجاء امر الخليفة بضربه حين اشتعل أوار الخصومة بين عمر وبين الحجاج . وأحسّ عمر ان الهوة تزداد عمقاً واتساعاً بينه وبين الوليد ، فلم ير عمر بداً من ضربه ليطفىء ضغينته عليه وليهوّن من جفاء الخليفة ويكذّب رأي الحجاج فيه . وهكذا صار الأمر كله الى الخطأ والحدة وسوء الحظ ، وضرب عمرُ الرجل وصبّ عليه ماء بارداً وجسده يلتهب بالحمّى فكزّ الرجل فمات .

يومَ كتب الوليد الى عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد وادخال الحجرات فيه ثم بنائه وتوسيعه ، وصدَعَ عمر بأمر الخليفة فبدأ بهدم الحجرات — حزن أهل المدينة حزناً شديداً . ومع أن عمر اصطحب معه السروات من الفقهاء فإن أهل المدينة لم يغتفروا لعمر أن يمحو ذكريات الزوجات وبيوت النبي على عجل ، ولكنهم سكتوا . وجاء خُبَيْب بن عبدالله بن الزبير الى عمر فقال له : نشدتك الله يا عمر ان تذهب بآية من كتاب الله تقول « ان الذين

ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون . » [١٠٤]

وقلوب اهل المدينة كانت تخفق مع خبيب، فإنه مع ما كانت عليه حجرات الأمهات من ضعف وفقر ، كانت عزيزة على النفوس ان تزول ، وقد رَجَوا ان تظل قائمة لا تمس . ويُغْفَر لهم ما احبوا ، لأنهم اهل زمانها. ولو تركت الحجرات حتى يبعد الزمن وتُنْسى الذكريات المواثل — ما كان على الولاة الذين يهدمونها من لوم ، ولم يتشبث الناس !

ولكنّ الناس حزنوا ، وكان خبيب بن عبد الله اشد الناس حزنا واكثرهم جرأة واقداماً ، فسار الى تعنيف الأمير ، ولم يقعده ان الامير ذو حدة ، ثم صار بقوله الى التهكم به لا العظة له كما فعل القرظيّ من قبل، ولم يخفه ان عمر كان اعرف الناس بوجوه الكلام والقدرة عليه .

ثم لم يكن في قدرة عمر ان يحتمل اللوم والتهكم ، فحين طلب خبيب الى عمر ان يذهب بآية الحجرات من كتاب الله كان مسرفاً على عمر ، اذ ضمُّ الحجرات الى المسجد افضل لهنّ وابقى، ولكن عمر تلقى تهكم خبيب به بوجمة واصطبارة حتى تحين فرصة للعقاب .

ثم حان لعمر حين اختلط الامر بينه وبين الحجاج ، وبينه وبين الوليد — حان له ان يعاقب خبيباً ، فضربه مائة سوط كما امر الوليد .

وكان خبيب اسنّ ولد عبدالله بن الزبير ، وكان قد لقي

---

(١٠٤) اليعقوبي ج ٣ ص ٢٩

العلماء وقرأ الكتب ، وقالوا انه تعلم علماً كثيراً غريباً لم يكونوا يعرفون وجهه ولا مذهبه فيه ، يشبه ما كان يدّعي الناس من علم النجوم . وكان خبيب يتكهّن بالشيء فيقع . وكان مع كل ذلك ناسكاً نزر الكلام طويل الأناة عند الصلاة [١٠٥]

ولم يكن عمر بن عبد العزيز مع استعانته بمشورة الفقهاء حين حكم المدينة ، وحين بنى المسجد ووسّعه — لم يكن عمر يُذكر حين ذلك بكثير عدل ولا زهد [١٠٦] ، بل كان رجلا يعنى بزينته وكان ممتلىء الجسم ريّان . قال يونس بن ابي شعيب : شهدت عمر بن عبد العزيز وهو يطوف بالبيت وان حُجزة ازاره لغائبة في عُكنه [١٠٧] ، فلما طلب اليه خبيب أن يذهب بآية الحجرات غضب عمر وامسك . واستمر خبيب يغلو حتى حدّث عن النبي انه قال : « اذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلًا اتخذوا عباد الله خَوَلا ومال الله دولا » .

وسمع الناس في المدينة قول خبيب فلم يهتموا له ، فعندهم امثاله ، ولكن الخبر طار حتى بلغ سمع الوليد ووطىء فراشه ففزع له ، وخيل للوليد أن الناس قد سمعوه في آفاق الارض فلم يغادره رأيه حتى كتب الى عمر بن عبد العزيز — وهو مغيظ عليه — أن يضرب خبيباً مائة سوط ، ثم يدفع به من بعد الى السجن ، ولو ترك الوليد أمر خبيب دون ان يفزع له لما صار لحديثه من

(١٠٥) ابن الجوزي ص ٣٤

(١٠٦) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٢

(١٠٧) حجزة الازار معقده ، والعكن ما انطوى وثنى من لحم البطن . — صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٧

الشأن ما صار له من بعد ، فإن عقربة خبيب ذاعت ، وذاع معها قوله وحديثه ، وصار للناس تسلية بين الاحاديث .

ولو كان عمر يعرف ما يدور بين الوليد والحجاج ، وما يستشار فيه الحجاج فيمن يتولى الحجاز بعده لما ضرب خبيباً ، ولكنه لم يكن يدري ، فجاء به وضربه مائه فمات خبيب ، ولو راجَعَ عمرُ الخليفةَ ، او رجع الى شروطه عليه حين قَبِل إمرة المدينة ، او احتال فخفف السياط لما مات خبيب ، ولكنّ خيال القطيعة بينه وبين الوليد بسبب الحجاج كان يحوم حوله ، وتهمتهُ بأنه يؤوي اعداء الوليد من العراق أثارت حدته فوقع في أمرٍ لبيس ، فنسي ، واجتهد ان ينفي التهمة فضرب خبيباً ونفذ فيه العقوبة وقسا عليه .

ورأى عمر حين ضربه انه التهب بالحمّى ، ولكنه دعا به وبرّد له ماء في جرة وصبّها عليه امام المسجد في غداة باردة شاتية فكزّ فيها خبيب ويبس وخرّ مغشياً عليه ، ودخل في النزع [١٠٨] ، ثم أمر عمر به فنقل الى دار عمر بن مصعب ببقيع اهله ، ومضى عمر الى دار مروان .

وبينما اهل خبيب جلوس حول جثته جاءهم رجل من خاصة عمر يقال له الماجشون ، يستأذن عليهم — وخبيب مسجّى بثوبه — فقال عبدالله بن عروة : ايذنوا له . فلما دخل قال عبدالله : كأن صاحبك في مرية من موته ؟ اكشفوا له عنه . فكشفوا عنه ، فلما رآه الماجشون ميتاً انصرف الى دار مروان فقرع الباب

(١٠٨) الطبري ج ٥ ص ٢٥٦

ودخل ، فوجد عمر مضطرباً قائماً وقاعداً ، فقال له عمر : ما وراءك ؟ قال : مات الرجل ! فسقط عمر الى الارض فزعاً ، ثم رفع رأسه يسترجع ويندم على ما كان !

عزل عمر

ولم يزل الندم بعمر حتى منعه من عيشه الناعم ، فاستشعر مَسْحاً سبعين ليلة ، وانتابته نوبةٌ من الجمود والذهول ، وطغى حزنه عليه وكاد يقتله . أما آل خبيب فلم يعودوا على عمر فيما فعل وعدّوه قَتَله خطأ . واما الناس وخصومه منهم فقد عدوها غلطته الكبرى ، فكان اذا غضب منه رجل ذكرها له فانكسر عمر ، وكان كلما احسن الى اهل خبيب قال الناس : دية خبيب. واما عمر فكان كلما صنع خيراً وبشره اصحابه بالثواب والجنة قال : وكيف بخبيب على الطريق !

فلما كاد عمر يتلف من الجزع ، وعلم القاسم بن محمد بن ابي بكر بجزعه وتلفه ذهب اليه يخفف من حزنه ويمسح من بلواه ، واخذ يردّه الى التوبة ويحسن له من التعزية فكان فيما قال له : أعلمت ان من مضى من سلفنا كانوا يحبّون استقبال المصائب بالتجمّل ، ومواجهةَ النعم بالتذلل ! وكأنما عمر كان يبيت على لهفة من تعزية وشوق الى سلوى ، فنَصَل من ثوبه الحزين وراح من عشية يومه في مقتطعات من حِبرَة اهل اليمن ، ثمراؤها ثمانمائة دينار ، وفارق ما كان يصنع [١٠٩]

وفيما كان يعود الى حاله من الأبهة والزينة جاء كتاب الحجاج

(١٠٩) ابن الجوزي ص ٣٥

الى الوليد يشير عليه برجلين يتوليان إمرة الحجاز بعد عمر ، خالد ابن عبدالله القسريّ على مكـــة ، وعثمان بن حيّان المرّيّ على المدينة ، فاستحسن الوليد مشورة الحجاج ومضى في غلوائـــه فأرسل الى المدينة بعزل عمر ، فعزل ولم ينفعـــه موت خبيب!

عزم جديد

وجاء عثمان بن حيان المري يتهدد اهل المدينة ويقول لهم : ان عندي يا أهل المدينة خبرة من الخلاف ، والله ما انتم بأصحاب قتال ! فكونوا من احلاس بيوتكم ، وعضوا على النواجذ ، فاني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم ، وانكم في فضول كلام غيره الزم لكم ، فدعوا عيب الولاة ، فان الأمر ينقض شيئاً فشيئاً حتى تكون الفتنة ، وان الفتنة من البلاء ، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد [١١٠]

ثم التفت عثمان بن حيان الى اهل العراق مؤثراً الهوى ، ولم يدع احداً منهم تاجراً ولا غير تاجر الا اخرجه من كل بلد حتى صاروا في الجوامع والطرقات ، واقسم يقول : إني والله لا اوتى باحد آوى احداً منهم او اكراه منزلاً إلا هدمت منزله وانزلت به ما هو اهله [١١١]

قال سعيد بن عمرو الانصاري : رايت منادي عثمان بن حيان ينادي عندنا : يا بني امية ، برئت ذمة الله ممن آوى عراقيـــاً ، وكان عندنا رجل من اهل البصرة له فضل ، يقال له ابن سوادة ،

(١١٠) الطبري ج ٥ ص ٢٥٩

(١١١) الطبري ج ٥ ص ٢٥٨

من العبّاد ، فقال : والله ما احبّ ان ادخل عليكم مكروهاً ، وبلّغوني مأمني . قلت : لا خير لك في الخروج ، ان الله يدفع عنا وعنك ! قال : فأدخلته بيتي .

وبلـــغ عثمان بن حيان فبعث احراسا ، فأخرجْتُه الى بيت اخي ، فما قدروا على شيء ، وكان الذي سعى بي عدواً ، فقلت للأمير : اصلح الله الأمير ! يؤتى بالباطل فلا تعاقب عليه ؟ قال : فضرب الذي سعى بي عشرين سوطاً ، واخرجنا العراقيّ فكان يصلي معنا ما يغيب يوماً واحداً ، وحدِب عليه اهل دارنا فقالوا نموت دونك ! فما برح حتى عزل الخبيث .

ولم يكن كلّ مافعله عثمان قولاً ، وانما بعث الحرس والجلاوزة[١١٢] يبحثون عن الناس ويسوقونهم الى السجون ، فاذا ابصروا ومضة رجل عراقي اختطفوه كالبرق ، واذا جاءوا بخبر رجل يؤوي عراقياً دهموه وسجنوه . وكما فعل عثمان بن حيان بالمدينة فعل خالد القسري بمكة ، وبلغت يد الحجاج الحجاز ، وتمنى الناس يوماً من ايام عمر فلم يجدوه .

---

(١١٢) الجلاوزة: الشرطة

# منزل السُوَيْداء

•

رملة ليل

خرج عمر حين أُعفي من المدينة او عزل عنها كأنه يستخفي . خرج في شعبان من سنة ثلاث وسبعين ، وخرج في غير موكبه ذي الثلاثين بعيراً الذي كان قد دخل به يوم ولي امرها ، واصطحب معه في خروجه مولاه الفقيه التقي الصالح مزاحم بن ابي مزاحم ، وخرج عمر والمدينة تتمثل في ذهنه وتتراءى امام خاطره وتتلهف نفسه عليها ، ولو كان خروجه نهاراً لما غاب طرفه عنها حتى تغيب في لجة البادية من خلفه ، ولكنه خرج ليلاً والظلام يغرقها ويمحق معالمها ، وكانت وهي تغيب عنه في الظـــلام كأن لم تغب ، فهو يحفظها في صـــدره فيراها قوماً قوماً وحياً حياً وداراً داراً ، الاشراف والموالي والتجار والعمال وباعة الخَبَط والخَمْط [١١٣] وكل الناس .

وما كادت قـدمه تنتقل عنها ، حتى تذكر قول رسول الله

---

(١١٣) الخبط ورق ينفض بالمخابط ويجفف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره ويضرب بالماء حتى يتلزج فتوجره الابل تداوي به . والخمط الحامض أو المر من كل شيء .

صلى الله عليه وسلم: « والذي نفس محمد بيده ما خرج أحد من المدينة رغبة عنها الا ابدلها الله خيراً منه او مثله »، او تـــذكر قوله: « المدينة تنفي خبثها » فاضطرب قلبه ومال الى مولاه مزاحم يقول له: يا مزاحم، نخاف ان نكون ممن نفت المدينة! [١١٤]

وكان مزاحم متشائماً او نزعت نفسه الى التشاؤم، فكاد يختلج في بحور المظنة، ثم اخطأ فرأى حظه وحظ عمر في معارج القمر ومطالع النجوم، وكان الليل قد اطلع القمر مستويَ الدوران باهر الضوء، ولكنه كان ينزل بدارة من دارته يقال لها الدّبران [١١٥] كانوا في الخرافات القديمة يقولون انها مطلع هزيمة ومنزلة شؤم. وبينما عمر ومزاحم يمضيان في الطريق التي كان مهّدها عمر من قبل فعـدّل ثناياها وسوّى عقابها ـ نظر مزاحم الى القمر فعرف المنزلة وظن الهزيمة، فارتجف قلبه، ولكنه كتم ما به، واحب ان يترفق بعمر فلا يطلعه على ما عرف، وخاف ان تأمّل عمرُ القمرَ ان يتنبّه الى منزلة الدبران فيزيد حزنه، فأجمع امرَه على ان يَلفتَ نظره الى ضوء القمر وتمام استدارته ـ حسن طلعته، ليصرف عمر نفسه اليها، فقال له: الا تنظر الى القمر! ما احسن استواءه في هذه الليلة! فنظر عمر فعرف ما وقعت عليه نفسُ مزاحم.

---

(١١٤) الطبري ج ٥ ص ٥٦

(١١٥) الدبران منزلة من ثمانية وعشرين نجماً هن امات المنازل، والدبران الكوكب الأحمر الذي على اثر الثريا بين يديه كواكب كثيرة مجتمعة، من أدناها اليه كوكبان صغيران يكادان يلتصقان، يقول الأعراب هما كلباه والبواقي غنمه أو نياقه، وسمي بالدبران لأنه دبر الثريا أي خلفها ونوؤه ثلاث ليال وقيل بل هو ليلة وهو غير محمود عندهم ـ الأزمنة والأمكنة ج ١ ص ١٨٦، ١٨٨، ٣١٥

ولم يكن عمر جاهلاً بمنازل القمر ولا بنفس مزاحم ، ونفسُ مزاحم كانت في حزن واضطراب . ولا ينظر الحزين الى الأشياء الا من جانبه الحزين ، فنظر عمر ما استكنّ في نفس صاحبه وما خبأه عنه فقال له : كأنك اردت ان تُعلمني أن القمر بالدبران ؟ فلم يجب مزاحم ، فقال عمر : يا مزاحم ، انا لا نخرج بشمس ولا قمر ، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار ! [١١٦]

واستمسك عمر دون صاحبه وطرح عن نفسه التشاؤم ومطالع النجوم ، فلو كانت الأمور تجري وراء التفاؤل والتشاؤم لنامت الجهود وانطفأت وقدات النفوس ، وما خرج عمر من المدينة الا لأمر بيّنه ، وسيمضي فيه ، حتى لو نزل القمر واقام طول عمره في الدبران !

وان عمر ليعلم انه لا طَيْر الا على متطير ، وانما هو شيء يوافق شيئاً احياناً ، وباطله كثير ، او كله باطل ، وانه ليعلم ان الاسلام اثبت الفأل واستحسنه وابطل الطِّيَرَة ونهى عنها . ومع ان النفوس تميل الى شيء من الباطل ساعة تأزم بها الامور فإن الامور الكائنة محت من نفس عمر اشتياقه الى فأل او زجر من اشكال الفلك ، ولو استسلم عمر حينئذ لوجوه الاستدلال من حركات النجوم وعَدَل الى التكهن لصدّق بكثير من الظنون والأباطيل ، ولكنه خرج من المدينة لشيء غير ذلك كله . انه خرج ليُعْمِل رويّته ويرسل فكره ، ولا غنى له عما اراد الا اذا اراد ان يظل لَقَىً تلعب بـــه الأيدي وتستخف به النفوس

(١١٦) ابن عبد الحكم ص ٢٨

والأبصار !

ومن ثمّ اخطأ مزاحم واصاب عمر ، لأن الوالي المعزول كشف عن عينيه الغطاء ، وافاق من نومه ، ثم ارتحل يعدّل الثنايا التي لم تتعدل ، ويحطم العقاب التي لم تتحطم ، ولكن بعد ان يحبس نفسه ويتألم ، ثم يتعلم الفقه الاكبر الذي لم يتعلمه من قبل ، فان الفقيه الصغير خليق ان يتحطم كالجاهل على انياب الصخور اذا لم يتسلقها خفيفاً ، او يسبح عليها طائرا !

وانطلق عمر ومزاحم في طريق الخارج الى الشام حتى اتيا مقاطعة السويداء ، فنزل عمر الى داره بها ، ثم لزمها مفكراً يتذكر ، ولعل اول ما ذكره حين ذلك وصية ابيه عبد العزيز له اذ قال : اتق الله وأحسن نيتك في عملك فانه لادين لمن لا نية له ، وأحسن تدبير مالك فانه لا مال لمن لا تدبير له ، وارفق بمن تعامله لانه لا عيش لمن لا رفق له ، وتجوّز في شهواتك فانه لا عقل لمن لا يغلب هواه [١١٧]

الفقه الاصغر

ولم يَرَ عمر ان يبقى بالمدينة ليلقى كيد الوليد ، او يستمع لما يُرجِفُ الناس به ، او يرى الكيد لاهل العراق واهل الحجاز بعينيه دون ان يستطيع الدفاع عنهم ، فرأى ان يخرج من المدينة ليخلو الى نفسه ويرجع اليها ، لعله يجد سبيلاً الى الراحة مما لحق به . وكان عمر قد اصبح من قبل عالماً محدثاً وفقيهاً مجتهداً دونه اكثر فقهاء الحجاز وكل فقهاء الشام والآفاق ، ولكنّ الفقه والعلم

(١١٧) الحكمة الخالدة ص ١٨٥

والاجتهاد ـ لم يكن كل ذلك ليصونه من الاخطاء او ينجيه من الزلل ولا سيما حين ينزوي الفقه في صولة الحكم ويرتدي العلم الغَضُّ ثوب الولاية ويمسك بعصا السلطان .

كان عمر يعرف كل ذلك الفقه الاصغر ، كان يعرف الجدل والمناظرة والخصومة ، ويشتط في ضرب الرأي ويقسو في انفاذ العقوبة ، ولكنه لم يكن يعرف حرفاً واحداً من الفقه الاكبر الذي عرفه فيما بعد ، وصار يوحي به الى الناس ليعلموه اولادهم : القناعة وكف الأذى [١١٨]

## الظلم الشامل

وحين رجع عمر الى نفسه رآها كالآلة القديمة الصدئة لا تدور الا اذا تكشف عنها الصدأ وبلّها الزيت ، ففطن الى معانٍ في العظات والوصايا لم يكن فطن اليها من قبل ، ونظر في وصية ابيه له فاذا هو لا يدري طريقاً اختطها ولا سبيلا رسمها ولا نية انتواها . ونظر فاذا هو لم يحسن تدبير ماله فانه كان ينفقه كله في الثياب والطيب ، بل ان هناك ما هو افدح واشد كربا ، ذلك ان المال الذي ينفقه على نفسه ليس له حق فيه ! ثم نظر فاذا هو لم يرفق بمن عامله ، واذا هو قد بالغ في القسوة فضرب على المدينة البعوث ثم قتل خبيباً ، ثم نظر فاذا هو لم يتجوّز في شهواته فغنى وطرب وصفق وترغ وردّ نصيحة القرظيّ له حين جرّ ثوبه ، ثم ذابت عند الوليد كل القرابين التي تقرب بها اليه .

---

(١١٨) ابن الجوزي ص ٢٣٩

ثم انطلقت نفس عمر من محبسها ، وخرج من ذاته الضيقة ونظر حوله فاذا المدينة قد عادت تحت وطأة الولاة القساة وكادت تودع الحياة او عاد الحجاز كله تفارقه الروح ، ثم دار ببصره فوق الأرض كما تدور عين الشمس وجعل يتأملها بلداً بلداً فاذا نار المظالم تتأجج ، واذا البلية غامرة واذا عالَم بكامله يصرخ من ضياعه ، وأمةٌ عن بكرة أبيها تفقد ذاتها ، واذا أحدٌ من القادرين لم يفعل شيئاً لهؤلاء العباد وانما الأمراء منصرفون عن رضا هؤلاء لارضاء الوليد وعمر كان معهم ، ثم تعاظم الوليد فلم يرض عن عمر حتى بعد أن أغضب الناس .

وكان الوليد بالشام قد سلط أولاده على أهل حمص يأكلون أموالهم وينتهبون أراضيهم ويمتلكون حوانيتهم : عمر وعباس وروْح أولاد الوليد كل منهم أصاب أهل البلد بغُرم فادح ، وأبوهم يعينهم على المنهبة ويكتب لهم بها السجلات . ورآه عمر قد أساء الى نفسه وولده فتزوج من الجواري من ليست له بكفء فأولدها الجبابرة المستكبرين ، ورآه ولّى على بعض الجند من أولاده من ليست له كفاءة الا أنه ولده وهو يحبه .

والحجاج بن يوسف بالعراق وما وراءه يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام ، وقد أصاب أهل العراق منه ومن ولاة بني أمية أكثر مما أصاب غيرهم من المظالم ١١٩ ، وقد أمَرّ الحجاج السيوفَ على الحلاقيم ، فالعراق كله يخورُ في دمائه ، وقرة بن شريك بمصر أعرابيّ جلف ، قد أخذ المعازف واللهو والشراب

(١١٩) المعارف ص ١٥٩

بأذن من الوليد ، أما المصريون وأموالهم فله حلال ونُهبَى . ومحمد ابن يوسف أخو الحجاج الثقفي على اليمن . وعلى مختلف البلدان أمثال هؤلاء العمال . ومظالمهم تزداد وتربو كلما ازداد زمانهم وربا سلطانهم ، وكانوا كما قال العتبيّ فيهم : وتخلّق الأمراء بأخلاق العوام ، فصار لهم رفق في اللؤم وخُرْق في الحرص ، لو أمكنهم قاسموا الطير أرزاقها [١٢٠]

فكان عمر كلما تنقل خاطره بين هذه البلدان فرأى أولئك أمراء الناس فزع وهاله الأمر فدعا الله قائلاً: امتلأت الارض ـ والله ـ جوراً ، فأرح الناس ! [١٢١]

أول التوبة

نظر عمر في ذلك كله ، وفيما هو اكثر منه ، فاذا هو عيّ لا يرى للداء برءا ، إلا أن يتولاه رجل من غير الطراز الذي هم عليه ، ونظر الى نفسه فرآها لو استُصْلِحت لقدرت على الشفاء والبرء ، وما لم يبدأ هو بنفسه ليكون قدوة ومثالا فلن يكون للناس صلاح !

ولم تكن هذه النوبةَ الأولى التي انتابت نفسه ؛ ولكن التوبة كانت تراوحه الحين بعد الحين ، والخير يطلع على نفسه مطلعاً بعد مطلع . وقد قالوا ان أول توبة تابها كانت وهو غلام قد استوت حداثته واكتمل عنفوانه ثم ضرب حين ذلك عبده الأسود ثم أطلقه حراً حين حاجّه العبد فغلبه ، ثم راوحته التوبة حين قتل

---

(١٢٠) عيون الأخبار ج ٣ ص ١٨٢

(١٢١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠٥ ـ النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨ ، ٢٢٣

خبيباً ولبس المسوح السود ، فلما راجعه القاسم بن محمد راح في مقتطعات يمنيَّة ، وهكذا ظلت التوبة بعد التوبة رَوحاً يراوحه ثم يبتعد ، فلما عزل عن المدينة عاودته التوبة في نوبة لازمة ولم ترح عنه ابداً .

ورأى عمر نفسه مطوية الضلوع على ظلم ، ويده قابضة على مظالم ، رآه يملك ارضاً لا يستطيع حصرها ، وأكثرها لم يره بعينه ولم يبذل فيه جهداً أو يستنبط ماء أو يجني ثمرة ، وانما قد جاءه كله حظاً وميراثاً وهبات ، ورآه يملك هو وبنو أبيه أرضاً في كل أرض ، ولا سجل لها في أيديهم ، وانما وجدوا أنفسهم مُلاكها ينفقون في إصلاحها ويُغلّون من ثمارها. أما الناس فضياع هلكى لا يملك اكثرهم ارضاً تغل ولا بيتاً يسكنون اليه

ورآه يلبس الديباج والخز ، ويأكل الطيّب من الطعام ويتملأ ويتطيّب ويدّهن حتى تتسخ طينة كتابه من العنبر ، والناس في آفاقها يعرون ويجوعون ، ولا ماء لهم يغسلون منه ويشربون ، فودّ عمر لو جاءته الخلافة وصحّت رؤياجده عمر بن الخطاب ليخرج من ذلك كله : يخرج من الثياب حتى يكاد يعرى ، ومن الطعام حتى يجوع ، ومن المال حتى لا يكون في الارض فقير مثله . ودّ ذلك واستحسنه واستقر عليه ، ثم ما زال يستحسنه ويمكّن له حتى صار ملته واعتقاده ، وبينما كان يراود نفسه كانت تنجذب بين قواها ، فصار يقوّي رأيه ويشد من عزمه حتى غلب شهوته وسيطر على غضبه ، وبعد طول معالجة وإدمان تقويم صار يعتزم ويعمل ويعتاد

حتى حصل على الخُلق الذي يريد ، ثم نوى ، فلم تبق الا كلمة الحظ والقَدر يقولها اذا شاء وحين يشاء !

وكأنما صار عمر بادىء ذي بدأة ذا بصيرة ونفاذ ورأي حكيم حين عرف الفقه الاكبر ، وكان عمر أحكم رأياً وأعظم فقهاً إذ لم يرَ أن يخرج من فوره من ماله وطعامه وطيبه ، وقد كان من الخطأ أن يخرج في حينه الى الزهد ، فان النفوس أمارة ، وان الأمراء بالمرصاد ، ولن ينفعه ذلك أو ينفع الناس . فكتم أمره ونيّته حتى عن مزاحم مولاه ، لئلا يُفزع الطامعين ، وقد عرف أنه لا حيلة للأمة إنْ طُلب اليها أن تجمع نفسها ، بل لعلها لا تقبل ، إذ يثير الأمراء رعاع الناس ويستعدون الجهلاء ، فلا حيلة له في عمل شيء ما لم يأته من طبعه . وانتظر عمر لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً !

وبدأ عمر يأخذ نفسه رويداً رويداً بالعفة والاعتدال والنصح متحمساً في كل ذلك . وكان من الخطأ ألا يبدأ بنفسه حتى يصنع منها المثال والقدوة . وكان هناك ما هو أكبر من الخطأ ، وذلك اذا تظاهر عمر بالتقشف والزهد ولبس ثوب النصيح دون أن يتخذ لنفسه حقائق هذه الاشياء ويجعلها لزاما له ، لأنه ما من مستور إلا وهو ينكشف ويظهر ، وإن للرعية مهما طغت عليها الجهالة لعيوناً تبصر وقلوباً تدرك ، فاذا لم ينكشف المخبوء ويصرْ عيانا خاضت فيه الرعية ظناً وشبهة . ومن سوء حظوظ الرعاة انهم يؤخذون بالشبهة والظن كما يؤخذون بالعيان ، بل الظن أوسع طعناً وأسوأ عاقبة وأشد نيلا !

وكذلك اهتدى عمر الى الصواب كله، فاتخذ العقيدة، وجعل يوغل في الايمان بها ويحطم من حدة نفسه ويكسر من غلوائها فلما حانت الفرصة انطلق كالعاصفة أقسى دورتها حول نفسها ،فاذا ابتعدت أخذت تهدأ ، فاذا كانت في الأطراف لم تُحسّ إلا انها ريح أو رخاء .

ثم أدخل عمر الأمراء وكلّ ذي سلطان في حسابه على اختلاف مراتبهم وبلدانهم ، كما دخل هو في حساب نفسه. وقد عدّ الأمراءَ والعمال والقضاة ملوكَ الناس. وحين أخذ يعدُّ ما في ايدي الامراء من المال فزع وارتعب،لأنه رأى المال يسيل من أطراف البلدان كلها اليهم ، حتى جمعوا في أيديهم شطر المال أو ثلثيه . جمعوا في أيديهم نصف مال الدولة أو ثلثيه ! وكان النصف الآخر أو الثلث الباقي يُنْفَق بعد ذلك على ما يشاء الخليفة ويشاء الأمراء . وانتظر عمر الزمان حتى يجود وتفلت من يده ساعة تجري لهذه الأمة المنكودة بحظ سعيد وقدر لطيف !

أما علماء الأمة فمقصيّون ، وأما صلحاؤها وعبّادها فطرداء وقتلى ومحبوسون ، ولم يكن لمظلوم أن يشكو ، ولا سيما اذا كان الظالم أميراً ، فاذا كان الخليفة فانه لا يُقاضى ولا يتّهم ولا يخاطب باسمه ، وهكذا سنّ عبد الملك بن مروان مراسم الأبهة ، فالملك فوق القانون . وكان عبد الملك يقول : لا ينبغي لخليفة أن يناشد ولا يكذّب ولا يسميه أحـــدٌ باسمه . وجرى في إثره ابنه الوليد .

●

وكذلك كان مقتل خبيب بن عبدالله وعزل عمر عن المدينة نعمة نزعت عن عمر ثوب الفتنة ، ونجت بنفسه من التيار الجارف ، وأبرمته بالظلم ، فتهيأت نفسه للعدالة والرحمة ، وعافت المظاهر إذ شبعت منها ولم تغن شيئاً ، ومهدتها للزهد والتقشف دون أن تحسّ لها غير اللذة والرضا . ولم يَعُد عمر يخطو خطوة إلا وهو ينويها ويقدّر لها ويعرف ما بعدها ، وقد شهد له بذلك هشام بن عبد الملك إذ قال : ما أحسب عمر خطا خطوة قط إلا وله فيها نية [١٢٢]

إلى دمشق

فلما تمّ له اليقين واستوت لديه الارادة شمّر مع مزاحم يدع السويداء ويريد دمشق ليقيم بها ويقتحم على الوليد مجلسه ويقلق جنبه ، وقديماً كانت له تجربة جريئة بنصح عبد الملك حتى أغضبه [١٢٣] . فلما كان بدمشق مقيما لم يَرَ الوليد بداً من أن يقربه اليه لصلاته به من القربى والصّهر ، ولم يَرَ بداً أن يستنصحه في بعض الأمر إذا حَزَب ، أو إذا حانت للخليفة ساعة رضا ولين ، ولعله قربه واستنصحه ليكفّه عنه ، ولم يكن الوليد قد قطع ودّه كله بعمر وإنما كان قد تغيّر عليه . وعمر كان فقيهاً محدثاً مجتهداً لقيه أهل الشام يحسبون أنهم علماء فرأوا أنفسهم تلاميذه . فاتخذه الوليد للرأي والفتيا .

---

(١٢٢) ابن عبد الحكم ص ٣١

(١٢٣) ابن الجوزي ص ٣٦

أما عمر فأقبل على الوليد متغيراً خشناً ينصحه في ولاته وعماله كلما سنحت له الفرصة، ويعنف عليه في النصح ولا يبالي أن يغضب أو يتمزق غضباً . وذات يوم قال عمر للوليد : يا أمير المؤمنين ، إن عندي لك نصيحة ، فاذا خلا لك عقلك واجتمع فهمك فسلني عنها ! قال الوليد : ما يمنعك الآن ؟ قال : أنت أعلم إذا اجتمع لك ما أقول فانك أحقّ أن تفهم .

فمكث الوليد أياماً ثم دخل عليه عمر في جماعة من اهل الشام ، فقال الوليد : نصيحتك يا أبا حفص ! ولعله أراد أن يحرجه فيخفف ولكن عمر لم يخنف من عنف النصح فقال : انه ليس بعد الشرك اثم اعظم عند الله من الدم ، وان عمالك يقتلون ويكتبون لك ذنب المقتول ، وأنت المسئول عنه والمأخوذ به ، فاكتب اليهم الا يقتل احد منهم أحداً حتى يكتب اليك بذنبه، ثم يُشْهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك ! فكتم الوليد غيظه وقال : بارك الله فيك يا أبا حفص !

ثم رأى الوليد ان يجرب فكتب الى الأمصار وخصّ الحجاج ابن يوسف بما في نصيحة عمر ، فكان جواب الحجاج أن أرسل الى الوليد برجل حروريّ من الخوارج كان يسبّ الخلفاء من بني امية ثم يسمو في ذلك صعُداً ويزداد سباً حتى يبلغ الوليد فيستوفي له الشتم والسب لأنه يراه أجور الخلفاء وأظلمهم ولا سيما حين استعمل الحجاج على العراق .

وأرسل الوليد الى عمر في الظهيرة ، في وقت لم يكن يرسل

اليه فيه ، فحضر فدخل عليه فاذا هو قاطبٌ بين عينيه ، فقال له : اجلس ها هنا – وأشار الى مجلس الخصوم بين يديه – فجلس عمر وليس عند الوليد الا خالد بن الرّيان قائماً بسيفه ، فقـــال الوليد للحروريّ : ما تقول في فلان وفي فلان من الخلفاء ؟ فسبهم الحروريّ ولعنهم ، ثم قال : وما تقول فيّ ؟ فقال الحروريّ : ظالم جائر جبار! فقال الوليد لحارسه خالد بن الريان: اضرب عنقه. فضرب الحرسيّ عنقه .

ثم عاد الوليد على عمر فقال له: كيف ترى فيمن سبّ الخلفاء؟ أترى ان يقتل ؟ فسكت عمر ، فانتهره الوليد وقال : ما لك لا تتكلم ! فظل عمر ساكتا لا يتكلم وعـاد الوليد واستمر عمر في صمته ، ثم ما زالا هذا يسأل وهذا يسكت حتى بَرِم عمر بالوليد فقال : يُنَكّل به ! فازداد غضب الوليد لأنه كان يريد من عمر أن يفتي بقتله . ثم ترك مجلسه ودخل الى بيته . وأشار ابن الريان الى عمر بالانصراف . قال عمر : فانصرفت ، ومـا تهبّ ريح من ورائي الا وأنا أظن أنه رسول يردني اليه ! [١٢٤]

وما هي الا لحظة حتى دعا الوليد بعمر الى منزله ، فلمـا كان عنـده قال : ماتقول في هذا يا أبا حفص ؟ أصبنا أم أخطأنا ؟ فقـــال عمر : ما أصبتَ بقتله ! ولغيرُ ذلك كان أسدّ وأصوب ! كنتَ سجنتَه ان بدا لك أو تعفو عنـه ! فقام الوليد مغضبا ، وخرج عمر يجر ذيل خيلاء جديدة هي ذيل خيلاء النصاح اذا كانوا من الصادقين ، وخرج في اثره خالد بن الريان وقد رأى غضب

(١٢٤) ابن عبد الحكم ص ٢٥

مولاه المرة بعد المرة ورأى كيد عمر له فقال لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص ! لقد راددتَ أمير المؤمنين حتى ظننت انه سيأمرني بضرب عنقك ! فاستعظم عمر ان يقول له هذا الحرسيّ اللئيم مثل هذا الكلام واغتاظ عليه ولكنه كتم غيظه وسأله قائلاً: ولو أمرك كنت تفعل ؟ قال : إي لعمري! [١٢٥] فهزّ عمر رأسه ومضى وقد أسرّها في نفسه لخالد بن الريان .

ورأى الوليد ذات يوم أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ويجعلها في أولاده، فرأى أن يستعين عمر على ذلك فراوده على ان يخلع سليمان بمعونته فقال له عمر: يا أمير المؤمنين، إنا بايعنا لكما في عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك ؟ [١٢٦]

ومن ثمّ ازدادت شقة الخلاف بينهما، وباعدت بينهما نبوة ووحشة ، فتناول الوليدُ عمر بلسانه ، فردّ عليه عمر ، فغضب الوليد غضباً شديدا وأمر بعمر فعُدل به إلى بيت فحبس فيه ثلاثا لا يدخل عليه أحد ، ثم أمر الوليد باخراجه إن وُجد حياً فأدركه أهله وقد أصاب رَقبتَه وجع شديد ، فلم يزالوا يعالجونه حتى صار الى العافية [١٢٧] .

وأذن الله أن يموت الحجاج سنة خمس وتسعين ، فسجد عمر لله شكراً حين بلغه موته ، ومات قرة بن شريك العبسيّ والي مصر في اليوم أو الشهر الذي مات فيه الحجاج [١٢٨] . وطالما عتب عمر

(١٢٥) ابن عبد الحكم ص ١٣٩
(١٢٦) ابن الجوزي ص ٤١
(١٢٧) ابن الجوزي ص ٢٤٨
(١٢٨) ابن الاثير ج ٥ ص ٩

على الوليد في استعماله قرة بن شريك على مصر فلم يسمع له [١٢٩] وطالما عتب الناسُ على الوليد فيه فلم يسمع لهم حتى قال أحد شعرائهم يلوم الوليد حين عزل عبد الله بن عبد الملك وولاه :

عجبا ما عجبتُ حين أتانا أن قد أمّرت قرة بن شريكْ
وعزلتَ الفتى المبارك عنا ثم فيّلتَ فيه رأي أبيك [١٣٠]

وكان عمر يقول في الحجاج : لو أن الأمم تخابثت يوم القيامة فاخرجت كل أمة خبيثها ثم أخرجنا الحجاج لغلبناهم ! [١٣١] .

وأحسّت الرئتان : مصر والعراق أنهما تتنفسان ، وكانتا ظنتا أنهما فقدتا الحياة ، وجاء الخبر الوليد فاغتم لموت رجلين زلزل موتهما عرش خلافته — كما خيل له . وأسرع مخطئاً فجمع الناس وصعد في المنبر كالناعية الثكلى وهو حاسر شعثان الرأس ، فنعاهما للناس وقال — وكأنما خبطته الضلالة فعثر — : والله لأشفعن لهما شفاعة تنفعهما !

وكان عمر بين الناس والوليد يرّجم بهذا الكلام ، فسخر من قوله وعجب لضلالته ، وقال لمن حوله : انظروا إلى هذا الخبيث . لا أناله الله شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم . وألحقه بهما ! [١٣٢] . فلما نزل الوليد عن المنبر قام اليه الناس يعزونه الا عمر فانه لم يقم ، فقال له الوليد : ما منعك أن تعزيني بالحجاج كما عزاني الناس ؟ فقال عمر :

---

(١٢٩) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨
(١٣٠) فيّل الرأي : خطأه وقبحه . فتوح مصر واخبارها ص ١٣١
(١٣١) ابن الجوزي ص ٨٩
(١٣٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨

يا أمير المؤمنين ، انما الحجاج منا ، فنحن نعزّى به! [١٣٣] فقال الوليد : صدقت ! ولم يدر بما قاله عمر وهو على المنبر وبما كان في نفسه من الفرح بموت الحجاج .

وكان الوليد لحانا ، لا يحسن النحو ، فخطب يوماً فقال : ياليتها كانت القاضية ، ووصل الكلام فضم التاء فصارت «القاضيةُ» فقال عمر بن عبدالعزيز : عليك وأراحتنا منك ! [١٣٤]

عمر وسليمان

ولم يمض غير قليل حتى ذهب الوليد الى رملة فلسطين عند لُدّ [١٣٥] ، وكانت الرملة مدينة عظيمة ، وقد قامت رباطاً للمسلمين ، فذهب الوليد يزورها فمرض هناك ، ولم يلبث أن مات ، فولي الخلافة أخوه سليمان ، وكانت فرحة عمر لا تحدّ ، فوقف يومئذ في دمشق وتولّى بنفسه أخذ البيعة لسليمان ، في نفس اليوم الذي مات فيه الوليد [١٣٦] .

وجاء سليمان بن عبدالملك أخف من الوليد وطأة وألين عريكة وأسمع للنصح وأسدّ في الرأي ، فضم إليه عمر يستشيره ويستوزره ، ووجد عمر في سليمان الحَصبَ الذي يزرع فيه فينمو زرعه ، فلزمه يهديه ويرشده ، ولزمه سليمان يسأله ويستفتيه ، وصارت له عنده منزلة وناحية وخاصة دون جميع بني مروان [١٣٧] .

---

(١٣٣) ابن عبد الحكم ص ٢٤

(١٣٤) ابن الأثير ج ٥ ص ٥

(١٣٥) الرملة واللد بلدان معروفان الى اليوم بفلسطين .

(١٣٦) اليعقوبي ج ٣ ص ٣٧

(١٣٧) ابن عبد الحكم ص ١٤٣

وكان كلما حركت سليمانَ الغلظة أطفأها عمر وأخمدها . ثم حدث بين عمر وسليمان كلام كان ختام ما بينهما من مهارشة بين رجل يظن نفسه سيداً على الناس فيلقي القول جزافا ، وبين رجل آخر لا يعنيه ان يكون صديقاً للخليفة على باطل ، وانما يعنيه أن يكون صديقاً لرجل يعرف نفسه ويُحْكم قوله .

خرج عمر مع سليمان ، وسليمان يريد الصائفة [١٣٨] ، فالتقى غلمان عمر وغلمان سليمان على الماء فاقتتلوا ، فضرب غلمانُ عمر غلمان سليمان ، قد طغت حدة عمر فأعدى غلمانه بها فضربوا غلمان الخليفة وأبوا أن يسبقوهم على الماء فيستسقوا قبلهم . وشكا غلمانُ سليمان اليه فقال لعمر : ضرب غلمانُك غلماني ! قال عمر : ما علمت ! قال : كذبت ! فغضب عمر وقال : ما كذبتُ منذ شددتُ عليّ إزاري وعلمت أن الكذب يضرّ أهله ! ثم قام من مجلس سليمان وهو يقول : وإن في الأرض عن مجلسك هذا لسَعَة [١٣٩]

ولم يكف عمرَ ما قاله وما فعله ، فتمادى وغلا وتجهز يريد مصر ويفارق الشام ، فبلغ الخبر سليمان فشق عليه . وعلمتْ عمة لهما فدخلت بالصلح بينهما ، فقال لها سليمان : قولي له يدخل عليّ ولا يعاتبني ، فدخل عمر ولم يعاتب ، فاعتذر اليه سليمان وقال له : يا أبا حفص ، ما اغتممتُ بأمر ولا أكربني همّ الا خطرتَ فيه على بالي ! فأقام عمر عند سليمان [١٤٠]

---

(١٣٨) الصائفة : غزوة الصيف

(١٣٩) ابن الجوزي ص ٣٦

(١٤٠) قصص العرب ج ١ ص ٢٣٢

ورأى عمر في سليمان نهمةً الى الطعام فما يكاد يشبع ، رآه أكولاً يجاوز المقدار ، وكان ربما أتاه الطباخون بالسفافيد التي فيها الدجاج المشوية – وعليه جبة الوشي المثقلة – فلنهمه وحرصه على الطعام - فكان يدخل يده في كمه حتى يقبض على الدجاجة وهي حارّة فيفصلها ١٤١ ، وقد عجب عمر من نهم سليمان غير أنه انتوى أن يسد عليه مسالك الجشع لعله يقلع ويهتدي . وكان اذا صحبه صام فتركه سليمان صائماً وأكل فلم يُبْقِ على طعام .

وحج عمر مع سليمان عام سبع وتسعين ١٤٢ ، وزار سليمان المدينة وعمر معه ، وفعل سليمان بالمدينة مثلما كان فعَلَ الوليد : أعطى مالا كثيراً وهدايا، ثم ظن أنه أرضى الناس كما ظن الوليد. وكان عمر قد عرف عيوب الهدايا وعيوب مواضعها وأثرها في نفوس من وهبوا ومن لم يوهبوا ، وأنها انما تشحن النفوس حقداً وعداوة . فلما خلا سليمان الى عمر بعد العطاء وبذل المال ومظنة الرضا قال له : كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص ؟

قال أبو حفص : رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم ! فأمسك سليمان عن حديثه ، وانطلقا ، فلما كانا بعقَبة عُسفان عند الجحفة على طريق مكة ، نظر سليمان الى معسكر عسفان فأعجبه ما رأى من حُجَره وأبنيته فقال : كيف ترى ما ها هنا يا عمر ؟ فقال : أرى الدنيا يأكل بعضها بعضا ، أنت

---

(١٤١) اليعقوبي ج ٣ ص ٤٣ – عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٢٧

(١٤٢) ابن الاثير ج ٥ ص ١٢

المسئول عنها والمأخوذ بها [١٤٣]

فانطلقا ، حتى اذا جاءا مكة وجدا بها غضباً شديداً ، فقرّت عين عمر وقلق جنب سليمان ، وكان سليمان قد أراد أن يرضي أهل مكة ويتألف قلوبهم وكان استنبط لهم ماء عذبا هو وخالد القسري عاملها ، ونبع الماء وفاض ، ولكن سليمان علم أنه حينما دعا خالدٌ الناس الى الشرب من مائه العذب نفر الناس عن مائـه ولم يجتمع عليه اثنان [١٤٤] فوجم لذلك سليمان .

فانطلقا ، حتى أتيا عرفات ، فرأى سليمان خلقاً كثيراً قـد أتوا رجالاً وعلى كل ضامر من كل فج عميق ، فطرب سليمان لما رأى ، قد ظن الأمن في زمانه مدّ رواقه عـلى الآفاق ، فجاء الناس على طرق ممهدة ، وميسرة موفورة ، فقال لعمر : أما ترى يا أبا حفص كثرة الناس بالموسم ؟

ورأى عمر في زحمة الناس في الحج وبحـة اصواتهم في التلبية وفيض دموعهم عند الكعبة والاستار — رأى في ذلـك وسمع غير ما يرى الخليفة ويسمع ! وكان يعلم أن الناس يشكون من ظلم صارخ رزحوا تحته وناءوا به ، وكان يراهم يبغضون سليمان ويكرهون أعماله ، وما جأروا بالتلبية في الطواف والسعي وعند الجبل في صرخة وضراعة الا ليخلصهم الله من الظلم . كان عمر يرى ذلك ويسمعه ويعلمه ويؤمن به ، فحين قال له سليمان : اما ترى كثرة الناس بالموسم قال له عمر : هؤلاء خصماؤك يا امير المؤمنين !

(١٤٣) ابن الجوزي ص ٤١

(١٤٤) اليعقوبي ج ٣ ص ٣٧

فقال له سليمان : ابتلاك الله بهم !

ثم غامت السماء في عرفات وعزف الرعد وخطف البرق خطفاً وعزفاً شديدين حتى فزع اهل الموقف ، وكان سليمان أخوف الناس وأفزعهم ،فنظر الى عمر ليستند اليه ويشد أزره به فاذا عمر يضحك. فقال له : أتضحك يا عمر وأنت تسمع وترى ما تسمع وترى ؟ فقال عمر : يا أمير المؤمنين ، هذه رحمة الله قد أفزعتك ، فكيف لو جاءك عذابه ! [١٤٥]

●

وأغلظ سليمان بن عبد الملك على أهل مصر وحرّض عليهم الولاة ، وكان أسامة بن زيد التنوخي صاحب خراج مصر قد كتب اليه سليمان : احلب الدّر حتى ينقطع والدم حتى ينصرم ، ففعل أسامة ما أمر به سليمان ، وأصاب أهل مصر بأول شدة دخلت عليهم ، فقال سليمان يوما — وقد أعجبه ما فعل أسامة — : هذا أسامة لا يرتشي دينارا ولا درهما ! فلم يملك عمر نفسه من حدة وغضب فقال له : أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشي دينارا ولا درهما ، فقال له سليمان : ومن هو ؟ قال : عدو الله ابليس : فغضب سليمان وقام من مجلسه [١٤٦]

واستحضر سليمان يوماً يزيدَ بن أبي مسلم الثقفي مولى الحجاج وكاتبه وخليفته ، فرآه سليمان دميما كبير البطن فقال : قَبَح الله رجلاً أجرّك رسنه وأشركك في أمانته ! فقال يزيد : يا أمير

---

(١٤٥) ابن الجوزي ص ٤٢

(١٤٦) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣١

المؤمنين ، رأيتني والأمور مدبرة عني ولو رأيتني وهي مقبلة إليّ لاستكبرت مني ما استصغرت واستعظمت مني ما استحقرت ؟ فقال سليمان : قاتله الله ! ما أسدّ قوله وأعضب لسانه ! ثم قال له: أترى صاحبك الحجاج يهوي في النار أم قد استقرّ في قعرها ؟ فقال يزيد : يا أمير المؤمنين ، لا تقل ذاك ، فان الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة ! وعن يمين الوليد ويسار عبدالملك يجيء الحجاج ، فاجعله حيث أحببت !

وأخذ سليمان ببلاغة الرجل وفتنه قوله فقال : قاتله الله ! ما أوفاه لصاحبه ! إذا اصطنعتُ الرجال فليُصطنع مثل هذا ! ثم همّ سليمان باستكتابه وليصير من رجاله وأعوانه ، فقال له عمر : يا أمير المؤمنين : لا تحي ذكر الحجاج ! فقال : اني كشفت عنه فلم أجد له خيانة في دينار ولا في درهم ، فقال عمر ؟ ألم أقل لك يا أمير المؤمنين إن إبليس لم يخن فيهما ؟ وهذا قد أهلك الخلق ! فتركه سليمان [١٤٧] ، ثم ما زال عمر به حتى جعله يتتبع أصحاب الحجاج ويسومهم العذاب .

●

وقعد عمر لأهل الشام يستفتونه ، وكانت المسألة تثقل عليهم فيلجأون اليه ، ورد اليه سليمان القضايا والمسائل الصعاب ، ثم حدث أن رأى سليمان ابن النساء بنات الخلفاء لا يرثن في العقار فنشأت قضية ذات تعقيد ، وتلك أن رجلاً جاء يطلب ميراثاً له من بعض

---

(١٤٧) شذرات الذهب ج ١ ص ١٢٤ ـ المطالعة التوجيهية ص ١٤٨

بنات الخلفاء ، فقال سليمان : ما اخال النساء يرثن في العقار شيئاً ، فقال عمر : يا سبحان الله ! قال سليمان : يا غلام ، اذهب فأتني بسجل عبد الملك الذي كتب فيه ذلك ، فقـــال عمر : لكأنك ارسلت الى المصحف !

فقال أيوب اكبر اولاد سليمان ـ وكان حياً لم يمت ـ والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند امير المؤمنين ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسه ! فالتفت اليه عمر وقال له : اذا افضى الامر اليك والي مثلك ... واراد ايوب ان يرد فقال له سليمان : مه ! لابي حفص تقول مثل هذا ؟ فقال عمر : والله لئن جهل علينا يا امير المؤمنين ما حلمنا عنه [١٤٨]

●

لقد ظل عمر يحزم بعزمه ورأيه كل امر ، ويحترس ان يغفل أو يغلبه النوم ، وقيّد نفسه وثابر على ما بدأ به حتى يصبح سيد نفسه ، إذ قهرُ النفس لا يتم في لحظة ولا ينشأ فجأة وارتجالا ، ولكنه يحصل بتطبيق سلسلة مترابطة منسقة من الكـــلام والاعمال التي تطابق الاقوال . وهكذا بـــدأ عمر يكون نصيحاً ، وتكون نصائحه ظاهرة بإلقاء تلقى في آذان الخلفاء والامراء والعمال بغير لين او التواء ، ثم جعل يخضع افعاله وتخيلاته ومشاعره لهذه السيطرة . وببطء وهوادة استطاع ان ينمي استعداده ويقوي سلطانه ، ويسد ثغرة الفراغ من نفسه ، ثم عرف بعد وأيقن أنه يستطيـــع او قد استطاع .

(١٤٨) ابن الجوزي ص ٣٧

## مرض سليمان

واصابت التخمة سليمان فمرض الموت على فجأة ، فلمـــا أيقن بالموت قال لرجاء بن حيوة الكندي : انه منذ مات ابني ايوب لم أجد بعده من يصلح للخلافة من أولادي – وكانوا صبياناً والخلافة لا يليها الصبيان – ففرح رجاء بما قال سليمان ، اذ كان يتمنى ان ينتقل الامر الى رجل يصلح به الناس ، ولكنه امسك فلم يتكلم.

ودنا الموت فازداد قلق سليمان ، فطلب الى رجاء ان يعرض عليه اطفاله في السيوف ودروع القتال واردية الحرب لعله يرى في أحدهم مخايل رجولة اوشجاعة فيوصي له ، فلبى رجاء مستعجـــلاً وجعل يعرضهم في زيّ زيّ وعلى هيئة هيئة ، ومرّ الصبية الصغار بين يدي ابيهم ، وهم يحاولون ان يهربوا من الجلود التي اثقلتهم ، وكأنما كانت رؤوسهم كرؤوس السلاحف الصغيرة تبدو وتختبىء وراء أكمات ضخمة من الأحجار ، فجعل سليمان ينظر اليهم ويقول :

إن بنيَّ صبية صغار  أفلح من كان له كبار

وكان عمر حاضراً فقال : يقول الله تعالى : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ». وأعاد عمر قول الله حين أعاد سليمان قوله ، فاتعظ سليمان ثم نوى في نفسه ليعقدنّ عقداً لا يكون فيه للشيطان نصيب [١٤٩]

وخلا رجاء بسليمان فقال الخليفة : أشر عليّ يا رجاء فيمن أعهد إليه من بعدي ، وكيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟

فقال رجاء ولم يتلبث : أعلمه – والله – فاضلاً برّاً مسلما !

---

(١٤٩) ابن عبد الحكم ص ٣٠

قال سليمان : هو والله على ذلك ، ولكن كيف ببني عبد الملك؟ ولئن وليتهُ ولم أولّ أحداً منهم لتكونن فتنة ، ولا يتركونه أبداً يلي عليهم ، إلا أن أجعل احدهم بعده ، فأجعل بعده يزيد بن عبد الملك .

قال رجاء : اكتب العهد واختمه ، واطلب البيعة لمن فيه وهو مختوم ، وأنا أفعل ما يرضي الله ويرضيك . فتناول سليمان بيده القلم والصحيفة وكتب بيده وخطه عهده لعمر وليزيد بن عبد الملك من بعده ثم ختمه ابن أبي نعيم صاحب الخاتم، ثم طواه سليمان ودعا بأهل بيته من الأمراء وأهل البيعة ، فطلب اليهم أن يبايعوا لمنْ في العهد المطويّ المختوم ، فبايعوا ، وأسلمه لرجاء .

قال رجاء بن حيوة : فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال : يا أبا المقدام ، ان سليمان كانت لي به حرمة ومودة ، وكان بي برّاً ومُلْطفاً ، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إليّ من هذا الأمر شيئاً ، فأنشدك الله وحرمتي إلا أعلمتني ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن تأتي حال لا أقدر فيها على ذلك . قال رجاء: فقلت له : لا والله ما أنا بمخبرك حرفاً واحداً ! فذهب غضبان [١٥٠]

ثم عاد عمر من قريب على رجاء فقال له : أذكرك الله يا رجاء أن تذكرني لأمير المؤمنين أو تشير بي عليه إن استشارك، فوالله ما أقوى على هذا الأمر ! فانتهره رجاء وقال له : إنك لحريص على الخلافة ! أتطمع يا عمر بن عبدالعزيز أن أشير عليه بك؟ فاستحيا عمر ومضى . وقد كان رجاء فرغ من أمره ولكنه أراد اخفاءه عنه

(١٥٠) ابن الجوزي ص ٤٨

لئلا يحدث من عمر شيء وتكون فتنة بين الناس [١٥١]

والحقُّ أن عمر لم يكن يريد الخلافة ولم يكن يسعى لها ولكن وقع في قلبه ان سليمان مستخلفه ، وكان ذلك منذ زمن بعيد مضى ، ومنذ مات أيوب بن سليمان ، إذ كان قُدم على سليمان بالنيروز والمهرجان وهو خليفة ، فصُبَّتْ إليه الهدايا في آنية الذهب ومرّوا بها عليه ، وكان عمر بجانبه ، فكلما مرّ بعمر صنف منها قال له سليمان : كيف ترى هذا يا بن عبد العزيز ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنما هو متاع الحياة الدنيا ! فقال سليمان : فوالله لو وليتَه ما أنت صانع فيه ؟ قال : اللهم أقسمه حتى لا يبقى منه شيء . فقال سليمان : اللهم اشهد .

ثم جعل كلما مرّ به على شيء قال له هذه المقالة ، فيقول له عمر : اللهم أقسمه حتى لا يبقى منه شيء ، ويقول سليمان : اللهم اشهد حتى فرغ [١٥٢]

### رجاء بن حيوة

وكان رجاء بن حيْوة بن جرول الكندي من أهل الاردن العلماء ، وكان أعبد اهل زمانه من اهل الشام مرضياً حكيماً صاحب بلاغة وأناة ووقار، وكانت الخلفاء تعرفه بفضله فيتخذونه وزيراً ومستشاراً وقيماً على عمالهم واولادهم، وقد وقف بين الخلفاء وقسوتهم وشهواتهم مواقف كثيرة منذ عبد الملك، بقدرة مداخله عليهم ، فلما كان سليمان أصبح لرجاء عنده من الخاصة والمنزلة

(١٥١) ابن عبد الحكم ص ٣١.
(١٥٢) بن عبد الحكم ص ١٢١

ما ليس لأحد ، وجعل سليمان يثق به ويستريح اليه .

وبعثه سليمان ذات يوم ليختبر له عمر بن عبد العزيز ويأتيه بطريقته وسيرته ، وهل هو كما يعظ وينصح ويشير أم ظاهر من القول ليس له باطن ؟ فقدم رجاء على عمر ضيفاً وأقام عنده ، ولم يألُ عمرُ عن إلطافه واكرامه وتقريبه ، وأقام عنده أياماً ، وعرف حقيقة أمره وأنه انما يفعل ما يقوله ، فأخبر بذلك سليمان . ثم رغب رجاء في صحبة عمر وصداقته على النسك والعبادة [١٥٣]

فلما استشاره سليمان في عمر أشار به فكان هو أو كان سليمان أو كانا معاً مفتاح الخير للناس .

---

(١٥٣) ابن عبد الحكم ص ١٤٣

# يوم عصيب

•

موت سليمان

كان بنو مروان اذا أرادوا غزو الصائفة وقتال الروم نزلوا عند مرج معشب نزهٍ في قرية يقال لها « دابق » قرب حلب من أعمال عَزَاز ، وبينها وبين حلب أربعة فراسخ ، فلما أراد سليمان الصائفة عسكر بدابق ونزل مرجها المعشب ، وعزم ألا يرجع حتى يفتح القسطنطينية أو تؤدي الروم الجزية ، فشتّى بدابق شتاء بعد شتاء .

وبينما هو كذلك يقيم دخل عليه المفضّل بن المهلب في يوم جمعة ، فدعا سليمان بثياب فلبسها فلم تعجبه ، فدعا بغيرها فلم تعجبه ، ثم دعا بثياب خضر سوسيّة من خزّ ، كان بعث بها يزيد بن المهلّب فلبسها واعتمّ ونظر في المرآة وقال : يا بن المهلب ، أعجبتك ؟ فقال المفضل : نعم ، فحسر سليمان عن ذراعيه ثم قال : انا الملك الفتى !

ثم ركب سليمان عشية يومه معتزاً مغتراً . فمرّ بتلّ هناك ، فرأى عليه قبراً ، فقال : مَنْ صاحب هذا القبر ؟ قالوا : هذا قبر عبد الله بن مسافع القرشيّ ، فقال : يا ويحه ! لقد أمسى قبره بدار غربة ! [١٥٤]

ورجع سليمان إلى بيته فبات مريضاً ، وانفرد وحده فلم يكن يدخل عليه حين ثقل به المرض غير رجاء بن حيوة ، ثم مات ، فسجّاه رجاء بقطيفة خضراء وأغلق عليه الباب ، وأرسلت إليه زوجته تسأله كيف أصبح ؟ فقال رجاء : نام وتغطّى . فنظر إليه الرسول نائماً مغطّى ، فرجع فأخبرها ، فقبلت ولم تأخذها ريبة . قال رجاء : وأجلستُ على الباب من أثق به ، وأوصيته ألا يريم حتى آتيه ، ولا يُدخل على الخليفة احدا .

ثم خَرَجَ رجاء إلى مسجد دابق ومن حوله الحرس ، وجمع اليه امراء بني مروان وأهل البيعة الذين سبقوا فبايعوا بين يدي سليمان وأخرج لهم عهده المطويّ الذي عرفوا وقال لهم : بايعوا لمن فيه فقالوا : إنا بايعنا مرة ، فقال لهم : بايعوا الذي في هذا الكتاب ولا تختلفوا فيُطمع فيكم ، فبايعوا رجلًا رجلًا . فلما فرغ وقد أحكم أمره قال لهم : أعظم الله أجركم في امير المؤمنين ! لقد مات . [١٥٥]

ثم فض رجاء كتاب العهد ليقرأه عليهم ، فعلت الصدور وهبطت ، واطّردت الأنفاس واحتبست ، وجعلت أسماعهم لا تعي مما كتب سليمان شيئاً ، ولا تريد أن تسمع شيئاً غير اسم

---

(١٥٤) معجم البلدان ج ٤ ص ٣

(١٥٥) ابن الجوزي ص ٤٩

الخليفة الجديد . فلما بلغ رجاء الى ذكر عمر كادت الصعقة تأخذ بني مروان .

بيعة عمر

ولم يطق هشام بن عبد الملك صبراً فقال : هاه ! لا والله لا أبايع ! فسلّ حرسيّ من أهل الشام سيفه وقال : تقول لأمرٍ قضاه أمير المؤمنين : هاه ! فقال هشام نسمع ونطيع ان كان رجلاً من بني عبد الملك. فقال له رجاء : اذن أضرب عنقك! فجذبه الناس حتى سقط الى الارض وقالوا : سمعنا وأطعنا . ثم أسرع رجاء فقال : ومن بعد عمر يزيد بن عبد الملك، فقالوا وقال هشام: سمعنا وأطعنا . وكذلك صدقت نبوءة سليمان في أنهم لا يقبلون بخلافة عمر الا اذا وثقوا انها تزول عنه الى غيره من أبناء عبدالملك ابن مروان .

أما عمر فكان قد قعد في أخريات المسجد يسترجع لما وقع فيه ويقول: والله ان هذا الأمر ما سألته قط في سرّ ولا علانية ! ومشى اليه رجاء مسلماً عليه بالامارة طالباً إليه أن يقوم إلى المنبر ، فقال عمر : أنشدك الله يا رجاء ! فقال له : أناشدك الله أن يضطرب بالناس حبل![156] فعُقِر بعمر فلم يستطع النهوض ، فأخذ رجاء بضبعه ودنا به من المنبر ، فلم يقدر على الصعود فأصعده وأجلسه، فجلس طويلا لا يتكلم[157] والناس على لهفة ينتظرون ما يقول .

ثم وقف عمر فقال : أيها الناس ، إني قد ابتليت بهذا الأمر

(١٥٦) ابن عبد الحكم ص ٣٢

(١٥٧) ابن الجوزي ص ٥١

من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبةٍ له ولا مشورة من المسلمين واني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي . فاختاروا لأنفسكم ! ودهش الناس لما قال ، وأخذت راغبهم الحيرة وكارههم الفرحة ، وكادوا يضطربون ، فقام رجل من الانصار فقال: يا أميرالمؤمنين ذاك والله أسرع فيما يُكره ، ثم دنا من منبر عمر فقال له : ابسط يدك أبايعك . وفيما كان الانصاري يبايع عمر أول من بايع [١٥٨] كان الناس يصيحون في المسجد راضين وكارهين : قد اخترناك ورضينا بك فَلِ أمرنا باليمن والبركة .

فلما هدأت الاصوات ولم يبق من معارض حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال : أوصيكم بتقوى الله فانّ تقوى الله خَلفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله عز وجل خلف . فاعملوا لآخرتكم ، فانه من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه . وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم ، وإن من لا يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم ـ أباً حيّاً لمعرقٌ في الموت ! وان هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ولا في نبيها ولا في كتابها، وانما اختلفوا في الدينار والدرهم . واني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقاً ـ ثم رفع صوته فقال : يأيها الناس ، من أطاع الله فقد وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . اطيعوني ما أطعت الله ، فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ثم نزل [١٥٩] .

---

(١٥٨) ابن الجوزي ص ٥٥

(١٥٩) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٤

فاستقرت له الخلافة منذ ذلك اليوم وكان يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين [١٦٠]

ونزل عمر عن المنبر فجلس قليلاً بجانبه ، وأدخل رأسه بين ركبتيه وبكى ، فعاد الناس يهمسون في آذان الناس ويرجفون قائلين : عمر يبكي فرحاً بالخلافة ! [١٦١] ثم قاموا فركب الأمراء ومشى ، فحملوا سليمان الى قبره ، فأضجعوه على تلّ سليمان في دابق الى جنب عبدالله بن مسافع القرشيّ ، في مثل العشية التي كان مرّ فيها سليمان على القبر الغريب ، وفي يوم جمعة مثل اليوم الذي كان قد مرّ فيه ! [١٦٢] ثم نزل عمر قبر سليمان هو وثلاثة من ولده، فلما تناولوه خيل إليهم أنه تحرك على أيديهم ، فقال بعض ولده : عاش والله أبي فقال : لا والله ؛ ولكن عوجل أبوك !

وأرجف الأمراء والناس بعمر فقالوا : دَفن سليمان حيا ! ولم تمض المدة التي تكون بين غيبة الموت والدفن لعلها تكون إغماءَة. وزاد إرجافهم به حين علموا أنه كان قد انكبّ قبل دفن سليمان على كتب كتبها بيده وأنفذها من فوره . انكب انكبابا على ثلاثة كتب فأنفذها الى الأطراف بأوامره . أما هو فكتبها لأنها كانت عهداً بينه وبين الله ليفعلنّها عجلان إذا ولي الأمر، فلم يسعْه أن يؤخر ما عاهد الله عليه ، فأمضاه من فوره . وأما الأمراء والناس فقالوا : ما هذه العجلة ؟ أما كان يصبر الى أن يرجع من

---

(١٦٠) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٢

(١٦١) ابن عبد الحكم ص ١٤٩

(١٦٢) معجم البلدان ج ٤ ص ٣

دفن سليمان ؟ هذا حب السلطان . . هذا الذي يكره ما دخل فيه ! [١٦٣]

وحزن الامراء من بني مروان وبني عبد الملك حين ظنوه عجّل بدفن سليمان ، وقالوا : لو لم يفرح بالخلافة يريد بهم أمراً لما استعجل . وبلغ الخبرُ عبدَ الرحمن بن الحكم بن أبي العاص فكتب لى هشام بن عبد الملك يوبّخه ويقول :

بلغ هشاماً والذين تجمّعوا ... بدابق عني لا وقيتم ردى الدهر
وأنتم أخذتم حتفكم بأكفكم ... كباحثة عن مدية وهي لا تدري
عشية بايعتم إماماً مخالفاً ... له شجَنٌ بين المدينة والحجر [١٦٤]

تهوين كتب

أما الكتب التي أنفذها قبل دفن سليمان وكتبها بيده : فكتاب إلى مصر وكتاب الى أبواب القسطنطينية وكتاب إلى إفريقية : ومضى الكتاب الأول بعزل أسامة بن زيد صاحب صدقات مصر الذي حلب الدر حتى انقطع والدم حتى انصرم ، وكان سليمان يمدحه على فعله دون ان يرتشي ، وكانت وصيته له بظلم أهل مصر قد افزعت عمر ، وودّ لو أن أسامة لم يفعل ولكنه فعل ، وكان غاشماً ظلوماً معتدياً في العقوبات ، يقطع الأيدي في خلاف ما يؤمر به ، ويشق اجواف الدواب فيدخل فيها القُطّاع ويطرحهم في جنوب مصر للتماسيح . فأقسم عمر ليكونن أول عمله لو تولى الأمر أن يعزل

(١٦٣) ابن عبد الحكم ص ٣٣ ـ اليعقوبي ج ٣ ص ٤٣ ـ ابن الجوزي ص ٥٢

(١٦٤) ابن عبد الحكم ص ١٤٨

أسامة بن زيد عن صدقات مصر ، وبرّ بوعده لله فعزله ، وحطّ المظالم عن أهلها وأراح أكبادهم . غفر الله له وحطّ عنه حساب القيامة ، وأوسع له في الجنة !

ومضى الكتاب الثاني برجوع مسلمة بن عبد الملك عن بلاد الروم، فقد كان يذوب مع جند المسلمين تحت وطأة الروم ذوبان الثلج تحت شمس الصيف ويكاد الجيش يفنى ولا يرجع منه أحد . وكان مسلمة أشرف على فتح القسطنطينية براً وبحراً وكاد يلج لولا أن خُدِع عنها وأحرز العدو طعامه وحوائجه واغلق أبوابها دونه . وبلغ خبرُ النكسة سليمان فغضب إذ خُدِع مسلمة وحلف ألا يُرْجعه منها حيا ، فاشتد المقام على المسلمين ، وهلكوا ، وأكل الناجون منهم لحوم الدواب . ولجّ سليمان في التصعيب عليهم وكان ذلك يَغُمّ عمر ، فلما ولي لم يسَعْه فيما بينه وبين الله أن يؤخر قفولهم ساعة. فذلك الذي حمله على تعجيل هذا الكتاب.

ومضى الكتاب الثالث بعزل يزيد بن أبي مسلم عن افريقية ، لأنه كان جباراً يُظهر التأله ويشتط في النفاذ ، مما جل أو صغر ، بالجور ومخالفة الحق . وكان رجلاً مختلطاً متناقضاً يأمر بتعذيب من يعذبه وهو يقول : سبحان الله والحمد لله ! شُدّ يا غلام موضع كذا . . لا إله إلا الله والله أكبر! شدّ يا غلام موضع كذا وكذا — لبعض مواضع التعذيب — فكانت حاله تلك شرّ الحالات . فكتب عمر بعزله في ثالث كتاب [١٦٥]

(١٦٥) ابن عبد الحكم ص ٣٣ ، ٣٤

ودار عمر حول نفسه كما تدور العاصفة فاقتلع جذور الباطل وطمس معالم الغرور ، ونوى أن يفني المال المجموع ويضيّع العقار الموروث ويبدد القطائع الموهوبة لا ليزهد زهادة تفقره وتفقر أهله ولا تغني الناس ، ولكن ليردّ الحقّ الى نصابه ويعيد العدالة الى مجراها ويبني من هيبة الحق ما هدمه السلف في القلوب ، ويوضح من معالم الاسلام ما طمسته الخطوب في الأذهان . وانه لماضٍ مثقل بأوزار غلاظ تصعب على كل تطهير . ولكن عمر صمم أن يطهر الارض مهما زلزلت في يده ، ولو قدر أن يطهّر بدنه من سموم الطعام الذي أكله من قبل ، وأن يمحو من الهواء نفحات الطيب التي نفحت فيه منه - لو قدر أن يفعل ذلك وأن يصهر شحمه ويذيب عظمه لفعل .

أما ثيابه فقد نزعها ، وغسل عنه ذلك الطيب ، ولبس كساء بثمانية دراهم ، وأما شعره فقد دعا الحجام فاخذ منه كل فضلة ، ثم أمر عمر ببيع ما عنده من متاع ومركب ولباس وعطر ، فبلغ بيعُه ثلاثة وعشرين ألف دينار أو أربعة وعشرين ، ثم دفع المال الى بيت المال .

ثم خرج عمر من بيته في دمشق حين قربت إليه مراكب الخلافة وسمع لها في الأرض هدّة ورجّة ، خرج فاذا الخيل مسرجة واذا الفرسان شاهرة واذا السرادقات منصوبة ، والحجر مضروبة ، واذا أمامه صاحب الشرطة يسير بين يديه فقال له عمر : تنحّ عني ،

مالي ولك ! انما أنا رجل من المسلمين، ثم سار[١٦٦] خائضاً الصفوف ملتمساً بغلته فركبها وسرّح الفرسان الشاهرين وأعفى كثيراً من الشرطة والحراس . كانوا اكثر من ستمائة فأعفى كثيرا منهم[١٦٧] وانصرف الى السرادقات والفرش يدفعها بقدمه حتى يفضي الى الحصير تحتها ، ثم دعا بمزاحم وقال له: هذه البراذين والخيل، وهذه السرادقات والحجر وهذه الفرش والرياش — ضمّها كلها الى بيت مال المسلمين[١٦٨] .

ثم حانت منه التفاتة فنظر الى ابن له قد تخرق قميصة من ازدحام الناس عليه فقال له : يا بنيّ ، أصلح جيب قميصك ، فانك لم تكن قطّ أحوج الى ذلك منك اليوم .

وبينما هو كذلك اذ أقبل خالد بن الريان قاتل الحروري بين يدي الوليد ايام الحجاج ، جاء يتلقى أوامر الخليفة لينفذها ؛ وما كاد عمر يراه حتى قال له: ضع هذا السيف عنك ، فوضعه ، وعزله، ثم جعل عمر يقول : اللهم اني قد وضعت لك خالد بن الريان فلا ترفعه ابدا ! وقبل الله دعاء عمر فيه فلم يعد له ذكر بين الناس في حياته ، ولحقه الذكر السيء بعد مماته. ثم نظر عمر في وجوه الحرس فرأى عمرو بن مهاجر الأنصاري، وكان تقياً فقال له عمر حين رآه: والله انك لتعلم ياعمرو أنه ما بيني وبينك قرابة الا قرابة الاسلام،

---

(١٦٦) الصفوة ج ٢ ص ٦٤ — حياة الحيوان ج ١ ص ٦٨

(١٦٧) ابن الجوزي ص ٩٨

(١٦٨) ابن عبد الحكم ص ١٦٨

(١٦٩) ابن عبد الحكم ص ١٥١

ولكني قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن ، ورأيتك تصلي في موضع تظن أن لا يراك أحد ، فرأيتك حسن الصلاة . خذ هذا السيف قد وليتك حرسي [١٧٠]

## مطامع النساء

وخاف عمر أول ما خاف مطامع النساء ، وكان عنده امرأة لو شاءت أن تجتمع لديها الدنيا لاجتمعت ، حفيدة خليفة وبنت خليفة وأخت خلفاء ، وهي فاطمة بنت عبد الملك ، فمال اليها يقلم أظفارها منذ أول الأمر لئلا تقلق جنبه ، فأخذ جوهرها وحليّها — فيما أخذ — فأودعه بيت المال ، حتى إذا احتاج إليه المسلمون أنفقه عليهم .

وكأن عمر أحسّ أن فاطمة لم ترض كل الرضا بما فعل فمال اليها يخيرها بين أن تقيم عنده وبين ان تلحق بأهلها ، وأعلمها أنه انما شُغِل عن النساء بما في عنقه ، فرضيت أن تقيم وأن تدفع بحليّها الى بيت المال ثم لا تردّه اليها أبدا . [١٧١]

ولكنه حين ضيّق عليها وعلى أولادها في الطعام والملبس كما ضيّق على نفسه سألته أن يُجْري عليها خاصة ، فقال لها : ليس في مالي سعة ، قالت : فلم كنتَ انت تأخذ منهم ؟ قال : كانت المهنأة لي والاثم والتبعة عليهم ، أما اذ وليت فلا افعل ذلك فيكون اثمه عليّ .

وما زال عمر بزوجته حتى طبّعها بالورع فصارت مثلاً كريماً

---

(١٧٠) ابن الجوزي ص ٤٠

(١٧١) ابن عبد الحكم ص ٦٠

للنساء ، وكانت كلما عاودها الحنين الى حياة الترف تجد منه ميلاً عنها وادباراً فتعود الى طمأنينتها ووروعها حين يقول لها : اتعظي ان شئت او ذري ! [١٧٢] ولم تزل هي تحن لما كانت عليه حياتها من قبل فتقول : والله لوددت لو كان بيننا وبين هذه الامارة بُعْدُ ما بين المشرقين .

وكما فعل عمر بفاطمة فعل باولاده من رجال ونسوة: أرسلت اليه ابنته بلؤلؤة ، وقالت له : ان رأيت أن تبعث لي بأخت لها حتى أجعلها في أذنيَّ ! فأرسل لها بجمرتين ثم قال لها : ان استطعت أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك بعثت اليك بأخت لها [١٧٣]

وبلغه أن ابناً له اشترى فص خاتم بألف درهم فكتب اليه : عزيمةً مني عليك إلا بعتَ هذا الخاتم الذي اشتريته بألف درهم وتصدقتَ بثمنه واشتريت آخر بدرهم نقشت عليه : رحم الله امرءاً عرف قدره ! والسلام .

وكان الخدم حين استخلف عمر قد ظنوا أنهم قد سادوا الناس ، فلما صارت حالهم الى شرّ مما كانوا عليه حزنوا لولايته وتفرقوا عنه ، وكان له غلام يقال له درهم يحتطب له فقال له عمر حين استخلف ومضت أيام من خلافته : ما يقول الناس يا درهم ؟ قال : وما يقولون ! الناس كلهم بخير وأنا وأنت بشرّ ! قال عمر : وكيف ذلك ؟ قال : إني عهدتك قبل الخلافة عَطِراً لبّاساً فاره المركب طيب الطعام ، فلما وليتَ رجوتُ أن أستريح وأتخلص فزاد عملي

(١٧٢) ابن الجوزي ص ٧٥ ـ الخراج لأبي يوسف ص ١٧
(١٧٣) ابن عبد الحكم ص ١٦٣

شدة وصرتَ أنتَ في بلاء ! قال عمر : فأنت حر فـــاذهب عني ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه فرجا [١٧٤]

بيت سليمان

ولما فرغ من بيته اصطحب مولاه مزاحماً وجماعة من بني مروان وذهبوا الى بيت سليمان . وكان بات أولاد سليمان وبناته يفرغون الأدهان والطيب من هذه القوارير الى تلك ، ويلبسون ما كان مطوياً قشيباً من الثياب لم يلبس حتى يتكسر فيصير كأنه لُبِسَ — وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب ومس من الطيب فهو لولده ، وما لم يلبس ولم يمسّ فهو للخليفة من بعده — فلما جاء عمر وعرف مافعلوا ردّ القسمة وضمّ كل ماوجده الى بيت مال المسلمين .

وتناجى أبناء مروان وهم حوله فقالوا : أما المراكب وأما السرادقات والحجر والثوار والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان فيه ما علمنا ، وبقيت خصلة ، وهي الجواري : نعرضهنّ ، فعسى أن يكون فيهن ما تريدون ، وظنوا أنهم ربما دخلوا على قلبه بالجواري الحسان ، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده ! قالوا ذلك وتناجوا به فيما بينهم ، ولم يدروا أن عمر قد خاف مطامع النساء فرد فاطمة عنها ، وخافَ مطامـــع الرجال في النساء وعزم على ردها .

وجيء بالجواري فعرضن عليه كأمثال الدُّمى فنظر اليهن وسألهن واحدة واحدة عن اسمها وأهلها وبلدها وكيف جاءت ، فأخبرنه بكل ما سأل ، فسرّحهن عمر وردّهن الى أهلهنّ ، وقطع

(١٧٤) ابن الجوزي ص ١٧٥ — العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٥

على بني مروان آمالهم في إثارة الشهوة وحب البوار .

أول العدالة

ثم انقطع عمر فغاب عن الناس ثلاث ليال، اضطرب لها وجوه بني مروان وبني أمية وأشراف الجند والعرب ، ووقفوا ببابه ينظرون ما يخرج عليهم منه . أما هو فقد أخذ مع مزاحم يجمعان السجلات : سجلات قطائعه وسجلات قطائع الأمراء وعهود عطاياهم والأموال التي تجري عليهم ، وكانت نصف ما في بيت المال او ثلثيه . فلما اجتمعت لديهما السجلات والكتب أمر عمر أن ينادَى بصلاة جامعة ، فاجتمع الناس وخرج عمر فصعد المنبر ووقف مزاحم دونه . وكان عمر يرتدي لأول مرة في حياته ثيابا رخيصة الثمن قدّرها رجاء بن حيوة حين ذلك باثني عشر درهما : حلة من قميص ورداء وسراويل وقباء وعمامة وقلنسوة وخفّين — وكل ذلك باثني عشر درهما [١٧٦] . ولم يترك الناسَ يتعجبون كثيراً فقال :

أما بعد فإن هؤلاء أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها . واني قد رأيت ذلك ليس عليّ فيه دون الله محاسب . واني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي . اقرأ يا مزاحم . فجعل مزاحم يخرج سجلا سجلا وعهدا عهدا وكتابا كتابا، لعمر أو للأمراء ،ثم يقرؤه فيأخذه عمر وبيده الجلم فيقطعه

---

(١٧٥) ابن عبد الحكم ص ٣٧ — ابن الجوزي ص١٥٧ — صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٧

(١٧٦) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦١ — صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٧

وما زالا حتى جاء الظهر ونادى المؤذن للصلاة [١٧٧]

هذا كان في السجلات التي حصل عليها ، أما التي لم يحصل عليها فقد أمر عمر ألا ينتفع أحد بأرض قد اغتصبها او اغتُصبت له . ونادى عمر أنْ ليس لأحد مال الا بما في كتاب الله . ولم يترك ظلامة مزرعة ، ولا طلبة لأحد عنده الا ردها اليه ، وخرج مما كان في يده من مزارع وأشياء وعبداً وأمة فجعلها جميعاً في بيت مال المسلمين .

فقه جديد

كأن لم يكن عمر قد قرأ فقهاً من قبل او اطّلع على سيرة وتاريخ ، فقد غاب عنه أمر سجلّ خيبر ، ولم يكن يدري كيف جاءه ، فلما قيل له: تركها رسول الله فيئاً للمسلمين ثم صارت الى مروان من عثمان وصارت الى أبيك منه ثم صارت إليك من أبيك — خرّق عمر سجلها وقال : أتركها كما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم [١٧٨] . وغاب عن عمر أمر « فَدَك » فردها كما كانت عليه ، بعد ان كانت أحب المقاطعات لديه ، ينفق من غلتها على مُتَعِه وثيابه ، فلما عرف أمرها ردها قائلاً : وما كان لي مالٌ أحب اليّ منها ، وأنا أشهدكم اني قد رددتها الى ما كانت عليه [١٧٩] . وكذلك خرج عمر من السهلة باليمامة ومن المكيدس وجبال الورس باليمن . وأما ما لم يكن له سجلّ من الأرض

(١٧٧) ابن الجوزي ص ١٠٦

(١٧٨) ابن عبد الحكم ص ٦٠

(١٧٩) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٥ — وسنعود الى تفصيل قضية فدك في باب « دعوة الخير » من هذا الكتاب .

فقد أمرَ وكلاءه ان يردوا ثماره الى بيت المال ، وأما ما كان له فيه شركاء فلم يمسَّه لحقوق شركائه فيه .

ولما كان عمر قد قضى على نفسه ألا يأخذ من بيت المال شيئاً قطّ فانه أبقى لنفقة بيته واهله عيناً بالسويداء كان استنبط ماءها في ارض خربة براحٍ ليس فيها لأحد ضربة معول ، فعملها من صلب عطائه ، فكانت تجيئه غلتها مائتا دينار وجراب فيه تمر صيحانيّ وتمر عجوة [١٨٠] ، فاكتفى بها ولم يُجْرِ على نفسه من الفيء درهماً . فلما قيل له لو أخذت من بيت المال ما كان يأخذ عمر بن الخطاب! قال ان ابن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالي يغنيني . ثم جعل نفقته من ماله في اليوم درهمين [١٨١] . وقالوا انه لم يُبْقِ في يده غير بُدا وجزّين من ارض بعلبك [١٨٢]

أُمراء بني أُمية

وحين انتهى مما أراد على المنبر نزل فجمع الأمراء وقال لهم : أدّوا ما في ايديكم من حقوق الناس ، ولا تلجئوني الى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون . واني لأحسب شطر اموال هذه الأمة

---

(١٨٠) ابن عبد الحكم ص ٤٥

(١٨١) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٤ ــ تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٣

(١٨٢) تاريخ مدينة دمشق ص ٥٨٨

(بدا) هكذا ضبطها الاستاذ صلاح الدين المنجد في تاريخ مدينة دمشق والقاموس يخففها فيقول بدا . انظر المادة في القاموس المحيط ، وقد ضبط صاحب معجم البلدان ضبط القاموس ، وجزين تضبط بضم الجيم مع كسر الزاي المخففة . ولكن اهل زماننا يشددون الزاي . وجزين الحالية في لبنان ليست من ارض بعلبك وانما يقرب الى هذه الاسماء اسماء قرى بعلبك في زماننا وجزين بالحاء

و ثلثيها في ايديكم ، فسكتوا ولم يجيبوه ، فقال : أجيبوني ، فقال هشام بن عبدالملك : والله لا نخرج من اموالنا التي صارت الينا من آبائنا فنكفرَ آبائنا ونفقر ابناءنا – حتى تزايل رؤوسنا اجسادَنا ! .

وكان عمر يعرف جهل الناس ويخشى ان يعاونوا الأمراء على مظالمهم ، فقد كان الناس وُلدوا في المظالم فظنوا أن الاسلام خلق هكذا كما رأوه ، كان عمر يعرف ذلك فقال : أما والله لولا أن يستعينوا عليّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعتُ خدودهم عاجلا ! ولكني أخاف الفتنة . ولئن أبقاني الله لأردنّ لكل ذي حق حقه إن شاء الله [١٨٣] .

وغلت ثائرة الأمراء فأرجفوا به ، وهبت عليه منهم عاصفة عاتية فوقف لها مستعرضاً حتى تقتلعه أو يحطمها ، وقد هان عليه ان يستعرض للثائرة لأن الخلافة كانت أهون عليه من كل شيء ، فلم يبال بهم حين ثاروا وحين أرجفوا . وابتدأ الأمراء يجسون نبضه ثم يتحسسون ثغور الضعف فيه ثم يهجمون عليه لعله يستسلم فيسلّم . ولكن عمر ظل قوي القلب شجاعا ، ولم ينكسر فيه ثغر يلجون منه ، ثم ردّهم رداً عنيفاً فخضعوا واستسلموا .

ووقف عمر من هؤلاء الأمراء وقوف الحصن يدفع عن نفسه ، ولو استطاع ان يزحف ليعصف بهم لفعل ، ولكنه لم يستطع او لم يشأ ، ومن ثم فقد اخطأ ، وعليه إثم الخطأ ، وكان الناس يقبلون منه أن يغير ما شاء من نظام الخلافة ووراثتها ، بل طلبوا إليه أن

(١٨٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

يغير ويبايعوا ، ولكنه تردّد ثم امتنع ، فلم يهنأوا الا بمدّته ولم يسعدوا الا في حياته .

وحرضوا عليه أول ما فعلوا عمته فاطمة أم عمر ، كانت واحدة من بنات مروان ، وكانت امرأة قد غلت وأخذتها الخيلاء ، أرسلت اليه تقول : إنه قد عناني أمر لا بد من لقائك فيه ، وأتته ليلاً على صهوة جوادها ، فأدخلها الحراس ، حتى اذا كانت عند باب قبته أخذ بيدها فأنزلها ، ثم طبّق لها وسادتين احداهما على الأخرى ثم أنشأ يمازحها فقال لها : أما رأيت الحرس الذي على الباب؟

وكانت المرأة جافية لا تنزع الى مزاح ، وقد جاءت في أمر ليس فيه هزل ، بل كله جد ، فقالت لعمر : بلى ، رأيتهم عند من هو خير منك ! فأخذ يخفف عنها فلم يستطع فتحول الى الجد وترك المزاح وقال لها : يا عمة ، أنت أولى بالكلام لأن الحاجة لك ، فتكلمي ، فهمّت أم عمر أن تتكلم فقطع عليها مشيئتها وقال : يا عمة ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبض فترك الناس على ورد مورود ، فتولى ذلك الورد رجل فلم يستنقص منه شيئاً ، ثم تولاه الرجل بعد الرجل حتى ولي معاوية فشق منه الأنهار ، ثم لم يزل الناس يكرون منه حتى تركوه يابساً ليس فيه قطرة . وايم والله لئن أبقاني الله لأعيدنه الى مجراه الأول !

قالت عمته : فلا يُسبّوا عندك اذن! فرآها عمر تتعلل بعلة المبطلين اذا غلبتهم الحجة فمالوا الى النافهة والتّرهة فقال لها : ومن يسبهم ؟ انما يرفع الرجل مظلمته فأردها عليه ! قالت : ان قرابتك يشكونك ويزعمون أنك أخذت منهم ما لم يأخذه غيرك ! قال ما منعتهم

حقاً كان لهم ! قالت : اني رأيتهم يتكلمون ، واني أخاف ان يهيجوا عليك يوماً عصيباً ! وما كادت عمته تصل به الى هذا القول حتى اهتاج عمر ولم تبق من قوة تطفىء حدته وترد غضبه فقال لها : كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره !

وهمت عمته بالانصراف فاستبقاها ، ثم دعا بدينار ونار ، فألقى الدينار على الجمر حتى حَمي ، فلما احمر الذهب وسال زالت كتابته وفسد ، فتناوله فألقاه وقد ضاعت رسومه ، فقال : اي عمة ، أما ترثين لابن اخيك من مثل هذا ؟ فقامت عمته تلفلف سرباله وهي لا تتكلم ، قد غلبتها الموعظة وأخذتها الروعة ، فقال لها عمر : تكلمي ، فقالت : أردتُ كلامك ومذاكرتك ، فأما اذ كانت هذه مقالتك فلست بذاكرة لك شيئاً ابداً . ثم مضت فأتت القوم ، ونار الذهب تتوقد في خيالها ، وتضاهىء بين الذهب وبين أهلها فتجدهم كالحطب اليابس والقطن المنفوش ، النار أسرع فيهما من الذهب ، وليس الذنب ذنب عمر وانما هو ذنب بني مروان جميعاً ، فقالت لهم : تزوجون ابنكم عبدالعزيز من آل عمر بن الخطاب فاذا نزعوا الى الشّبَه جزعتم ؟ اصبروا له ، وذوقوا مغبة امركم ! [184]

•

ولكن أمراء بني أمية وقد اشتركوا في النسب الواحد وتساوَوْا مع عمر فيه لم يَرَوا له فضلاً عليهم الا انه انفرد بالخلافة

(184) ابن الجوزي ص 116 — صفة الصفوة ج 2 ص 69 — الاغاني ج 8 ص 146

ولم تكن الشركة في النسب الا داعية للمؤازرة والمعاونة . قد كان لهم ان ينتظروا ذلك منه ، ولكنه اخلف الظن وكان اشد احتالاً واصعب علاجاً ،وصاروا يظنون كل عمل له بازائهم كالدَّين المجحود والحق المغموط ، فلما جاءوا لاقتضائه منه فثقل ثار بهم الحقد واستعرت نار الغضب . ولو أبعدهم عمر كل البعد لما كثرت مطالباته بالحقوق التي ادَّعوْها ، وكذلك تعذر الدواء ووقع اليأس لأن عمر أبقى لهم عطفاً مرجواً واملاً مأمولا .

ثم حان لثورتهم ان تندلع ،فجاء احد اولاد سليمان وقد صادر عمر ارضاً له لم يكن قد رأى سجلها ، وانما علم امرها فصادرها ، فلما اذن له قال : :يا امير المؤمنين ، لم لا تردّ عليَّ ارضي ؟ فقال عمر : معاذ الله ألا ارد ارضاً رسخت لك في الاسلام ! فأخرج ابن سليمان سجلاً من كمه ودفعه الى عمر قائلاً : فهذا كتابي ! فنظر عمر في السجل وقال : لمن كانت هذه الارض ؟ قال : للفاسق ابن الحجاج . قال عمر : فهو اولى بها . فقال : يا امير المؤمنين ، فانها لي من بيت مال المسلمين . قال عمر : فالمسلمون اولى بها ، قال ابن سليمان : فرد عليَّ السجل . فقال عمر : لو لم تأتني به لم اسألكه ، فأما اذ جئتني به فلا ندعك تطالب بباطل .

لقد خشن عمر على ابن سليمان وهو من أوصى له، ولقد بكى ابن سليمان فلم يرق له عمر فتركه ومضى ، ورأى ذلك كله مزاحم فرق قلبه على ابن سليمان، فلما خرج قال لعمر : يا أمير المؤمنين، ابن سليمان تصنع معه هذا ! فقال عمر : ويحك يا مزاحم ! انها نفسي

أحاول عنها ، واني لاجد له من المشقة ما أجد لولدي [١٨٥]

●

ودخل عليه عبد الرحمن بن سليمان وعنده مزاحم وقد جلس عمر على حشية خشنة ، فلما دخل عبد الرحمن أدناه منه وأقعده معه على الحشية ثم قال له : يا عبد الرحمن ، ما فعل الثلاثة؟ قال: ومن هم ؟ قال : جدك وعمك وأبوك ، فقال عبد الرحمن : ولوا مثلما وليت ، ثم دعوا فأجابوا . قال عمر : ألا أنبئك بخبرهم ؟ قال : بلى .

قال عمر : أما جدك فاني صحبته فيمن صحبه ومرضته فيمن مرضه ودفنته فيمن دفنه فلم أر أحداً أعلم بالدنيا منه ! ثم صارت الأشياء الى عمك فكنت معه كما كنت مع جدك فلم أر أحداً اغلب للدنيا منه ! ثم صارت الى أبيك فلم أر أحداً كان آكل للدنيا منه ! ثم أقبلت الي تريدني على ديني !.. ومضى يتم كلامه فخنقته العبرة فلم يتكلم ، فقال مزاحم : قم يا عبد الرحمن . قال عبد الرحمن فقمت ، فما بلغت باب البيت حتى سمعته يخور بكاءً وانتحابا [١٨٦]

●

وكان عنبسة بن سعيد بن العاص من أشراف بني امية وساداتهم ، وكان اكثر الناس مجاورة للخلفاء وداً لهم ، وكان ذا مال لا يحتاج معه الى زيادة ولكنه ما فتيء يزداد ويطلب من الخلفاء وهم

---

(١٨٥) ابن الجوزي ص ١١٨

(١٨٦) ابن عبد الحكم ص ١٦٠

يعطونه فلا يشبع . جاءه آخر عطاء من سليمان قبل موته وكان عشرين الف دينار كتب له بها كتابا ليقبضها من بيت المال ، فدار عنبسة في الدواوين بكتابه حتى انتهى الى ديوان الختم ، فتوفي سليمان فأقفل دونه بيت المال ، ورُدّ الكتاب حتى يأمر الخليفة الجديد من جديد .

ولم يبتئس عنبسة لأن عمر صديقه ، وبينهما مودة عظيمة ، فغدا عليه يريد كلامه في عطاء سليمان ، فوجد بني امية بباب عمر يريدون الاذن عليه ليكلموه في أمورهم ، فلما رأوا عنبسة قالوا : ننتظر ما يصنع به ، ثم قالوا لعنبسة : أعلم امير المؤمنين مكاننا ، فدخل عنبسة على عمر ورأى أن يبدأه بكلامه عن قومه ثم يذهب الى الحديث عن نفسه ، فقال له : يا امير المؤمنين ، ان لنا بك قرابة وان قومك بالباب يسألونك ما كان يجريه الخلفاء عليهم قبلك ، فقال عمر : يا عنبسة ، لن يتسع مالي لكم ، واما هذا المال فحقكم فيه كحق رجل بأقصى الأرض ، فما يمنعه من أخذه في حينه الا بعد مكانه ، ووالله اني لأرى ان الأمور لو استحالت حتى يصبح اهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بكم بائقة من عذاب الله !

قال عنبسة : يا امير المؤمنين فان قومك حينئذ يسألونك ان تأذن لهم ان يتفرقوا في البلاد ويضربوا فيها ، فقال عمر : لهم ذلك ما شاءوا ، وقد اذنت لهم الا ان يؤذوا احداً من اهل الذمة ! فقال عنبسة : وانا يا امير المؤمنين ، ان سليمان كان امر لي بعطاء فلما انتهى الى ديوان الختم مات سليمان ، وامير المؤمنين اولى

باستتمام الصنيعة عندي ، وما بيني وبينه اعظم مما كان بيني وبين سليمان !

قال عمر : وكم ذلك ؟ قال عنبسة : عشرون الف دينار ، فصاح عمر كأنه ذُعِر : عشرون الف دينار ؟ عشرون الف دينار تعني اربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها الى رجل واحد ؟ والله مالي الى ذلك سبيل !

قال عنبسة : اذن فأذن لي ان اذهب معهم ، قال : قد اذنت لك ! وان احبكم الينا من كفانا مئونته ! قال عنبسة : فخرجت من عنده ، فلما صرت عند الباب ناداني : ابا خالد ، ابا خالد ، فرجعت اليه ، قد ظننته رجع عن رأيه ، فقال لي : اكثر وانت في ضيعتك من ذكر الموت ، فان كنتَ في ضيق من العيش وّسعه عليك ، وان كنت في سعة منه ضيّقه عليك ! كأنما هو يتهكم بي ! ثم مضيت اخرج فرجع فناداني ، قد عطف عليّ وتذكر حرمة صداقتي فقال لي : ولكني ارى ان تقيم ، فانك رجل كثير المال ، وانا ابيع تركة سليمان ، فعليك ان تشتري منها ما يكون لك فيه ربح وعوض عما فاتك ! قال عنبسة : فأقمت تبركاً برأيه ، فابتعت من تركة سليمان بمائة الف ، فخرجت بها الى العراق فبعتها بمائتي الف .[١٨٧]

وأجمع الأمراء على رأي رأوه حسناً ، فرأوا ان يعرضوه على عمر ليأخذ به ، وذلك ان يمضي رأيه فيما تحت يده من المال ،

---

( ١٨٧ ) ابن الجوزي ص ١١٤ ، ١١٧ ـ ابن عبد الحكم ص ٥٦ ، ٥٨ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٥

ولكنه يَدَع ما قد قُسِمَ على الأمراء من قبل ، ولا يرجع على حقوقهم بنقص ولا محق ، فما مضى فات وصار حقاً ، ولم يكن من عمل عمر حتى يخاف ذنبه ويحمل إثمه – ان كان فيه ذنب كما تورّع فرأى – قد رأى الامراء ذلك واجمعوا عليه وفرحوا به حين ظنوه حسناً .

ولم يبق إلا ان يمضي به من لا يهاب، فحمله هشام بن عبدالملك الى عمر ، ولكنه لما كان عنده نَصَل من الشجاعة التي ابداها عند قومه حين تعرض لحمل امانتهم الى عمر ، وقال لعمر : يا امير المؤمنين ، اني رسول قومك اليك ، وان في انفسهم ما اكلمك به ، وانهم ليقولون : استانف العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخل بين من سبقك وما ولوا بنا عليهم ولهم !

وعرف عمر ان هشاماً يزعم القوم ولكنه يتوارى فيهم، فقال له : ارأيت يا هشام ان جئت بسجلين احدهما من معاوية والآخر من عبد الملك بأمر واحد ، فبأي السجلين آخذ ؟ قال هشام : تأخذ بالأقدم ! فقال عمر : فاني وجدت كتاب الله الأقدم ، فأنا حامل عليه مَن اتاني ممن تحت يدي وفيما سبقني ! [188]

ثم لم يترك الأمراء باباً الا ولجوا منه اليه ليردّوه ، ولم يدع وسيلة ولا حدةً الا اصطنعها معهم ليردهم ، حتى ضاق بهم وضاقوا به ، وكان اذا نظر الى بعضهم قال: اني أرى رقاباً سترد الى أربابها [189] . وما زالوا يثورون به حتى جاءه كتاب من

(١٨٨) ابن الجوزي ص ١١٨

(١٨٩) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

احدهم فاستشاط له غضباً فقال : ان لله عليّ من بني مروان يوما يكون ذبحاً ، وايم الله لئن كان ذلك الذبح على يدي!.. فلما بلغهم ذلك كفوا ، وكانوا قد علموا صرامته وانه اذا وقع في امر مضى فيه .

ولقد طالما تمنى عمر ان يأتي اليوم الذي يكون فيه منّ لله وفضل باستئصالهم ، وقد كان يبلغهم تمنيه ، فاذا بلغهم كفوا، ولم يكن يدفع عمر عنهم الا انهم يقرون بما انزل الله وبما جاء به رسوله ، ولكنهم اسرفوا على علم منهم ان الاسراف محرم عليهم، ولكن غلب عليهم الشقاء فضلوا [١٩٠]

وكان بعض هؤلاء الأمراء من الجواري امهات الأولاد ، وكان من بينهن جارية يقال لها « بُنانَة » . كانت امة في قبيلة يقال لها « السَّكُون » ، وكانت صناجة تطوف في اسواق حمص وتدور على حوانيتها . وحُملت بنانة فيما حمل من الهدايا الى الوليد فتزوجها واولدها ولدا يقال له عمر ، فنشأ عمر هذا متكبراً جباراً عنيداً .

فلما كان عمر بن بنانة صبياً ، وأحبه ابوه الوليد حباً كثيراً استعمله على قطعة من جند المسلمين ، وجعل له رأياً ماضياً في ذلك الجيش . ولم يكن لابن بنانة من فضل في هذه التولية إلا انه ابن الخليفة الذي يحبه ويؤثره ويفضله على الناس ، ولا سبب لذلك الا حب طائش. فلما اخذ عمر بن عبدالعزيز يردّ المظالم : ما كان في يده وما كان في يد اهله، غضب عمر بن بنانة واستكبر

(١٩٠) انظر محاورة عمر للخوارج بتاريخ الأمم الأسلامية ج ٢ ص ١٨٢

واستعلى وكتب الى الخليفة يقول :

انك ازريتَ على من كان قبلك من الخلفاء ، وعبت عليهم ، وسرت بغير سيرتهم وشَنْئاً لمن بعدهم من اولادهم . قطعت ما امر الله به ان يوصل اذ عمدت الى اموال قريش ومواريثهم فأدخلتها في بيت المال جوراً وعدوانا . ولن تترك على هذا .

وجاء الكتاب عمر فكتب الى ابن الوليد يقول : اما بعد ، فانه بلغني كتابك ، وسأجيبك بخير منه . اما اول شأنك يابن الوليد — كما تزعم — فأمك بُنانة أمة السكون ، وامك صناجة كانت تطوف في سوق حمص وتدور في حوانيتها ، ثم الله اعلم بها ... اشتراها ذُبيان من اموال المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك فبئس المحمول والمولود ! ثم نشأت فكنت جباراً عنيدا .

وتزعم اني من الظالمين لما حرمتك واهلَ بيتك في ء الله عز وجل الذي فيه حق القرابة والأرامل المساكين ، وإن اظلم مني واترَكَ لعهد الله من استعملك صبياً سفيهاً على جند من جنود المسلمين تحكم فيهم برأيك ، ولم تكن له في ذلك نية الا حب الوالد لولده ، فويل لك ! وويل لأبيك ! ما اكثر خصماءكما يوم القيامة ! وكيف ينجو ابوك من خصمائه ؟

وان اظلم مني واترَك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام ، وان اظلم مني واترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك — اعرابياً جلفاً — على مصر ، واذن له في المعازف واللهو والشراب ، وان اظلم مني واترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهماً في خمس العرب !

فرويداً يابن بنانة ! فلو التقى حلقتا البطان ١٩١، ورُدّ الفيء الى اهله ـ لتفرغتُ لك ولأهل بيتك فوضعتهم على المحجة البيضاء ، فطالما تركتم الحق واخذتم في بنيّات الطريق ١٩٢ . ومن وراء هذا ما ارجو ان اكون رأيته في بيع رقبتك وقَسْم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل فان لكل فيك حقاً .

ولقد هممت أن ابعث اليك من يحلق دلادلك ، ويجزّ جمتك جمة السوء ١٩٣ ، فاني اعلم انها من اعظم المصائب عليك ! والسلام علينا ولا ينال سلامُ الله الظالمين ١٩٤

●

وكان للوليد ابن آخر يقال له رَوْح قد نشأ في البادية فتبدّى وجفا كأنه اعرابي ،وصارت له غلبة على الناس بالتوعد والتهديد. وأقطعه ابوه في حوانيت حمص وكتب له بها سجلًا ، فجاء اهل حمص يشكون روحاً واباه الوليد ، فلما امر عمر روحاً ان يخلي حوانيت الناس قال له : هذا معي بسجلّ الوليد، فقال عمر : وما يغني عنك سجل الوليد وقد قامت البينة على انها لهم ؟ ثم قام روح واهل حمص ومضوا ، فتوعد روح حمصياً منهم فرجع الى عمر يشكو له فنادى عمر كعب بن حامد احد احراسه وقال له: اخرج الى روح بن الوليد فان سلم اليهم حوانيتهم فذاك وان لم

(١٩١) يريد أن صار البال رخيا دون اشتغال.
(١٩٢) بنيات الطريق ـ الترهات وسفساف الأمور.
(١٩٣) يريد بالدلادل الاضطراب ـ والجمة مجتمع شعر الرأس .
(١٩٤) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٥ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٣٠ ـ ابن الجوزي ص ١١٤

يفعل فأتني برأسه ! ورأى روح الحرسيّ قادماً وقد سلّ سيفه فخلع فؤادُه ، قال له الحرسيّ : قم فخلّ حوانيتهم. فقال : نعم نعم ، ثم ذهب ذليلاً مقهوراً يخلي الحوانيت [١٩٥]

ثم رد عمر كل ارض اغتصبها الوليد : ردّ ما اغتصب من اعراب البادية ورد على ابراهيم بن طلحة داره المغصوبة : اخذها عبد الملك ثم الوليد ثم سليمان ، فردها عمر [١٩٦] . وهكذا كان ما رآه عمر من المظالم دافعاً له بعزم لا يغلب الى التسلق الى قمة العظمة بفرض العدالة وردّ المظالم ، ولم يبال ان ينقطع ما بينه وبين اقربائه متى كانوا ظالمين .

## أرباح التجار

وابى عمر على التجار ان يربحوا اضعافاً مضاعفة ، ولكنه لم يجد لهم عقوبة على ذلك فتركهم على كرهٍ منه ، وقد حدث انه لما كان اسامة بن زيد التنوخيّ والياً على خراج مصر ان ابتاع من موسى بن وردان فلفلاً بعشرين الف دينار فخزنه اسامة في دار الفلفل ، وكان اسامة اشتراه للوليد بن عبدالملك ليهديه الوليد الى صاحب الروم فخزنه فيها ، فحين ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز شكا موسى بن وردان الى عمر ليُدْفع اليه الثمن .

قال موسى بن وردان : دخلتُ على عمر بن عبد العزيز فحدثته بأحاديث عمن ادركته من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكنتُ عنده بمنزلةٍ ؛ أدخل اذا شئت واخرج اذا

(١٩٥) ابن عبد الحكم ص ٥٩

(١٩٦) ابن الجوزي ص ١٠٤ — النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٦٠

شئت ، فسألته الكتابَ الى حيان بن سريج في عشرين الف دينار استوفيها من ثمن فلفل يدفعها اليَّ ، فقـــال لي : ولمن العشرون الف دينار ؟ قلت : هي لي ، قال : ومن اين هي لك ؟ قلت : كنت تاجراً ، فضربني بمسطرته ثم قال : التاجر فاجر والفاجر في النار ! ثم قال : اكتبوا الى حيان بن سريج !

قال موسى : فلم ادخل عليه بعدها ، وامر حاجبـــه الا يدخلني عليه [١٩٧]

**عزل الولاة**

قال سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب حين استشاره عمر بن عبد العزيز في العمال : ولا يمنعنَّك من نزع عامل ان تقول لا اجد من يكفيني عمله ، وانك اذا كنت تـنزع لله وتعمل له اتاح الله لك رجالاً وجاءك باعوان ، وانما العون من الله على قدر النية ، فاذا تمت نية العبد تم عون الله له [١٩٨] .

وكان مات الحجاج بن يوسف ولكن ظلمه لم يمت وخلفاءه ما يزالون يلون البلدان وصليل سيوفهم ما يزال يقعقع في الآذان ، فأنشأ عمر – في سرعـــة واستعجال – يعزل الولاة الذين ظلموا وسفكوا الدماء ، فعزل كل رجل ولغ في دماء المسلمين ليهدىء النفوس ويريح الجنوب ، وحرّضه قول سالم بن عبدالله فقيه المدينة فأمر بعزل كل ظالم وان كان ذا قرابة لأمير المؤمنين .

وعزل عمر اسامة بن زيد عن صدقات مصر ويزيد بن المهلب

---

(١٩٧) فتوح مصر واخبارها ص ٩٩

(١٩٨) ابن الجوزي ص ١٣٠

وصالح بن عبد الرحمن عن العراق والحارث بن عبد الرحمن الثقفي عن الأندلس ومحمد بن يزيد بن مسلم عن افريقية ، وعزل امثالهم.

ونفى اهل بيت الحجاج الى اليمن ولم يستعمل احداً منهم على سلم او حرب ليأمن مكرهم ، ونفى امثالهم . ونزع سيف خالد ابن الريان وطرده وسيف احد رجال الحجاج وردّه من دابق لئلا يحارب في جنده وخفض عطاءه من الفين الى ثلاثين ، ونزع سيوف امثالهم . وجاءه عامل معزول يعتذر له بأنه لم يعمل الا قليلاً للحجاج فقال له: حسبك من صحبة شرٍّ يومٌ او بعض يوم [١٩٩]

مسلمة بن عبد الملك

ولم يعد احد من بني امية مقرباً الى عمر غير صهره مسلمة بن عبد الملك فانه كان اخا فاطمة ،وقد احب عمر ولزمه وتبعه واطاعه، الا فيما احل له من الطعام ، فقد اسرف فيه كل الاسراف . وبلغ عمر ما يفعله مسلمة فود لو انقطع عن شهوته للمباحات فانها توشك ان توقعه في المحرمات ، فأمر عمر ان يبكّر به عليه ،ثم امر بعدس وبألوان من لحم وطعام طيب ، فلما غدا مسلمة عليه اقام عنده حتى تعالى النهار ووجد الجوع ، فقام ليذهب فحبسه عمر عنده ، فأقام حتى انتصف النهار ، حتى اذا بلغ منه الجوع ووجد حرارته وعرف عمر – دعا بالطعام فقربت اليه ثريدة العدس فأقبل عليها مسلمة فأكل اكل مجهود قد بلغ منه الجوع ، فلم يأل حتى تملّأ ، فأمر أن تُرفع ، ودعا له بالطعام الطيب الذي أعدّ ، وقال له :

(١٩٩) ابن الاثير ج ٥ ص ١٠ – ابن الجوزي ص ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٦– ابن عبد الحكم ص ٣٤

كل ، قال : قد شبعت ، قال عمر : كل ، قال : قد شبعت ، ما في سعة ! فقال عمر : فكيف بالسرف في الطعام والتقحم في النار وهذا يجزىء عنه ؟ فصبر بعد ذلك مسلمة عن سرفه في الطعام [٢٠٠]

مشية الرهبانية

كان عمر في غابر زمانه يتطيب ويسرف في تطيبه فاذا ادّهن بما صنع من الطيب رُؤِي العنبر على لحيته كأنه الملح ، ولكنه ترك ذلك كله وجعل يسدّ أنفه اذا وجد رائحة الطيب حتى يذهب عنه . وحين ضيّق على نفسه في الطعام والفاكهة ودام على ضيقه اسودّ واحترق ولصق جلده بعظمه حتى لم يعد بين الجلد والعظم لحم . وأقدم عمر على الصفاء ورأى من يعجز عن قياد نفسه في الأكل غير مستطيع أن يقود غيره ، ورأى من تحكمه بطنه وتذله لا يستطيع أن يقنع أحداً بأنه قويّ الارادة . ولم يصف صوت العود الا حينما خلا جوفه فترنم ، وانما تنسج الأضراس ضخامة البدن وبلادة العقل وموت الشعور .

وأقدم عمر على الصفاء فصفا ولكنه ظن أنه لم يفعل شيئاً ، فان الطعام والشراب والمسكن أمور مباحة ، وكان التورع عن المباحات عريقاً في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان في عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وفي عمار وأبي ذر وسلمان الفارسي وابن الجراح وغيرهم [٢٠١] ، ولكن عمر بن عبد العزيز نفّره من المباحات علمه وتفكّره وتعلقه بالآخرة فعدها اسرافا والاسراف

---

(٢٠٠) ابن عبد الحكم ص ٤٩

(٢٠١) الموافقات ج ١ ص ٦٥

ذميم ، ولذلك كان من يسأله فيقول له كيف اصبحت ؟ يسمعه يجيبه : أصبحت بطيناً بطيئاً متلوثاً في الخطايا أتمنى على الله الأماني ! [٢٠٢]

واستطاع عمر أن يغير من نفسه كل مظاهرها وعاداتها سوى مشية التبختر العمرية التي كان يمشيها صبياً ووالياً بالمدينة، فقد صارت له دَيْدَنا ، وقد حاول حين استخلف أن يغيرها فلم يستطع ، فطلب من مزاحم مولاه أن يعاونه وينبّهه كلما مشاها الى أن يغيرها ، فجعل مزاحم يراقبه ويدلّه ، ثم يرجع فينسى ويخلطها ، ثم لا يستطيع فيرجع إليها ، وما زال بها حتى اوشك ان يغيرها قليلا [٢٠٣] فصارت كمشية الرهبان .

قال علي بن جذيمة : رأيته في المدينة وهو من أحسن الناس لباساً ، ومن أطيب الناس ريحاً ، ومن أخبل الناس في مشيته ، ثم رأيته بعد ذلك يمشي مشية الرهبان [٢٠٤]

عمر عمر

لقد وجمَ عمر منذ ولي الخلافة وأمسك عن المزاح وعاد يراه حديثاً خسيساً يورث الضغائن ، ولم يَرَ أخسّ منه ، وصام الاثنين والخميس والعشر وعرفة وعاشوراء ، ولم يدع المصحف الا نظر فيه كل يوم ولو قليلاً . إنه لم يكثر ولم يفرط في التعبّد ، ولكنه داوم وكان في صلاته أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد

---

(٢٠٢) ابن الجوزي ص ١٤٧ ، ١٥٠ ـ ابن عبد الحكم ص ٤٤ ، ٥٠

(٢٠٣) ابن عبد الحكم ص ٢١

(٢٠٤) ابن الجوزي ص ٣٢

حدث أبو قِلابَة قـــال : حدثني عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة رسول الله في ركوعه وسجوده انـه كان يصلي نحواً مما رأى عمر بن عبد العزيز يصلي [٢٠٥] .

وكان عمر ماضياً قدماً لا يتأخر ولا يلتوي ، آخذاً يتعالى في صفاته ويسمو ، ولا ينزل عن عادته في السموّ والتعالي ، وما كان يزداد عاماً بعد عام الا فضلا . ولكن الذكريات كانت تمرّ به فيضاهيء بين ماضيه وحاضره فيحنّ لنعماه التي مضت حنين المودّع الذي لا يرجو أن يعود .

كان يضاهيء بين عيشه في المدينة ومصر وعيشه الأول بالشام وبين عيشه اليوم فيقول: أين عيشنا اليوم من عيشنا إذ كنا بمصر! لقد رأيتني وكنا لو ضافني أهل قرية لوجدتُ مـا يعمّهم ! وأين عيشنا هذا من عيشنا بالمدينة ! [٢٠٦]

ومرّ يوماً بزوجته فاطمة فضرب على كتفها وقال : يا فاطمة لنحن ليالي دابق أنعم منا اليوم ! فقالت له : والله ما كنتَ على ذلك أقدر منك اليوم ! فأدبر عنها وله حينئذ حنين ، وهو يقول: يا فاطمة ، إني أخاف النار ! يا فاطمة إني أخـاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم [٢٠٧]

---

(٢٠٥) تاريخ داريا ص ٨٣

(٢٠٦) ابن الجوزي ص ١٥١

(٢٠٧) ابن عبد الحكم ص ٤٧

# طريق العدالة

٤

•

المسئول الأول

الناس يتساءلون : من ذا الذي يحقق لهم العدالة ؟ أهو الراعي أم هي الرعية أم هما معاً ؟ أما عبدالملك بن مروان فكان يرى أن تبدأ الرعية بالطاعة العمياء والانقياد الذليل ، وطلبت الرعية في عهده العدل فظنها عبدالملك لا تستحقه ، ثم كان يقول : أنصفونا يامعشر الرعية ! تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر ؟ نسأل الله ان يعين كلاً على كل [٢٠٨]

كان هذا رأي عبدالملك . أما عمر بن عبدالعزيز فرأى ان يبدأ الحكام ثم تفعل الرعية ، واذا كان على الحكام ان يبدأوا وعلى الرعية ان تفعل من بعدهم فلأن العدالة في حصانة الناس

---

(٢٠٨) ثمار القلوب ص ٦٦

جميعاً . واذا كان الحاكم عليه إثم المظالم فان الرعية تحمل معه إثمه اذا لم تراقبه وتقف له بالمرصاد . واذا لم تفعل الرعية ولم تحاسب الولاة أخطأت الرأي وأصيبت بالحرمان . بل رأى عمر ان الرعية التي لا تراقب الحاكم ولا تحاسبه مستحقة للعقوبة اذا لم تنكر المعصية وترفض الظلم .

قال عمر : ان الله لا يؤاخذ العامة بعمل الخاصة ، فاذا ظهرت المعاصي فلم تنكَر استحقوا العقوبة [٢٠٩] ، وقد خطب يفطّن الرعية الى حقوقها فقال : أيها الناس ، لا يبعدنّ عليكم ولا يطولنّ يوم القيامة ، فان من وافته منيته فقد قامت قيامته ، لا يستطيع أن يزيد من حسن ولا يعتِبَ من سيء . ألا لا سلامة لأمرىء في خلاف السنة . ولا طاعة لمخلوق في معصية الله . ألا وانكم تسمون الهارب من ظلم امامه العاصيَ ، ألا وان أولاهما بالمعصية — الامام الظالم ! [٢١٠]

عبد الملك ابنه

وكان حب العدالة والانصاف ركيزة في نفس عمر وميلاً في دمه ورثه من جده ابن الخطاب ، ولكن عوامل اخرى تظاهرت عليه وأحاطت به فقهرته على أن يفعل للعدالة ما لم يفعل لها من قبل . وكان أقوى هذه العوامل التي نشأت حوله ابنه عبد الملك .

وظهر ابنه عبد الملك هذا في هبوب العاصفة فبعث فيها عنفاً

---

(٢٠٩) الخراج لابي يوسف ص ١١

(٢١٠) ابن الجوزي ص ٢٠٤

وقوة ، وكان عبد الملك اعجوبة تاريخ ونادرة فلك . كان ناشئاً لم يجاوز العشرين من عمره ولم يلحق بها ، ولكنه نشأ منـــذ صغره قوي الأيمان كأنه حواريّ لنبي أو أنصـــاريّ لرسول ، فجعل الفتى الزاهد يقتحم على أبيه مجلسه وناديه ومخدع نومه وقيلولته يحثه ويعظه ويوقظه وينبّهه ألا يؤخر مظلمة للناس مخافة أن يُحَمّ الأجل فتسوء المغبة وتلتهب على جسد أبيه النار .

وكان كلما ترفق عمر عُنف عبد الملك ، وكلما دخـل عمر في الأمور على هِينة اقتحمها عبدالملك قوياً مستعجلاً ، وما زال الصبي بأبيه يَزَعه ويدعوه حتى بدا عبد الملك كأنه هو الذي ادخل أباه في العبادة [٢١١] ، وقد شاهد اهل الشام بأعينهم حاليْ عمر قبل الخلافة وبعدها ، فقال بعضهم : كنا نرى أن عمر انما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك [٢١٢] .

فحين انصرف عمر من دفن سليمان وردّ القطائع الى بيت المال وسهر في بيع المتاع والبراذين والسرادقات والشوار وتسريـــح الجواري ، وطلع النهار وعمل حتى الظهر وصلى ذهب يتبوأ مقيلا ، فأتاه عبد الملك ابنه فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أي بني ، أريد أن أقيل ، قال : تَقيل ، ولا ترد المظالم ؟ قال : أي بني ، إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان ، فاذا قِلتُ قمت فرددت المظالم . قال عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، من لك ان تعيش حتى تقوم فتردها ؟ فقال عمر : أي بني ، ادن

---

(٢١١) ابن الجوزي ص ٢٠٨

(٢١٢) صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٢ ــ النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤٣

مني . فدنا منه ابنه فالتزمه وقبّل ما بين عينيه وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني. ثم خرج ولم يَقِل ولم يستوح ، وأمر مناديه فنادى ألا من كانت له مظلمة فيرفعها ! فجاء رجل ذمّي من أهل حمص قد ابيضت لحيته ورأسه فقال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتاب الله ، إن العباس بن الوليد اغتصبني أرضي — والعباس حاضر — فقال عمر : يا عباس ما تقول ؟

قال عباس : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد ، وكتب لي بها سجلًا ، فقال عمر : ما تقول أيها الذّمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله عز وجل ! فقال عمر : كتاب الله أحق أن يتبّع ! قم يا عباس فاردد عليه ضيعته . فردها العباس [٢١٣] .

ورأى عبد الملك أباه عمر متردداً يوماً أو كالمتردد فقال له : ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك ! فقال عمر : يا بني ، اني اروض الدنيا رياضة الصعب . اني أريد أن أحيي الامور من العدل فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعا من طمع الدنيا فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه [٢١٤]

ودخل عبدالملك على أبيه يوما وكان عنده عمه مسلمة فطلب الى أبيه أن يخليه به ، فقال له : أسرٌّ دون عمك ؟ قال : نعم ، فقام مسلمة وجلس هو بين يدي أبيه فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما أنت قائل لربك غداً اذا سألك فقال : رأيتَ بدعة لم تمتها أو سنة لم تحيها ؟ فقال عمر : يا بني ، أشيء حملك أم رأي رأيته ؟ قال :

---

(٢١٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٥

(٢١٤) ابن الجوزي ص ٧١

لا والله، ولكن رأي رأيته من قبل نفسي، عرفتُ أنك مسئول فما أنت قائل؟ قال أبوه: يرحمك الله يا بني ويجزيك من ولد خيرا، فوالله اني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير. يا بني، ان قومك شدّوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقاً تكثر فيه الدماء. والله لزوال الدنيا أهون عليّ من أن يهراق في سببي محجمة من دم! أو ما ترضى ألا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا الا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين؟ [٢١٥]

ولم يَدَع عبد الملك نصحاء أبيه دون أن يعرف ما يدخلون به عليه من النصح، فلما بلغه ذات مرة أن أباه عرض على مزاحم ما يفعله ببعض المال، وكان ذلك العرض على رؤوس الناس فقال مزاحم: ولَدُك يا أمير المؤمنين أحقّ به! وقال عمر: أدَعُهم لله يا مزاحم! — لما بلغه ذلك أسرع الى مزاحم فلقيه فقال له: بئس وزير الخليفة أنت يا مزاحم! ثم انطلق فاستأذن على أبيه ولم يزل به حتى دفع ذلك المال الى بيت المال، وحذره من وزراء السوء [٢١٦]

ولم يزل عبد الملك بأبيه حتى صار لا يبرم أمراً في المظالم دون رأيه. قال ميمون بن مهران: بعث اليّ عمر بن عبد العزيز والى

---

(٢١٥) صفة الصفوة ج٢ ص ٧٢

(٢١٦) ابن الجوزي ص١٠٨

مكحول والى ابي قِلابة [٢١٧] فقال : ما ترون في هـذه الأموال التي أخذت من الناس ظلماً ؟ فقال مكحول يومئذ قولاً ضعيفـاً كرهه عمر : قال : أرى أن تستأنف . فنظر عمر اليّ كالمستغيث بي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ابعث الى عبد الملك فأحضره فأنه ليس بدون من رأيت - وكان عبد الملك قـد تفقه ودرس حتى صار في الصف الأول من فقهاء الشام ثم زهـد - قال ميمون : فقال عمر : يا حارث ، ادْعُ لي عبد الملك ، فلمـا دخل عليه قال له : يا عبد الملك ، ما ترى في هذه الأموال التي أخـــذت من الناس ظلما وقد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها ؟ قـال : أرى أن تردها فان لم تفعل كنتَ شريكاً لمن أخذها [٢١٨]

ومن أعجب أمور عبد الملك أنـه كان أملك لنفسه وهو صبي من أبيه وهو خليفة قد دخل في السنّ والكهولة . قالوا : غضب عمر يوما فاشتد غضبه ، فلما سكن قال له ابنه : يا أمير المؤمنين ، في قدر نعمة الله عندك وموضعك الذي وضعـــك الله به ، وما ولاك من أمر عباده - أن يبلغ بك الغضب ما أرى ! قال عمر : كيف قلت ؟ فأعاد عبد الملك كلامه ، فقال له عمر : أما تغضب أنت يا عبد الملك؟قال: ما يغني عني جوفي ان لم أردّ الغضب فيه حتى لا يظهر منه شيء ؟

هذا الولد الخيّر البار ما زال يذيب بدنه الزهد ويضنيه حتى ذبل وذوَى ، ثم مرض مرضة الموت ، ولم يبلغ التاسعـة عشرة

---

(٢١٧) مكحول : فقيه الشام تابعي دمشقي، وأبو قلابة (ككتابة) تابعي.
(٢١٨) ابن الجوزي ص ١٠٥

من عمره ففرح لأنه يوشك ان يقضي ! ودخل عليه أبوه يعوده ـ وكان يحبه حباً جماً ـ فقال له : كيف تجـــدك يا بني ؟ فكتم عبدالملك ما به مخافة أن يحزن أبوه فقال : أجدني صالحاً . ولكن الأمر لم يغب عن عمر وكان يعلم استبشار ابنه بالموت فقال له : اصدقني عن نفسك يابني ، فان أحب الأمور اليّ فيـــك لموضع القضاء ، فقال عبدالملك : أجدني في الموت فاحتسبني ! فثواب الله خير لك مني ! فحطم الولد قلب ابيه ثم مضى عمر وهـو يقول : يابني ، والله لأن تكون في ميزاني أحبّ اليّ من أن أكون في ميزانك ! وذهب يصلي ، فأقبل عليه مزاحم يخبره بموت عبدالملك فخر عمر مغشياً عليه .

كان لعمر أولاد كثر ، كان له من البنين عبدالملك وعبدالعزيز وعبدالله وابراهيم واسحق ويعقوب وبكر وموسى والوليـــد وعاصم ويزيد وزيان ، وكان له من البنات أمينة وأم عمـار وأم عبدالله ، ولكن عبدالملك كان أزهدهم نفساً ، وأجرأهم على أبيه وكان عينهم ٢١٩ ، فلما مات وجهزه أبوه ودفنه وسوّى عليه قبره وقف بينه وبين القبلة وأحاط به الناس فقال : يرحمك الله يابنيّ ! فلقد كنت باراً مولوداً وبارّاً ناشئاً ، وما أحبّ أني دعوتـك فأجبتني ، ولا والله ما كنت قطّ مسروراً بك ولا أرجى لحظّي من الله فيك منذ وضعتك في الموضع الذي صيّرك الله اليه ، فغفر الله لك ذنبك ، وجازاك بأحسن عملك ، وتجـاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع شفع لك بخير من حر أو عبد من شاهـــد

(٢١٩) الخراج لأبي يوسف ص ١٧ ـ صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٢

وغائب ذكر وأنثى دعا لك برحمة ! رضينا بقضاء الله وسلمنا بأمره ، والحمد لله رب العالمين .

ثم انصرف عمر عن القبر والناس يترحمون على عبدالملك ، وما زالوا يترحمون عليه الى الابد حتى يدخلوا في دعاء عمر . ولما دخل بيته وفد عليه الناس يعزونه فيه فتجلد لهم عمر وجعل يقول : ان الذي نزل بعبدالملك لم نزل نعرفه ، فلما وقع لم ننكره ! [٢٢٠]

عزيمة صادقة

ولم يمت عبد الملك بن عمر حتى احتدم أتون أبيه بالبغض للمظالم فلم تَعُد لقوة أن تطفئه أو تخمد ناره ، وزحفت قوى الرجل كما تزحف قوى الجيش اللّهام تأكل ما أمامها ولا تشبع ، فعدّها المسلمون كأيام أبي بكر حين حارب أهل الردة فقال الناس : أفضل الخلفاء أبو بكر يوم الردة وعمر بن عبد العزيز في رد مظالم بني أمية [٢٢١] . وكان أول من اوقد غضب عمر مزاحم بن ابي مزاحم مولاه وآخر من أشعله عبد الملك ابنه ، ولم يَصِر لعمر ان يَكُفّ حتى بات يوصي حرّاسه بأن يَزَعوه لو مال ويبصّروه لو اخطأ ، وكان مما قاله لعمر بن مهاجر رئيس حراسه : اذا رأيتني ملتُ عن الحق فضع يَدَك في تلبابي ثم هُزني ثم قل: ياعمر ما تصنع ؟ [٢٢٢] . ومضى عمر على الحق ، ولو رآه عمر بن مهاجر

---

(٢٢٠) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨١ — لعقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٨ — ابن عبدالحكم ص ١١٦ — صفة الصفوة ج ٢ ص ٧٣

(٢٢١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٧٥

(٢٢٢) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٩

قد مال لما تركه دون ان يأخذ بتلابيبه !

### الذوق والكسب

والعلم والفقه ، والذوق الأدبي والفنائي — كل اولئك أربى في عمر احساسه وأرهفه — ففزع للمظالم التي اصابت الناس ، ولم يكن لرجل بلغ درجة الاجتهاد أن يقف من المظالم موقف من لا يعلمها ولا يتأثر بها. ولئن وقف بعض الفقهاء يُفتون ضد المظالم فحسب لأنهم لا يملكون لها ردّا ، فان عمر حين جمع في برديه نفس الفقيه ونفس الحاكم المسؤول كان لابدّ له أن يردّ. ثم لم يكن لرجل رقّ ذوقه ونبغ فنه حتى صنع الألحان ليطابق بها مافي نفسه من معان سامية . ما كان له ألا يحسّ المظالم من حوله ! ولكن عمر — مع ذلك كله — ظل طويلا لا يدري غير الفقه الأصغر الذي يعرف الناس به المسائل والقضايا والأحكام ، ثم يتصدرون بمعرفتهم لفتيا الناس فيما يلتبس عليهم ، وليس لهذا الفقه من قيمة حتى لو سبق به صاحبه آراء الفقهاء والعلماء ما لم يخفق القلب به خفقان الشاعر أو القديس وتعمل النفس له عمل الأنصار والحواريين !

### أصحاب عمر

وصحبة الناس حظ وقدر وتنقية واختيار . وقد رزق الله عمر رجالا أعانوه على النهج وطبّعوه حتى تطبّع . وجدهم أبدا حوله وفي طريقه ، ووجدهم في المدينة وفي مصر والشام . وجدهم في الطفولة والشباب والصبا والكهولة ، واستجابت نفسه لهم واستجابوا له فتبادلوا تجارة المعروف ، وكانت أقرب حلقة أحاطت به حلقة

مزاحم مولاه وسهل أخيه وعبد الملك ابنه ، وظلت هذه الحلقة تضيق عليه حتى بدت كأنها انفرجت بموت هؤلاء جميعاً ، ولكنه ظلّ طول حياته حبيساً فيها كأنهم أحياء .

وقد إشترط عمر للصحبة شروطا هنّ سبيل الخير كله : قال عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي : قال عمر لجلسائه : من صحبني منكم فليصحبني بخمس خصال : يدلني من العدل الى ما لا اهتدي اليه . ويكون لي على الخير عونا . ويبلغني حاجة من لا يستطيع ابلاغها . ولا يغتاب عندي احدا . ويؤدي الأمانة التي حملها بيني وبين الناس . فاذا كان ذلك فحيّهلا ! والا فقد خرج من صحبتي والدخول عليّ . [٢٢٣]

وما كاد عمر يقول ذلك ويسهر على تنفيذه حتى ربحت سوقه ونفقت تجارته ، فراجت بالاعفاء والنصحاء ، وكان كما قال له ميمون بن مهران : انك سوق وانما يحمل لكل سوق ما ينفق فيها [٢٢٤] .

وقد أحسن عمر في استشارة النصحاء ففي استشارتهم حصافة وهداية ، فان المرء مهما كان حصيفاً متمكناً فانه اذا انفرد لذاته وتعقّب غاية منافعه ضل وافتضح أو قصر فأخطأ ، وذلك لأن محبة الانسان ذاته وتخوفه عليها من خطأ ينسب اليها يعرض له الدهشة والحيرة وذلك اذا لم يمل مع الهوى ، فالرجل المميز الفاضل لا يأمن أن يكون رأيه لنفسه من قبيل الهوى دون العقل فيضطرب

---

(٢٢٣) ابن الجوزي ص ٦٠

(٢٢٤) ابن الجوزي ص ٧١ ـ رياض النفوس ج ١ ص ٩٩

فكره ولا يصح رأيه لنفسه، وأما اذا كان رأيه لغيره فهو سليم من الحالين معاً فلذلك يأتي بالرأي الصحيح السليم [٢٢٥] .

ومن أبرز الرجال الذين صاحبهم عمر بالمدينة عبيدالله بن عتبة، وكان ابن عتبة كثيراً ما ينشده قول القائل :

أبِنْ لي فكن مثلي أو ابتغ صاحبا  كمثلك اني مبتغ صاحبا مثلي
عزيز اخائي لا ينـــال مودتي  من القوم إلاّ مسلمٌ كامل العقل
وما يلبث الاخوان ان يتفرقوا  اذا لم يؤلف روح شكل الى شكل

وكان ابن عتبة قد مات ولكن بقي منه في نفسه حبٌ كثير فكان يقول : لأن يكون لي مجلس من عبيـد الله أحب إلي من الدنيا وما فيها ، ويقول : والله اني لأشتري ليلة من ليالي عبيدالله بالف دينار من بيت المال ! فقالوا : يا امير المؤمنين ، تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك ؟ فقال: اين يذهب بكم ! والله اني لأعود برأيه وبنصيحته وبهـــدايته على بيت مـــال المسلمين بألوف وألوف ! [٢٢٦]

ومن اصحابه محمد بن كعب القرظي المدني الكوفي الورع ، كان رقيق الحسّ كبير القدر ثقة موصوفاً بالعلم والصلاح [٢٢٧] ، وكان من أصحابه بالمدينة ثم حدث بينهما الجفاء ، فلما كان عمر خليفة وزهد ساوره الندم على ما فعله بابن كعب يوم قال له : يابن كعب، لا تكن كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه ، ولم يلبث عمر حين

---

(٢٢٥) انظر الهوامل والشوامل ص ١٤٤
(٢٢٦) عيون الاخبار ج ٣ ص ٧ – وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٠٠
(٢٢٧) شذرات الذهب ج ١ ص ١٣٦

ندم أن ارسل اليه يحمله الى الشام فأخبر انه خرج للغزو ، فكتب الى عامله على الدروب ان يجهزه ويسرحه . فلما سُرح القرظيّ توجه الى عمر فجاءه على كره من بني أُمية ، لانهم كانوا قد كرهوا أن يدخل الشام عليهم أهلُ البلاغة والحجة من اهل الحجاز لئلا يفسدوا عليهم أهل الشام .

ودخل القرظي على عمر فرآه على هيئة لم يكن عهده عليها فقال له عمر : يا بن كعب ، استغفر لي من سوء مردودي عليك حين وعظتني بالمدينة ، فقال القرظي : غفر الله لك ياامير المؤمنين وأقالك عثرتك ! ثم جعل يكثر اللحظ الى عمر ويقلب فيه بصره فقال عمر : فيم تنظر الي يا بن كعب ؟ قال : انظر واتعجب فأقول : أين ذاك اللون النضير والشعرة الحسنة والبدن الريان ؟ فقال عمر : لو رأيتني بعد ثلاث من دفني كنت أشد نكرة لي منك اليوم !

وقد قعد القرظي لعمر مقعد المؤدب المترصد فكان له معه تاريخ واخبار . وقد لحظ القرظي التفاوت في طباع عمر وصفاته وأدرك نزعات نفسه ؛ فجعل يمسك بميزانه ويرجح فيه الخير على المنفعة ويغلّب فيه الحق على الزيف حتى استقاد له واستقام في يده .

كان القرظي يقول لعمر : إن فيك عقلًا وان فيك جهلًا ، فداوِ بعض ما فيك ببعض . وآخ من الاخوان من كان ذا معلاة في الدين ونية في الحق . ولا تؤاخ منهم من تكون منزلتك عنده على قدر حاجته اليك ، فاذا قضى حاجته منك ذهب ما بينك وبينه . واذا غرست غراساً من المعروف فلا تبغين ان

تحسُنَ تربيته ! [٢٢٨]

وقدم على عمر في دمشق – عندما قدم القرظيّ – وفودُ البلدان للتهنئة بالخلافة ، وكان اول وفد دخل وفد اهل الحجاز ، وكان الحجاز اكثر بلد سروراً بتوليته ، فاشرأب من الوفد غلام يريد الكلام ، فنظر اليه عمر فاستصغره فقال له : ليتكلم من هو اسنّ منك ! فقال الغلام : يا امير المؤمنين ، انما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ،فاذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقدأجاد له الاختيار واستحق الكلام! ولو ان الأمور بالسنّ لكان ها هنا من هو أحق بمجلسك منك ! فقال عمر : صدقت ! تكلم ايها الغلام فهذا السحر الحلال ! فقال الغلام :يا أمير المؤمنين ،نحن وفد التهنئة لا وفد المزرئة [٢٢٩] ، ولم تقدمنا اليك رغبة ولا رهبة ، لأنا قد أمنّا في أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا ! ثم قعد الغلام على دهشة من الخليفة الذي سأل عن سنّ الغلام فقيل له : عشرسنين.

واهتز عمر لقول الغلام وأخذه الطرب ، وكادت تميل به زهوة ، ورأى القرظيّ ما مال بعمر وهزه ونظر في وجهه قد تهلل وأضاء لمّا أثنى عليه الغلام ، فهمّ القرظيّ يكسر الزهوة ويُسكّن الطرب فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يغلبنّ جهلُ القوم بك معرفتَك نفسك ، فان قوماً خدعهم الثناء وغرهم الشكر فزلت اقدامهم فهوَوْا في النار . أعاذك الله أن تكون منهم ، وألحقك بسالف هذه الامة ! فتغيّر لون عمر وانكسرت زهوته

---

(٢٢٨) عيون الاخبار ج ٣ ص ٤

(٢٢٩) المزرئة : طلب العطاء

ودمعت عيناه ، ونظر الى القرظيّ فاذا المهابة تجلله والحق يعلوه فقال : اللهم لا تخلنا من واعظ ! [٢٣٠]

وفطن الخطباء بعدُ لما يجب أن يقال لعمر ، فوفد عليه عبدالله ابن الأهتم وخطب بين يديه فقال: انك ياعمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها والقمتك ثديها ، فلما وليتَها ألغيتَها ، وأحببت لقاء الله وما عنده . فالحمد لله الذي جلا بك حوبتنا و كشف بك كربتنا. امضِ ولا تلتفت ، فانه لا يغني عن الحق شيء ! [٢٣١]

واتعظ عمر بابن خاله سالم بن عبدالله بن عمر ورجاء بن حيْوة سيّد أهل الشام في أنفسهم . ويقولون ان رجاء واحدٌ من ثلاثة لم يرَ الناس مثلهم ، و كأنهم التقـــوا فتواصَوْا : ابن سيرين بالعراق والقاسم بن محمد بالحجاز ورجاء بن حيـوة بالشام [٢٣٢] . وكان من أصحابه الزهاد البلغاء زياد بن ابي زياد ، قال له عمـــر يوماً : يا زياد ، اني اخاف الله مما دخلتُ فيه ! فقال زياد : لست أخاف عليك من أن تخاف ، وانما أخاف عليك ألا تخاف ! وكان منهم الحسن البصري وله اليه اخلص المواعظ وأبلغها [٢٣٣] .

وكان هؤلاء الرجال وأمثالهم قد بحت اصواتهم في وعـظ الخلفاء والعمال فلم يسمعوا ولم يعوا . كانوا يفزعـون للدماء تراق وللمال ينهب وللأرض تنتزع ، وكانوا كلهم من الفقهاء البلغـاء ،

---

(٢٣٠) زهر الآداب ج ١ ص ٤٠ ط ٢

(٢٣١) العقد الفريد ج ٤ ص ٩٩

(٢٣٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧١

(٢٣٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٦٦ ، ٧١

زهّدوه في الدنيا ، وخوفوه المال والدم . وقد جرأه سالم ابن خاله على عزل الظلمة من الولاة . وكتب اليه عمر يسأله ان يكتب اليه بسيرة عمر بن الخطاب فكتب اليه سالم يقول : ثم انك كتبتَ اليَّ تسأل ان ابعث اليك بكتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضائه بين المسلمين واهل الذمة ، وان عمر – رحمه الله – عمل في زمان غير زمانك ، وانا ارجو ان عملت بمثل ما عمل به ان تكون عندالله افضل منزلة ! [٢٣٤]

●

ولم يجعل عمر يكتفي بصحبه الأقربين ، ولكنه جعل يرسل الى البعداء عن المكان والقربى يسألهم في امره او بعضه ، لعله يجد عند احدهم ما لم يجد عند صحبه الأقربين ، او لعل احداً من المقربين عنده اخفى عنه الحقّ الذي لا يهاب اظهاره البعيد . وكان عمر يعرف فساد الزمان وان العلماء قد خافوا فلم ينطقوا ، وان الجهلاء اقاموا على جهلهم فلم يسألوا . وقد كتب عمر الى رجل من بقية اهل الشام يذكر له ما ابتلي به ويشكو اليه قلة الاعوان على الخير ويسأله معونته برأيه فكتب اليه الرجل : بلغني كتاب امير المؤمنين ، يذكر فيه ما ابتلي به من امور المسلمين وقلة الاعوان على الخير ويطلب مني المعاونة . واعلمْ انك انما اصبحتَ في خَلَق بالٍ ورسم دارس . خاف العالم فلم ينطق وجهل الجاهل فلم يسأل . وتسألني المعاونة فيما انعم الله علي ؟ فلا تكوننّ ظهيراً

---

(٢٣٤) ابن الجوزي ص ١٣١

للمجرمين !٢٣٥

وقد ادرك مسلمة بن عبد الملك ان الله ينصر بمثل هؤلاء الأصحاب وينزل بهم الغيث متى اشاروا ، ولن يهلك ملك او رئيس واصحابه مثل هؤلاء ! ولقد تأثر عمر بهم منذ صغره فاتخذ من نفسه - حين قدر - نصيحاً للناس، وخص الخلفاء قبله بكثير من مواعظه ووصاياه ، وطالما حضهم على ترك المظالم ، وكانوا اذا اصابتهم شدة فزعوا اليه .

وقرّب عمر العلماء اليه وابعد غيرهم من الناس ، وكان الناس من غير العلماء يجتمعون على الخلفاء قبله ، فلما جاء عمر تفرق هؤلاء وابعدهم عمر عنه ، حتى انهم كلموه في رجل كان يصاحبه ثم جافاه فلم يعد يقربه فقال عمر : تركناه كما تركنا الخزّ والوشي !٢٣٦ . وحسناً فعل عمر فان بلية الملوك والناس تأتي من اصحابهم على الدنيا وعلى مظالم الناس .

وحفلت سوق عمر بالمواعظ فأصبحت لا تحصى مواعظ العلماء والفقهاء والزهاد له نثاراً وشعراء :

قال له الحسن البصريّ : واعلم يا امير المؤمنين ان التفكر يدعو الى الخير والعمل به ، وان الندم على الشرّ يدعو الى تركه .

وقال محمد بن كعب القرظي : اتق الله يا امير المؤمنين ، وافتح الأبواب وسَهِّل الحجاب وردّ الظالم وانصر المظلوم .

وقال سالم بن عبدالله : وإنه كان قبلك رجال عملوا ما عملوا ،

---

(٢٣٥) الخراج لابي يوسف ص ١١٤

(٢٣٦) ابن الجوزي ص ٧٤

واماتوا ما اماتوا من الحق ، واحيَوْا ما احيوا من الباطل حتى ولد فيه رجال ونشأوا فيه وظنوا انه السنة ، ولم يسدّوا على العباد باب رخاء إلا فتح الله عليهم باب بلاء ، فان استطعت ان تفتح عليهم ابواب الرخاء فانك لا تفتح منها باباً إلا سُدّ عليك باب بلاء ! ٢٣٧

وقال عمر لزياد بن ابي زياد : يا زياد ، الا ترى ما ابتليت به؟ فقال : يا امير المؤمنين ، لا تُعْمل نفسك في الوصف ، وأعْملها في المخرج مما وقعتَ فيه !

وقال زياد : يا امير المؤمنين ، اخبرني عن رجل له خصم الدّ؟ ما حاله ؟ فقال عمر : سيء الحال ! قال زياد : فان كانا خصمين ألدّين ؟ فقال عمر : ذاك اسوأ لحاله ! قال زياد : فان كانوا ثلاثة ؟ فقال عمر : ذاك حين لا يهنيه عيش ! فقال زياد : فوالله يا امير المؤمنين ما احدٌ من امة محمد إلاّ وهو خصمٌ لك ! فبكى عمر حتى تمنى زياد الا يكون قد قال له ما قال ٢٣٨.

الفقه الاكبر

وفي الحق ان عمر كان عنده من الفقه والبلاغة والموعظة اكثر من هؤلاء او مثلهم ، ولكنه لم يكن قد انتفع به كما انتفع بالقناعة وكف الأذى ، ولما علمها نسي الفقه الذي كان يعلم وتعلّم الفقه الأكبر. وقد حدث عنه ميمون بن مهران انه قال : خرجت

---

(٢٣٧) ابن الجوزي ص ١٣٠

( ٢٣٨ ) ابن الجوزي ص ١٣٩

من المدينة وما أحد اعلم مني ، فلما قدمت الشام نسيت [٢٣٩] . وقد نسي لأنه رأى اثر القناعة في نفسه ورأى كيف فعل كف الأذى فجعلها فقهه الجديد ، ولما علمه وايقن من نفعه صار يعلمه للناس . دخل عليه غلام يقال له حريث بن عثمان مع ابيه ، فسأل عمر ابا الغلام قائلًا له : ماذا تعلمه ؟ قال : الفقه ، فقال عمر : علمه الفقه الأكبر ، قال : وما الفقه الأكبر يا امير المؤمنين ؟ قال : القناعة وكف الأذى [٢٤٠]

شروط العامل

ولم يأت عمر الخلافة غافلًا قد جهل الأمور ، ولكنه اتاها على قدر ومعرفة ، قد خبرها عن قرب وعرف كل احوالها ، وأعدّ لكل داء دواء ، ولم يَدَع الأمور تجري على سجيتها . وقد رأى منذ بدأ يحكم ان يستعين صلحاء العمال ويستمع لمشورة الناس فيهم . وكان لا يولي الرجل حتى يختبره ظاهراً وباطناً ، فاذا اطمأن له بعد الاختبار ولاه عاملًا او على الخراج والصدقات او قاضياً او قاصاً او صاحب بريد او حرسياً او معلماً او قائداً او سياقاً او على الخاتم او كاتباً . وكل اولئك وغيرهم اختارهم عمر من اولي القوة في العدالة والرفق بالرعية — وهما امران لا يتعارضان — وقد ضمن باختبار الرجال واختيارهم ان يضع الرجل في العمل الذي يصلح له وينتفع الناس به .

وقد وجّه عمر حين استخلف اول إنذار للعمال والولاة في

---

( ٢٣٩ ) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٣

( ٢٤٠ ) ابن الجوزي ص ٢٣٩

تاريخ المسلمين بقوله : ايها الناس ، والله ما سألت الله هذا الأمر قط في سر ولا علانية ، فمن كان كارهاً لشيء مما وليته فالآن ! ودهش الناس لما قال فانذر ، وقال رجل من القوم : سبحان الله ، وليها ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يقولوا هذا وقاله عمر ! [٢٤١]

اما قبل عمر بن عبدالعزيز فكان الحكام يُختارون ممن يقدرون على إيقاع المظالم ، حتى اصيب العالم الاسلامي بنكسة خلقية ظل يتقلب فيها زمانا ، ثم اصبح العلم والمعرفة — وليس غيرهما — سبباً لوصول الرجل إلى المنصب الرفيع نتيجة تلك النكسة ، وذلك في افضل الاحوال — ولكن عمر رأى ان لابد من شرط آخر يضاف إلى العلم والمعرفة وهو ان يكون العامل قدوة صالحة في نفسه ، او مستعداً لأن يكون قدوة ومثلاً صالحاً .

### القضاة والعمال

ورأى انه ينبغي ان يجتمع للقاضي خمس خصال : يكون عالماً بما مضت عليه السنة ، حليماً ، ذا اناة عفيفاً مشاوراً . فأذا اجتمع ذلك في القاضي كان قاضياً ، وان نقص منهن شيء كان وصماً فيه [٢٤٢] . وقد اختار القضاة من هؤلاء فصارت طبقة القضاة في زمانه مضرب المثل في الرأي والورع . اتقنوا معرفة العدالة وحَمُوا عليها وسهروا ولم يكن عمر يولي قاضياً في اقصى الارض الا كما يولي في ادناها اليه ، بل كان يتورع في اختيار القاضي البعيد ، ولا يولي احداً من غير تجريب .

---

( ٢٤١ ) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٣

( ٢٤٢ ) ابن الجوزي ص ٢٣٨

قالوا لما افضت الخلافة الى سليمان وجّه رجلاً من ثقاته بقبض خراج افريقية، وامر واليها عبدالله بن موسى بن نصير ان يكون جمعُ المال بشهادة عشرة من اهل القيروان يصحبون المال حتى يصل اليه في دمشق ويشهدون عنده انه أُخذ من وجهه ، فلما وصلوا بالمال الى سليمان قال لهم : اوَخذ هذا المال من وجهه ؟ فقالوا : نعم يا امير المؤمنين . ثم جعل يسألهم فيجيبونه، وبينهم رجل لم يتكلم قط .

وحضر عمر ذلك المجلس ورأى ما حدث فلما انصرفوا سأل عمر عن الرجل الذي لم يتكلم قط فقالوا : انه عبد الله بن المغيرة، وذكروا له دينه وفضله وورعه ، وأخبروه انه إنما منعه من الكلام خوفه الا يتكلم إلا بحق . فحفظ عمر ذلك لابن المغيرة ، فلما افضت الخلافة اليه ولاه قضاء افريقية . وتقلده ابن المغيرة لورعه وثقته في نفسه ثم لعلمه ومعرفته. [٢٤٣] وكما رأى في ابن المغيرة فولاه، ولى السمح بن مالك الخولاني على الاندلس وقد كان راى منه امانة وديانة عند الوليد بن عبد الملك [٢٤٤]

### بلال بن ابي بردة

فاذا ساقت المصادفة علماً بأحد لم يزل يستخبر عنه حتى يثق فيه فيوليه ، فاذا لم يستكمل الثقة لم يوله . ولم يكن يقدم والياً او قاضياً على غيره تعصباً له، وإنما يُولي الأفضل ويُقدمه ولو كان من غير اهله او من غير اصحابه او من غير العرب .

---

( ٢٤٣ ) رياض النفوس ج ١ ص ٨٢

( ٢٤٤ ) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٦

وكان عمر غير خبّ [٢٤٥] . ولكنّ الخبّ لا يغلبه . وكثيراً ما خاف ان يدخله الغش من مظاهر الرجال ، فجعل يتثبّت ويدسّ على ذوي المظاهر من يأتيه بخاصة اخبارهم ليثق بهم او يزيّفهم . وقد كان عمر اول من زيف بلال بن ابي بردة وكشف خبيئه ، ثم طرده ولم يستعن به ولا بأحد من اهله في عمل له .

وبلال بن ابي بردة الكوفيّ كان رجلًا داهية لقناً اريباً ، وكان كريم المظهر بادي التدّين ، هذا كان مظهره ، اما ماوراءه فنفس ذات ملق وطمع وسرعة إلى الحمق والباطل . وَفدَ هذا الرجل على عمر ابن عبد العزيز بخناصرة فهنأه بالخلافة قائلًا : من كانت الخلافة يا امير المؤمنين شرّفته فأنت شرفتها ، ومن كانت زانته فقد زنتها ، وانت والله كما قال مالك بن اسماء :

وتزيدين طيّب الطِّيب طِيباً إن تمسّين ، أين مثلك أينـــا
وإذا الدّر زان حسن وجوه كان للدر حسنُ وجهك زينا

فشكر له عمر ثم خرج من عنده فلزم المسجد ولصق بسارية منه ، فجعل يصلي اليها ويديم الصلاة ، فقال عمر للعلاء بن المغيرة ابن البدار : إن يكن سرّ هذا كعلانيته فهو رجلُ أهل العراق غير مدافع . فقال العلاء : انا آتيك بخبره . فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال : اشفع صلاتك فان لي اليك حاجة ، ففعل ، فقال له العلاء : قد عرفتَ حالي عند أمير المؤمنين ! فان أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي ؟ قال بلال : لك عمالتي سنة ! — وكان مبلغها ألف ألف درهم — قال : فاكتب لي بذلك .

---

( ٢٤٥ ) الخب : الماكر المخادع .

فانقلب بلال مسرعاً إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة فكتب له بذلك ، فأتى العلاءُ بالكتاب إلى عمر ، فلما رآه كتب إلى واليه على الكوفة : « أما بعد ، فان بلالاً غرنا بالله فكدنا نغتر ، فسبكناه فوجدناه خبثاً كله . والسلام » [٢٤٦]

وقد أبى عمر أن تجوز عليه حيل الدجالين وطرق المحتالين ، فجعل كلما بلغته حيلة دجال وخرافة محتال يتقصى أحواله لئلا يصاب الناس بجهالته ، وقد حدث أنْ قدم إليه رجل من خراسان فقال له : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت في منامي قائلاً يقول : إذا ولي الأشج من بني أمية يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، فوليَ الوليد فسألت عنه فقيل لي : ليس بأشج ، ثم ولي سليمان فكان مثل الوليد ، ثم وليت أنت فكنته ! فقال عمر للرجل : تقرأ كتاب الله ؟ قال الرجل : نعم ، فقال عمر : فبالذي انعم به عليك أحقٌّ ما أخبرتني ؟ قال : نعم . فأمره عمر أن يقيم في دار الضيافة ، فأقام نحواً من شهرين ، ثم أرسل إليه عمر فقال : هل تدري لم احتبسناك ؟ قال : لا ، قال : أرسلتُ إلى بلدك لنسأل عنك ، فاذا ثناء صديقك وعدوّك عليك سواء . فانصرف راشداً .

وكما لم يجز الدجل عنده لم يجز الخلط والسفه ، وقد حدث أن كتب إليه أحد عماله يقول : إنا أتينا بساحرة فألقيناها في الماء فطفت عليه فما ترى فيها ؟ فكتب إليه عمر يقول : لسنا من الماء في شيء ! إن قامت عليها بينة وإلا خلِّ سبيلها ! [٢٤٧]

---

(٢٤٦) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٦٨

(٢٤٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٣ ، ٤٣٧

لقد وثق عمر أنه لا يستطيع وحده أن يسوس الأرض ، بل لم يكن يجهل أنه مهما تحرى العدالة فانه لا يستطيع الوصول في العدل إلى حدّ من النزاهة لا يستقر عنده خطأ ، فلم يقنع بما يرسمه لنفسه ولقضاته من مظاهر العدالة ومفاهيمها ، وراح يسأل عنها عارفيها وخبراءها ويلحّ على نفسه بالصورة بعد الصورة حتى يثبتها في نفسه واضحة بارزة ملمومة الأطراف غير غائبة ، وقد استوصف ابنَ كعب العدلَ فقال : يا بن كعب ، صف لي العدل . فقال ابن كعب ، سألتَ عن أمر حسن : كن لصغير المسلمين أباً ولكبيرهم ابناً وللمثل منهم أخاً ، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر أجسامهم . ولا تضربنّ لغضبك سوطاً واحداً فتتعدى فتكون عند الله من العادين [٢٤٨]

ولم تفترق عند عمر وأصحابه عدالة عن عدالة فالعدالة الحكمية التي هي من عمل القاضي والعدالة الاجتماعية التي هي من عمل الوالي أمران عندهم لا يفترقان ، وكلاهما إن تحقق يسند الآخر ويشدّ من بنيانه ، ولذلك عني بهما معاً وسأل عنهما جميعاً .

وليس واقع العدالة إلا الاحسان الى من يستحق وعقوبة من يستحق وتقدير العقوبة فلا يعاقب مذنب كمذنب ، ثم القصدَ فلا إسراف ولا تقصير ، والعربي والمولى سواء . وكما وصف القرظيّ وفعل عمر تكون العدالة ، أما صياغة العدل في نظريات فلم تكن صنعة فقيه كالقرظيّ ولا صنعة حاكم كعمر بن عبد العزيز !

---

(٢٤٨) ابن الجوزي ص ١١

ومن العدالة درء الحدود بالشبهات ، وهو حكم من مقدساتها لأنه رفق بالناس ان يصيبهم ظلم ونَصَب . وشفقةٌ بالجناة أن يصيبهم إسراف وعنَت . ودرء الحد بالشبهة خير ، حتى لو أخطأ القاضي به موضعَ العدالة . وقد كتب عمر في ذلك لعماله وقضاته فقال : ادرأوا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، في كل شبهة ، فان الوالي إذا أخطأ في العفو خيرٌ له من ان يتعدى في العقوبة ! وقد اقتدى في ذلك بجده عمر بن الخطاب .

### ما ليس من العدل

وليست العدالة ان يعطى المدّعون دائماً حقوقاً يدعونها ، فقد يدّعون بطلاً وزورا ، وعلى القاضي أن يتفهّم إذا أدْلي اليه لينجو ، ورب مقضيّ له بحق قضي له بقطعة من النار . وقد حكوا أن عمر رد الطامع حين عرف طمعه : قالوا : إنه قدمت بين يديه عنبرة عظيمة بعد موت سليمان ، وكان رجل قد انتظرها حين تعرض ، فلما قدّمت قام يدعيها فقال : عنبرتي يا أمير المؤمنين ! فقال عمر : ما شأنها ؟ قال : بعتها سليمان بن عبدالملك بسبعة آلاف درهم ، وهي خير من ثمانية عشر الفاً .

قال عمر : ويحك ! هل أخافوك ؟ قال : لا ، قال عمر : فهل أكرهوك أو غصبوك ؟ قال : لا ، قال عمر : فماذا ؟ قال : عنبرتي يا أمير المؤمنين ! فأمر عمر به أن يتأخر ، فلا حق له ! [٢٤٩]

### تنفيذ الاحكام

ولم يجد عمر نفعاً للعدالة إذا لم تجعل في يد قاضيها قوةٌ لا

---

(٢٤٩) ابن الجوزي ص ٨٠

تغلّب وقهرٌ لا يكسَر ، ولا بد أن يكون القضاء فوق كل شيء حتى الملك ، والقضاء أمر مقدس كأنه يَدُ الله ، ولم يَبْرم عمر حين جاءه مصري من حلوان يقول إن أباه عبدالعزيز اغتصب ضيعته في إبان ولايته على مصر ، وعنّف المصريّ على عمر فلان له وقال : نازعني منازعة كريمة ، ولا تشتم عرضي ، فان لي فيه شركاء ، إخوة وأخوات ، وهؤلاء لا يرضوْن ان أردّ لك الضيعة بغير القضاء ، والرأي ان تذهب الى القاضي .

واستمع القاضي للمتخاصمين فقضى للمصري فقال عمر : قد أنفقنا عليها الف الف درهم ! فنظر القاضي فاذا عمر وأهله قد أخذوا من غلتها بقدر ما أنفقوا ، فقال : قد أخذتم منها بقدر ما أنفقتم عليها فردوها لصاحبها ! فقال عمر : بارك الله عليك أيها القاضي ، وقام فردّ الأرض للمصري [٢٥٠]

ولا تتم العدالة الا بتنفيذ الأحكام وقبض الحقوق ، فاذا قضي لصاحب حق ولم يقبض حقه ظل الظلم واقعاً والحق ضائعاً ، وبين هذين يظل الحاكم الأول مسئولاً ملوماً . وقد فطن عمر لذلك كله فوقع بذات يده على رقعة رجل يتظلم من ابنه فكتب : إن لم أنصفك منه فأنا ظلمتك ! [٢٥١]

ولم ير عمر من بأس في أن تُنفَّذَ الأحكام في خفة وملاينة وإقناع بالخطأ دون أن يستأني لتلاك أوراق القضايا وتمضي عليها السنون ، ولم تعجب عبدَ الملك بن عمر — في أول الأمر — هذه

---

(٢٥٠) المرشد ج ٤ ص ١٢٩

(٢٥١) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٩

الطريقة فاستثار أباه ليمضي ولا يلتفت ، فقال له عمر : يا بني ، إن نفسي مطيتي إن لم أرفق بها لم تبلغني. اني لو أتعبت نفسي واعواني لم يك ذلك إلا قليلا حتى أسقط ويسقطوا... وان الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة واحدة لأنزله ، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى استكن الايمان في قلوبهم . فلو جمعتُ ذلك في يوم واحد خشيتُ انتشاره عليّ ، ولكني انصف الرجل والرجلين فيبلغ ذلك مَنْ وراءه فيكون أنجع له . فان يرد الله اتمام هذا الأمر أتمّه ، وإن تكن الأخرى . فحسبُ عبدٍ أن يعلم الله أنه يحب أن ينصف جميع رعيته ! [٢٥٢]

وانما رأى عمر أن يستعجل القاضي فيحكم متى علم بالمظلمة ووثق من وقوعها. وعِلْمُ القاضي وثقته يغنيان عن الدليل. اما المماحكة في أن ذلك يخالف الفقه فمناصرة للباطل باسم الفقه ومواد القانون ، وكذلك لم تعرض قضية على عمر وكان يعرف تفاصيلها من قبل ويثق بها الا حكم فيها من فوره كما حكم في قضايا ابناء الوليد لمن ظلموهم من أهل حمص [٢٥٣] . وقد قال أبو الزناد : كان عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم الى اهلها بغير البينة القاطعة ، وكان يكتفي باليسير ، اذا عرف وجه مظلمة الرجل ردّها عليه ، ولم يكلفه تحقيق البينة ، لما كان يعرف من غشمْ الولاة قبله على الناس .

ولم يكن عمر يُرْهِقُ الخَصْم ليُقر ، بل يدعه دون ان يؤذيه حتى يقر أو ينكر فيحلف . وقد كتب اليه عدي بن أرطاة

---

(٢٥٢) ابن الجوزي ص ١٠٦

(٢٥٣) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٩

يوماً يستأذنه أن يمسّ الناس بشيء من العذاب ليقروا، فكتب اليه عمر : أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر ، كأني جُنّة لك من عذاب الله ، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله ، فانظر من قامت عليه البينة فخذه بما قامت عليه ، ومن أقرّ فخذه بما أقرّ به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخلّ سبيله ، وايم الله لأن يلقَوا الله عز وجل بجناياتهم أحبّ اليّ من ان القى الله بدمائهم . والسلام [٢٥٤]

وكما رأى وجوب الاستعجال في الحكم عند المعرفة رآه واجباً عند ظهور الدليل ، فاذا غاب عن القاضي العلم وغابت عنه الأدلة وجب عليه أن يبحث وراءها حتى تظهر له البينات . فاذا لم تظهر ردّ الأمر الى عمر ليرى رأيه فيه .

وكلّ ذلك الاستعجال كان في كل قضاء ليس فيه حدّ بقطع او قتل ، فاذا كان الحكم في حدّ وجب ألا ينفذ إلا أن يُرفع الى الخليفة ويراجع فيه ، وهو ما كان عمر أشار به على الوليد فأبى ، فلما صار الأمر له عمل بما كان أشار به [٢٥٥]. وفيما عدا ذلك فقد أمر الولاة أن يردوا المظالم دون أن يراجعوه .

وقد كانت الأمور جرت قبل عمر ألاّ ترد المظلمة إذا رُدّت حتى يمر عليها الزمن فتبلى الفرحة بها أو يقع اليأس منهـا ، وما كان أحد يصل اليه حقه حتى ينفد صبره ويموت جلده من طول ما

---

(٢٥٤) ابن عبد الحكم ص ١٢٩ ـ ابن الجوزي ص ٧٩ ، ٨٤ العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٤ ـ الخراج لأبي يوسف ص ١١٩

(٢٥٥) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ١٨٤

يكتب الكاتب للكاتب ، والكاتب للعامل ، والعامل للخليفة . يصعد الأمر من سفل الى علو ، ويرجع فينحدر من علو الى سفل . فلما رأى عمر ذلك ثقل على قلبه المطل والتأجيل . وحدث أن عامله عبدالحميد ابن عبدالرحمن جعل يرادّه في المظالم ويراجعه فيها فكتب اليه عمر : انه يخيل لي أني لو كتبت لك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت إليّ : أذكر أم أنثى ؟ ولو كتبت اليك باحدهما لكتبتَ إلي : صغيرة أم كبيرة ؟ ولو كتبتُ باحدهما لكتبتَ : ضائنة ام معز ؟ فاذا كتبتُ اليك فنفذ ، ولا ترد عليَّ . والسلام [٢٥٦]

أنواع المحاكم

ولم يكن لعمر مكان خصصه للتقاضي بين يديه فحيثما انتقل صار قاضياً وفي ظله تسير العدالة ، وقد سمع للشاكين في بيت الامارة وبيته الذي سكن فيه ، وفي المسجد ، وعند أوان الخطبة ، وعلى المنبر ، وفي راحته ، واستجمامه [٢٥٧]

وكان القاضي في عهده - كما كان في العهود الاسلامية - قاضيا منفرداً ، ولم يؤلّف هيئةً للقضاة تحكم مجتمعة ، ولكنه حمى القاضي المنفرد ان يزل مهما انفرد بالحكم ، إذ طلب اليه أن يشاور ذوي العلم ، فلم يَعد بالقاضي المنفرد نقص ، ولا خوف مزلة مهما انفرد ومهما كان الناطقَ وحده بالأحكام .

واذا اطمأن القاضي لرأيه كان عليه أن ينفذ الحكم ، وذلك اذا لم يجد من سابقة تهديه أو فقه يدله ، وبعد أن يكون قد استشار

---

(٢٥٦) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

(٢٥٧) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٧٨

فأعيا ، وعجز المشيرون عن الرأي .

مراقبة العمال

لقد دلّ عمر عماله على الطريق ومدّهم برأيه ، وترك لهم حرية الرأي متى وثقوا من أنفسهم فعدلوا ، وان عندهم من العلم باحوال الناس ما يعينهم على الرأي واختيار أفضله ، وكانت هذه الثقة منه في ولاته وقضاته داعية الى ورعهم واجتهادهم في تحري العدالة ، ولكنه مع هذا بات يراقبهم ويبث حولهم الارصاد ويدس عليهم العيون ، وويل لمن جار منهم وظلم ، وويح لمن زل منهم وأخطأ !

وكان التوبيخ واللوم الشديد أول عقاب من عمر يعاقب به الوالي المخطىء ، فاذا لم ينته عزله . ولقد قصر عديّ بن أرطاة ذات مرة وقد استخلفه عمر على الكوفة فأرسل اليه يقول له : أما بعد ، فانك غررتني بعمامتك السوداء ومجالستك القراء وارسالك العمامة من ورائك ، وأنك اظهرت لي الخير فأحسنت بك الظن . وقد اظهر الله ما كنتم تكتمون . والسلام .

وفعل عمر مع السفراء مثل الذي فعل مع العمال والقضاة ، فأرسل معهم العيون ليأتوه بما علموا ، وحين وجّه عبد الله بن عبد الأعلى الى ملك الروم وجّه معه رجلًا من عبس ، ثم خلا بالعبسي قبل أن يسير وقال له : احفظ كل ما يكون من ابن عبد الأعلى ، فلما رجعا خلا بالعبسيّ فاستخبره وحده ما حدث وأخبره [٢٥٨]

ولم يغفل عمر الرأي العام ، ولم يسقط حساب الأمة في حكمها على ولاته وقضاته ، فأشرك الناس جميعاً في الرأي ، وجعل موسم

(٢٥٨) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠٦ - ابن الجوزي ص ١٠٨

الحج مكاناً لعرض اعمالهم وسؤال النـــاس عنهم لتثبيت من يرى تثبيته وعزل من يستحق أن يعزل ، وحتى يقف اهل الموسم على نيته في العدالة ويخبروا من وراءهم من الناس . وقد اجتهد عمر في ذلك وتورع فكاشف عامة الناس بما يريد .

ولم ينس عمر ما كان قاله لسليمان حين فرح بكثرة الحجيج ، لم ينس عمر ذلك مذ قاله لسليمان ، فلما كان خليفة دلف الى الموقف كما كان دلف مع سليمان ، ورأى من الحجيج اكثر مما كان قد رأى معه ، وسدّت التلبيات مسامع الجواء أكثر مما كانت سدّت ، ورجف عمر فتقدم الى الناس يلمهم من الأطراف ويجمعهم ويخطبهم ، فلما قام خطيباً برىء الى الله وأشهده أنه لم يأمر بعدوان ولا ظلم ، ولم يتعمده ولم يرضه ، إلا أن يكون وهماً منه وخطأ ، أو أمراً خفي عليه لم يتعمده ، ورجا الرعية أن تضع عنه كل ذنب ، وتغفر له كل خطيّة ، متى عرفت حرصه واجتهاده .

وقد نادى عمر في الموسم أنه مُعوّل كل مظلوم ، وأنه لا إذن لمظلوم دونه ، وأنه لا طاعة لعامل رغب عن الحق ولم يعمـــل بالكتاب والسنـــة . ثم نادى عمر بأخطر شيء نودي به في أمور الظَلَمَة من الولاة إذ نادى أنه مصيّرٌ أمرَ الوالي الظالم الى الرعية حتى يراجع الحق وهو ذميم - وما تمسّ المخافة قلوب الولاة بأكثر مما تمسّها إذا وكل أمرها للرعية لتأخذ منهم بحقها . وقد علم الناس كيف أخذ أهلُ المدينة هشام بن اسماعيل لما عزله الوليد عن المدينة فمرّ به الناس كل يأخذ منه بحقه ويقتص منه بجرمه .

والرعية لا يهمها من العدل إلا ما يسعدها ، وما تَهُمُّ العدالة

بمعناها الفقهي الا المظلوم ، أما الناس فيفرحون بالعـــدالة لأنهم يعتقدون أنها السعادة والوفرة والغنى ، فإذا لم تقدهم العدالة ميسرة وغنى لم يفتقروا اليها . وقد عرف عمر ذلك فنادى في الموسم : أن مال الفيء مصروف الى أصحاب الحقوق ، وأنه لا دُولة للمال بين الأغنياء دون الفقراء .

ولم يغب عن عمر أن الرعية تهاب أن تشكو ولاتها لأمرين : اما خوفاً منهم واما رهبة السفر ومشقة الطريق ،فدعا عمر قائلًا : وأيما واردٍ ورد في أمر يصلح الله به خاصة أو عامة فله ما بين مائة دينار الى ثلثمائة . وعلى قدر ما نرى من الحسبة وتجشم المشقـة . فرحم الله امرءاً لم يتعاظمه سفر يحيي الله به حقاً لمن وراءه .

وقد رأى عمر الناس وقد انصتوا لقوله وابتهجوا له وكادوا يشتغلون به عن مناسكهم ، ففطن لماحلّ بهم وخاف أن تكون فتنة به ، فلمّ كلامه وبلغ به غايته حين قال : ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمتُ لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم ، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم ، فـلا تحمدوا غيره . ولو وكلني الى نفسي كنت كغيري [٢٥٩]

ولم يشغل عمر الناس عن المناسك ! فما فُرِض الحج الأكبر الا ليتشاور الناس فيما يصلحهم ، فاذا كانت وجهة كل حاج للبيت أن يطوف ويلبي محبوساً في جلدة جسده فمـا أدى الناسُ الحج ! ولكنّ عمر اقتضب كلامه لأنه رأى الناس يطلبون منه المزيد ثم التفتوا الى التحدث بفضله ، فدعاهم الى وجهتهم وتركهم الى قبلتهم.

(٢٥٩) ابن الجوزي ص ٧٢

ومنذ نودي بعمر خليفة على الناس ودمشق تزدحم بالشاكين جاءوا اليها وقعدوا لعمر كل مقعد ، فلم يكن يخطو او يجلس او يخطب حتى يعترضه معترض بشكوى ، حتى فزع عمر لما يرى. فلما علم ان أكثر هؤلاء قد جاءوا من أقصى الأرض وتحملوا مشقة السفر ولم يجدوا من يحمل عنهم شكواهم رأى ان يردهم الى بلادهم وأن يدفع اليهم بنفقات أسفارهم حتى يصلوا الى ديارهم وحتى لا ينفر أمثالهم أو ينفر من لا تستحق شكواه أن ينفر اليه .

وانتظر عمر الجمعة ثم انتظرها الناس حتى يخرج الى الصلاة ، واذا مسجد دمشق تغص نواحيه بالشاكين من الغرباء فخطبهم عمر وقال : أيها الناس ، اني أنساكم هنا وأذكركم في بلادكم ، فمن أصابته مظلمة من عامله فلا اذن له علي ، ومَنْ لا فلا أرينّه ، وإني والله إنْ منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال وضننت به عليكم إني اذن لضنين ! [٢٦١] فسَالَ الناس الى بلدانهم فرحين أن تلحق بهم العدالة في الطريق .

فن جديد

وكان الشعر العربيّ قد أطلق قرائح الشعراء وراء الكذب الفني فتقربوا بالأماديح وازدلفوا بالاغراق في الباطل ليُرْضُوا الخلفاء أو ليهوّنوا عليهم قيمةَ المال فيخفّوا به في حقائبهم باسم الجود والمعروف أو باسم الحق في النهبى كما كان قال الفرزدق لمعاوية:

(٢٦٠) ابن عبد الحكم ص ١٥٢

(٢٦١) ابن الجوزي ص ٥٤، ٧١

أبوك وعمي يا معاويَ أورثا  تراثاً وأولى بالتراث اقاربه

وما الجود والمعروف ولا النهبى كذلك، ولكن الخلفاء اخطأوا الطريق فردوها جاهلية في العطاء كما ارتدت جاهلية في الخصومات والصراع . وضرب عمر بن الخطاب الخطيئةَ في صميمها ولكنها عادت حية في ظل امية ، ثم ضربها عمر بن عبد العزيز ضربة ثانية فخمدت في مدته ثم عادت من بعده حين ضريَ الباطل لأنه لم يَرَ يداً تضربه كما ضربته ايدي العُمَرين .

وانصرف الشعراء عن باب عمر في دمشق، ولم يكن منصرفهم ليحطّوا الشعر عن كواهلهم وانما ليُرْجعوا اليه الصدق الذي فقده والحق الذي جاوزه ثم يعودوا الى عمر كما يعود الناس ، ولهم اداتهم واسلوبهم يشكون بالصدق ويأكلون بالحق . وهكذا رجع الشعر عن زور المديح وغلو القول ، وترك الشعراء فنوناً من الغزل والواناً من التزويق لأن عمر قال لجرير حين اراد ان ينشده : يا ابا حزرة ، قل ، ولا تقل الا حقاً .

وكذلك جعلت معاني الشعراء تدور في مدارات الزهد والصدق والرضا، وصدّت عن الهجاء وخافت مغبة الشتم .

وعاد جرير نفسه، وهو من استثناه عمر من الشعراء فلقيه يشكو لعمر فقره مرة ، ويشكو له حرمانه من حقه في صدقات الأعراب مرة، وعمر يعطيه نصيب الفقير ويسمع له شكاة المظلوم، ومما قاله جرير يشكو ابن سعد الأزديّ لما تولى صدقات الاعراب وحرم جريراً :

ان عيالي لا فواكه عنـــدهم وعند ابن سعد سكر وزبيب
وقد كان ظني بابن سعد سعادة وما الظن الا مخطىء ومصيب
فان ترجعوا رزقي اليّ فانه متاع ليـــالٍ والأداء قريب

وقال رجل يشكو عمال عمر اليه :

ان الذين أمرتهم أن يعـــدلوا نبذوا كتابك واستحل المحرم
وأردتَ أن يلي الأمانة منهمُ برّ وهيهـــات الأبرّ المسلم
طُلْس الثياب على منابر أرضنا كلٌ بنقص نصيبنا يتكلم [٢٦٢]

ومع أنّ عمال عمر اقتدوا به في العدل فان الناس اخذوا يتهمونهم بالظلم ويشكونهم اليه ، ولم يحدث ذلك الا لان الناس احسوا أن عمر إنما جاءهم ليسعدهم وليدر عليهم الخير والرزق، ولم يدع عمر هذه الشكاوى دون الاهتمام بها وتحقيق العدالة لأهلها متى كانوا مستحقين .

أثر العدالة

أقل ما يحدث من العدالة أن يسعد الناس أو يحسّوا أنهـــم سعدوا وأن يستتب الأمن في الأرجاء . وقـد حدث ان سادت العدالة في مدة عمر وعمّ الأمن وانقطعت ظهور الناس ويئسوا من الظلم ، حتى ان الخوارج حين بلغتهم سيرة عمر وما ردّ من المظالم اجتمعوا وقالوا ما ينبغي لنا ان نقاتل هذا الرجل . ولكن شيئاً هاماً غير هذين هو الذي يجب ان يكون ، وانه لشيء لا يخطر ببال الناس ، فما هو هذا الشيء ؟ هو أن يتخلى القضاة عن مناصبهم

(٢٦٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٤٠١ ، ٤٠٤ وجعلهم بقوله طلس الثياب بمنزلة الذئاب مع اظهارهم التقشف .

كلما ثقل عليهم العبء والا يقبل منصب القضاء احد اذا عرض عليه مخافة ان يزل .

ولقد حدث في مدة عمر بين القضاة هذا الشيء الذي لا يحدث . فقد كانت عمّت العدالة ونشطَ الوعي في يقظة الراعي ومخافة الله ، فجعل القضاة يهربون من أن تسند اليهم مناصب القضاء ، سواء من خشي الله منهم ومن لم يخشه ، لأن القضاة أحسوا بالمسئولية فثقل الأمر عليهم ، أما الخائف من الله فانه استيقظ ليفر من النار ، وأما من لا يهاب فقد خاف عمر وخاف الناس .

وكان ممن كتب الى عمر يستعفيه ميمونُ بن مهران عامله على خراج الجزيرة وقاضيه بها ، فكتب اليه عمر يقول : اني لم أكلفك ما يعنيك . اجتنِ الطيب واقض بما استبان لك من الحق . فاذا التبس عليك أمر فارفعه اليّ ، فلو ان الناس اذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا [٢٦٣]

وشكا اليه عامل سهره وتعبه فكتب اليه : يا أخي ، اذكر سهر أهل النار في النار ، وخلود الآباد فيها ، فان ذلك يطرد بك الى ربك نائماً ويقظان ، واياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك والسلام . فلما قرأ العامل كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه ، فقال له عمر : ما أقدمك ؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك ! لا وَلِيت لك ولاية ابداً حتى القى الله سبحانه ! [٢٦٤]

---

(٢٦٣) الخراج لأبي يوسف ص ١١٥ ـ ابن الجوزي ص ٩٧

(٢٦٤) حياة الحيوان ج ١ ص ١٣٥

وكتب عمر الى عديّ بن أرطاة وهو يعمل له على البصرة ليجمع بين اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشنيّ ويولي القضاء أنفذهما . فجمع بينهما عديّ ، فجعل كل واحد منهما يبرأ من العلم والفقه ويرمي بهما صاحبه ، حتى بلغ الأمر الى الحَلِف كذباً على ذلك لينجوَ كل واحد منهما فلا يسند اليه منصب القضاء .

وقال اياس لعديّ : أيها الرجل ، سل عني وعن القاسم فقيهَيْ البصرة : الحسَن وابنَ سيرين - وكان القاسم يأتيهما وكان اياس لا يأتيهما - فعلم القاسم أنه ان سألهما عنه أشارا به ، فقال لعدي : لا تسأل عني ولا عنه ، فوالله الذي لا اله الا هو ان اياس بن معاوية افقه مني واعلم بالقضاء ! فان كنتُ كاذباً فما ينبغي ان توليني ، وان كنتُ صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي !

ووقع عديّ في حيرة حين ضيَّق عليه القاسم منافذ الطريق بما حلف واقسم ، ولم يبق الا ان يولي اياساً .

ولكن اياساً عرف ان القاسم قد حلف كاذبا وأقسم ليتأخر عن ولاية القضاء ، فقال لعدي : يا عدي ، انك جئت برجل فأوثقته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة ، يستغفر الله منها وينجو مما يخاف !

واضاء النور امام عدي بهذا الكلام ، فقد عرف ان اياساً ادرك ما وراء كلام القاسم ، وعرف الحكم والفقه ، فقال له عدي : يا اياس ، اما اذ فهمتها فأنت لها ! فاستقضاه [٢٦٥]

●

(٢٦٥) قصص العرب ج ١ ص ٣٦٨

انه لا ينتفع بظلم القضاة غير الولاة ، ومتى فتح القاضي باب شر للوالي انّطرد له فتح الأبواب ، ولكن الولاة في مدة عمر كان الى جوانبهم قضاة يسدون عليهم كل باب للفتنة فتغير الولاة ، بل كان العامل يزف البشرى للناس اذا تولى قضاء عمالته قاض نزيه . وقد مضى اسماعيل بن عبيد الله الأنصاري والي افريقية الى القيروان يبشر اهلها بعبد الله بن المغيرة قاضياً صاحب علم ومعرفة ودين وورع [٢٦٦] ، ومضى اسماعيل يبشر به فرحاً فخوراً.

•

ولقد تغير مع هؤلاء الولاة كل شيء حتى النقود التي تبودلت في عصره كتبوا عليها بامرٍ منه : امر الله بالوفاء والعدل [٢٦٧]

وربما عادت الطبيعة تعدل وتساعد عمر على عدالته ، حتى النيل اعتدل فيضانه فصار في سنة تسع وتسعين تسعة عشر ذراعاً [٢٦٨] بل انهم ليقولون ان العدل في عهده قد عم حتى بلغ شعاف الجبال ، وبالغ الناس في القول وحدثوا عنه حديثاً عجباً حتى قال مالك ابن دينار : انه لما ولي عمر بن عبد العزيز قالت رعاء الشاء في رؤوس الجبال : من هذا الخليفة الصالح الذي قام على الناس ؟ قال : فقيل لهم : وما علمكم بذلك ؟ قالوا : انه اذا قام خليفـــة صالح كفت الذئاب والأسد عن شائنا ! [٢٦٩]

---

(٢٦٦) رياض النفوس ج ١ ص ٨١

(٢٦٧) ابن الجوزي ص ٨٠

(٢٦٨) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥٤

(٢٦٩) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٧

# سياسة الناس

•

الزمان الاول

كان صار الزمان بالناس قبل عمر الى الزمان الثالث حيث يصلح الناس ويفسد الوالي، ثم صار الناس على هوة الزمان الرابع فيفسد الناس مع فساد الراعي ، ولكن عمر جاء فرد الناس فجأة الى الزمان الأول ، فجاء هو صالحا واستبقى ما في الامة من صلاح ، وليته دام فيدوم الزمان الأول ولكنه كان مقدرا بعمره ومدته ، ثم هوى الزمان والناس من بعده الى الزمان الرابع : الى الحضيض [٢٧٠]

جاء عمر وهو يرى قرة عيون الملوك في ثلاث : ان يستفيض الأمن فيغمر البلدان : ينزل الى حضيض الوديان فلا تنصرف قطرة ماء من مياه السيل الا لمكانها ، ولا تشرد من شعفات الجبال شاة فلا تضيع في يد سارق أو في انياب ذئب .. وان تظهر المودة من

(٢٧٠) انظر أقسام الزمان لابن المقفع . المطالعة التوجيهية ص ١٧٩ نقلا عن اليتيمة .

الرعية لراعيها ، ولا يكون ذلك الا اذا ادى الراعي حقها قبل ان تؤدي حقه وتحس بالسعادة تصل الى ابوابها دون قلق أو شكوى . واذا حدث هذان اثنى الناس على الوالي واسترسلوا في الثناء الحسن . وفي هذه الثلاثة : الأمن ومودة الرعية والثناء على الراعي — في هذه الثلاثة قرة عين الملوك [٢٧١] .

وجاء عمر يسوس الناس عن علم وخبرة لا عن جهل وارتجال ، وامتد بصره في نظرة طويلة وتدبير محكم ، وجاءهم بعد الفكرة والنظر بعقيدة راسخة ونية على العمل ، واستجمع وجمع من حوله المشيرين والنصحاء وراح يستنصح كل من ظن فيه خيرا ، ولم يُعفِ رجلا في أقصى الارض من الاستعانة به واستهدائه متى ظن فيه الخير وكان من بقية الناس [٢٧٢] .

ولما فرّغ بدنه من شهوة الذات قعد لحوائج الناس يومه ، فلما امسى ولم يقضها وصله بليلته ، وقد امسى يوماً وقد فرغ من حوائج الناس فدعا بمصباح كان يستصبح به من ماله ، ثم صلى ركعتين ثم أقعى واضعا يده تحت ذقنه تسيل دموعه على خده ، ولم يزل كذلك حتى برق الفجر فأصبح قائما .

ورأت فاطمة بنت عبدالملك ذلك منه فقالت له : يا أمير المؤمنين ، لشيء ما كان منك ما رأيت الليلة ؟ قال : أجل ! اني وجدتني وليتُ امر هذه الأمة اسودها واحمرها فذكرت الغريب القانع الضائع والفقير المحتاج والاسير المقهور واشباههم في اطراف

---

( ٢٧١ ) ابن الجوزي ص ٨٥

( ٢٧٢ ) الخراج لابي يوسف ص ١١٤

الارض فعلمت ان الله تعالى سائلني عنهم ، وان محمداً صلى الله عليه وسلم حجيجي فيهم ، فخفت الا يثبت لي عند الله عذر ولا تقوم لي مع محمد حجة ، فخفت على نفسي !

بيت المال

ولم يعد لأحد من حق في بيت المال الا بحقه حتى القائم على حراسته وحسبته ، فاذا نقص من المال شيء - من غير خيانة - ردّه القائم من خاصة ما له ، ولم يُعْفَ وهب بن منبه الفقيه الورع والمعدود من الأحبار ان يَرُد الى بيت المال ما فقد منه حين كان قائماً عليه ، وكتب الى عمر انه فقد من بيت المال ديناراً او بضعة دنانير - كما اختلف الرواة - فكتب اليه عمر : اني لا اتهم دينك ولا امانتك ، ولكني أتهم تضييعك وتفريطك ، وانا حجيج المسلمين في اموالهم ! ثم امره بردّ ما فقد من بيت المال فرده وهب من خاصة ماله [٢٧٣] .

وكان لعمر بن الخطاب وللخلفاء من بعده حقوق في بيت المال ابتدأت بدرهمين لعمر وانتهت الى بيت المال كله للخليفة الأموي ، فلما كان عمر بن عبد العزيز رأى ان يستغني عن بيت المال جملة ويكتفي بشيء مما ابقى من قطائعه ، وقدّر له درهمين في كل يوم ، ولم يحرم الخليفة نفسه فحسب من مال الله ولكنه حرّم ان يفيد منه ابن او مولى او دابة تعمل له ، ولم يَرَ نفسه الا قيماً على المال لا مالكاً له ، فان كان للخليفة حق فيه فانما يكون فيما يتصل بعمله من سياسة الناس . والشمع الذي استضاء به عمر في حوائجه ،

(٢٧٣) ابن الجوزي ص ٨٥

والماء الساخن الذي توضأ به في الغداة الباردة ، والتفاحة التي اشتهاها ، لم ير عمر له حقاً فيه الا ان تكون بخاصة ماله ، حتى ريح العنبر الذي ينفح الجو بعبيره ولم يجد له حقاً فيه ابعده عنه وكتم أنفه حتى يبتعد . ولو حُملت اليه هديه على دابة للبريد باعها وجعل ثمنها في علف دواب البريد [٢٧٤]

وليس لأحد من خاصة عمر ان يأمر في مال او جُهْد او دابة الا بحق ، فلما حمل مولى له رجلاً على خيل البريد بغير اذنه دعاه فقال له : لا تبرح حتى تقوّمه وتضعه في بيت المال [٢٧٥] .

ولعل من رائع ما فعل عمر انه ردّ ابنه عن الزواج من بيت المال حين طلب اليه ان يزوجه منه ، مع ان عمر امر بأن تقضى حاجات الغرباء في الزواج منه : طلب ابن له أن يزوجه ويُصْدِق عليه من بيت المال ، وكان لابنه هذا امرأة اخرى تزوجها من قبل ، فغضب عمر حين طلب اليه ابنه ذلك وكتب اليه : لعمر الله! لقد اتاني كتابك تسألني ان اجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين . وابناء المهاجرين لا يجد احدهم امراة يستعف بها ، فلا اعرفنّ ما كتبت ! وانظر الى ما قبلك من نحاسنا ومتاعنا ، واستعن بثمنه على ما بدا لك . وبينما عمر يفعل ذلك مع ابنه يكتب الى زيد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة فيقول : كتبت تذكر انه قد اجتمعت عندك أموال بعد

---

(٢٧٤) ابن الجوزي ص ١٦١ ـ محاسن السلوك ص ٧٨ ـ ابن عبدالحكم ص ٥٢

(٢٧٥) الخراج لابي يوسف ص ١٨٦

أعطية الجند ، فأعطِ كل من كان عليه دينٌ في غير فساد، او تزوج فلم يقدر على نقد . والسلام [٢٧٦]

اما اصحاب الحقوق في بيت المال فالمسلمون كافة ، وعلى بيت المال القَسْم بينهم ، وكلٌ ياخذ منه بحقه، وعلى اصحاب الحقوق ان يستوفوا منه حقوقهم ، لا يردهم عنها راد . ومن بيت المال تنفق دار الضيافة التي يقيمها الأمير . ومن بيت المال تسد حاجات المغرم وابن السبيل ، ولقد قالوا ان عمر اول من اتخذ دار الضيافة من الخلفاء مقتدياً بابيه عبد العزيز حين كان والياً على مصر، واول من فرض لأبناء السبيل [٢٧٧]

ولم يفهم بعض ولاة عمر ما يريده خليفتهم للناس من رفع قيم معيشتهم ، فلما كتب اليهم ان يقضوا ديون الغارمين كتبوا اليه : انا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس والأثاث في بيته ! فكتب اليهم عمر : لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي اليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرسٍ يجاهد عليه عدوه ؛ واثاثٍ في بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه !

ثم جعل عمر بيوت الأموال بيتاً واحداً فلو اغتنى بلد وافتقر آخر سدَّ البلد الغنيّ حاجة البلد الفقير وعجزه حتى لو لم يبق له شيء . وقد امر ان تَسُد الشام حاجة العراق في رد المظالم حين لم يكف مال العراق في ردها. وبذلك صار العالم الاسلامي في مدته وَحدة ذات قوة وتماسك يسد بعضها حاجات بعض .

---

(٢٧٦) ابن عبد الحكم ص٦٧، ١٢٨

(٢٧٧) حياة الحيوان ج ١ ص٦٨ — ابن الجوزي ص ٨٥

وفي بيت ماله كانت تضرب الدراهم والدنانير ، وفيه تبدّل النقود ، التي لا تَنْفَق اذا دارت في الأسواق وساءت لكثرة ما استعملت ، لئلا تقف سوق البيع والشراء ويضارّ الناس [٢٧٨] .

القصد والاسراف

ولم ير عمر من وظيفة بيت المال ان يحفظ الدنانير حتى تتجمّد فيه جبالاً لا يسيل منها سيل يُرْوي او يسقط منها طلٌّ يَبُل ، بل رأى انه لا ضرورة لان يُخْتَزَن فيه شيء اذا كانت حاجات الرعية تستنفد المال كله . وقد أقلقه في ذلك العمال واصحاب بيوت الاموال واقلقهم ، هم كانوا يرون انه لا بد من مال يخزن وهو يَرَى انه لا يُخْزَن شيء ، وكتبوا اليه يحثونه وهو يأبى . ثم اجترأ والٍ فكتب اليه يقول : انك اضررتَ ببيت المال ! فكتب اليه عمر : اعطِ ما فيه ، فاذا لم يبق شيء فاملأه وحلًا! [٢٧٩]

ولم يكن عمر بذلك يدعو الناس الى الاسراف ، فالاسراف امر غير قضاء حاجات ذوي الحقوق ، اما العمال فكانوا هم المسرفين ولا يدرون ، كانوا يفرقون ما يُجْمع في التافه والرخيص فرأى عمر ان يقتصدوا في الانفاق حتى لا يضيق ذرعاً بحاجات الناس .

كان الولاة والعمال ينفقون من المال على شراء اوراق يكتبون فيها توقيعات لا تعدو عَرْض اصبع ، وكان الولاة يسرفون في الاضاءة بالشمع في الطرقات . وكان الولاة ينفقون المال في الأبنية والزخارف والتماويه . وبلغ الاسراف حَجَبَةَ البيت فأرادوا

(٢٧٨) ابن عبدالحكم ص ١٧١ — ابن الجوزي ص ٩٠

(٢٧٩) ابن الجوزي ص ٨٥ — هذا هو ما يسمونه بالمال الاحتياطي اليوم

كسوة جديدة ولم يَقدُمْ ما قبلها . وهكذا كلٌ من جهته ينفق ويسرف ، فهال عمرَ ذلك فأمر الا تسجل في طوامير [٢٨٠] ، والا يكتب فيها بالخط الجليل [٢٨١] والا عدّ في الكتابة ويفرّج ما بين الحروف ، والا يُكثر من الكلمات بل يُقلّل . ونفّذ العمال ذلك فوفروا شيئاً كثيراً وصارت الكتب بعد ذلك شبراً او نحواً منه [٢٨٢]

وامر عمر ان يبنى مسجد بني عدي بن النجار باللبن بناء قاصدا حين اخبروه بانهدامه وطلبوا بناءه . وكتب الى حجبة البيت حين ارادوا له كسوة جديدة كعادة الخلفاء قبله : اني رايت ان اجعل ذلك في اكباد جائعة فانه اولى بذلك من البيت ! وكتب الى ابي بكر بن حزم واليه على المدينة حين طلب شمعاً من سليمان يستضيء به الناس في طريقهم الى المسجد عند صلاة العشاء والفجر ، ومات سليمان فوقع الكتاب في يد عمر — فكتب الى ابن حزم يقول : اما بعد فقد قرأت كتابك الذي كتبت به الى سليمان بن عبد الملك ، وكنتُ المبتلى فيه بالنظر دونه : كتبتَ تسأله ان يقطع لك من الشمع مثل الذي كان يُقطع لمن قبلك ، وتذكر ان الشمع الذي عندك قد نفد ، ولعمري قد طالما رأيتك تخرج من منزلك الى المسجد في الليلة المظلمة الوحلة بغير ضياء ! ولعمري

---

( ٢٨٠ ) الطوامير جمع طومار وهو المعروف عندنا اليوم بفرخ الورق (الفولسكاب)

( ٢٨١ ) القلم الجليل الخط الذي تكتب به « الواجهات » .

( ٢٨٢ ) ابن الجوزي ص ٧١ ، ٩٩

لأنت يومئذ خير منك اليوم . والسلام عليك .[٢٨٣]

### الرفق بالرعية

تولى عمر الخلافة والناس على يأس من العدالة ، وما يستطيع سليب ان يطلب حقه . وكان السعيد الموفق من ردّ عن نفسه الظلم أو تجنّبه . وكان أسعد من هذا حظاً من غفل عنه السلطان واندرج في متاهة المغمورين فلا تناله ظنّة أو شبهة أو جوار — فلما جاء عمر لم يكتف بردّ المظالم وانما أخذ يضع عن الناس السخرة التي كانوا يُسخرونها في المصالح العامة . لأن عمر رأى فيها أموراً ظالمة فحطها عن كواهل المسخرين ، ثم لم يكتف فالهب مشاعر الناس ليردوا عن أنفسهم ، فاذا لم يفعلوا ولم يصلحوا إلا بالغشم والظلم فلا أصلحهم الله ![٢٨٤]

كان أهل مصر قد ظلموا ، وحلب أسامة بن زيد درّهم حتى انقطع ودمهم حتى انصرم . وأهل الجزيرة والكوفة والعراق قد اهلكهم الحجاج وأباد صلحاءهم ، وأهل المدينة والحجاز قتلوا وعُذبوا حتى لم يعد يُظن أن تقوم للمدينة قائمة مدى الازمان ، وقد أتت على ما تبقى بها وقعة الحرة . وأهل الموصل كثر فيهم السراق والنهابون . وأهل حمص سلبت أراضيهم وحوانيتهم . وإفريقية عبثت بها الهوامّ والعقارب . وأهل سمرقند غُدر بهم وظلموا . وأهل أذربيجان سلبت أموالهم — ثم عبر الظلم البحر الى الأندلس.. وسرت الى كل بلد وطأة من الظلم ، ثم طالت الوطأة

---

(٢٨٣) ابن الجوزي ص ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٣

(٢٨٤) ابن عبد الحكم ص ١٠٠ ، ١٢٣

فولد الشرّ شروراً ، وحسب كل مولود أن هـذا الذي ولد فيه انما هو العدل وانما هو حكم الاسلام . واخترع الظـلم لنفسه كل طريف فليس العجمي كالعـربي في الحق ، وليس المولى كالحر ولا المرأة كالرجل ولا أهل الذمة كالمسلمين .

ورآها عمر ثنايا أولى بأن تسوّى وعقاباً أحق بأن تهـدم ، فمضى يعمل : فارتفع بالأعجميّ والمولى والمرأة والذميّ ، وجعل لكلٍّ حقه الذي فرضه له الدين لم ينقص منه شيئاً ، وحين راح يزيد في اعطيات الجند المحاربين عشرة عشرة جعل العربي والمولى على سواء [٢٨٥] . ولم يجعل عمر من فرق في أصحاب العطاء سوى ما بين الكبير والصغير ، فكان من بلغ الخامسة عشرة فرَض له في المقاتلة ، ومن لم يبلغها فرض له في الذرية . وسار عمر بحكم النبي في الناس ، فان نافع بن عمر عرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال يوم أحد فاستصغره فردّه — وكان ابنَ اربع عشرة سنة — ثم عرضه يوم الخندق وقد صار ابنَ خمس عشرة فأجازه . وقد حدّث نافعٌ نفسُه عمرَ بن عبد العزيز بهذا الحديث وهو خليفة وعرف عمر منه فرق ما بين الكبير والصغير وكتب به الى عماله ليفرضوا لابن خمس عشرة في المقاتلة ولابن اربع عشرة في الذرية، ففعلوا [٢٨٦] .

●

وعرف عمر بن عبدالعزيز ان ابن آدم لم يَعْرَ من الذنوب، ولما

---

(٢٨٥) تاريخ العرب المطول ص ٢٨١ — ابن الجوزي ص ٨٧

(٢٨٦) الخراج لأبي يوسف ص ١٧٠

كان ابنه عبد الملك يستعجله لينفّذ الامور كان يقول له : لا تعجل يا بنيّ فانه لا قليل من الاثم فان الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة ، وأنا اخاف أن احمل الحقّ على الناس جملة فيدفعوه جملة ويكون من ذلك فتنة [٢٨٧] .

ولم يكن هذا يرضي عبدالملك الذي يمثل ثورة الشباب ويتخيّل مثله العليا ، ولكنه كان يسكت حين يدله ابوه على الطريق ويقدّم له الأدلة . ولكن الولاة الذين ساقهم عمر الى الرفق لم يعجبهم ما فعل عمر ، وحتى الولاة الذين اختارهم لعمله وحثهم على الرفق واطلق أيديهم في العمل لم يَرْضَوا فراجعوه فيما يأمر به من الشفقة والرفق بالناس ، وكان ممن راجعه عبد الحميد بن عبد الرحمن وأخوه صالح .

### أهل العراق

لم تكن سياسة عمر تُرْضي ولاة العراق ، فعبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة وصالح بن عبد الرحمن وصاحب له بالعراق ويحيي الغسّاني صاحب الموصل كل هؤلاء وغيرهم يريدون اخذ الناس بالقسوة وسياستهم بالعنف ، فالسنة التي يعرفها اهل الكوفة جور وشدة ، وأهل العراق لا يصلحهم الا السيف ، والبصرة مخمورة لا تفيق الا على مثل سيف زياد بن أبيه ، وارض الموصل اكثر البلاد سرقا ونقبا ، فسياسة عمر هناك لا تصلح .

---

(٢٨٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٨ ـ ويقول صاحب الموافقات : وهذا معنى صحيح في الاستقراء العادي فكان ما كان أجرى بالمصلحة وأجرى على جهة التأنيس . الموافقات ج ٢ ص ٩٤

ولم يلبث هؤلاء الولاة أن راجعوا عمر فيها وبصّروه لمغبّة فعله أن يعدل معهم الى ما رأوا ويميل في كفة الجور ان كان يريد صلاح البلدان. فكتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن: ان أهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة وجور، سنها عليهم عمال السوء. وان أقوم الدين العدلُ والاحسان، فلا يكوننّ شيء أهمّ الى نفسك أن توطنها لطاعة الله. وكتب الى صالح وصاحبه: خبيثين من الخبث رديئين من الرديء تعرضان لي بدماء المسلمين؟ ما أحد من الناس الا دماؤكما أهون عليّ من دمه. [٢٨٨]

واما أهل البصرة فكتب اليهم عمر يذكرهم بحرمة الخمر، ويدعو لهم في آخر كتابه لهم بذلك يقول: أسأل الله أن يزيد المهتدي منا ومنكم هدى، وان يراجع المسيء منا ومنكم التوبة في يسر وعافية [٢٨٩]. وفرقٌ ما هنالك بين كلام عمر هذا وكلام زياد ابن أبيه. وقد مسح عمر آلام أهل البصرة وفرّق بينهم مرةً مالا كلّ إنسان ثلاثة دراهم وأعطى الزّمْنى خمسين خمسين ورزق المفطومين [٢٩٠]

وأما اهل الموصل فقد كتب يحيى الغساني الى عمر يخبره أنه قدمها والياً فرآها من اكثر البلاد سرقاً ونقبا، وكتب يسأله أيأخذ الناس بالظنة ويضربهم على التهمة أم يأخذهم بالبيّنة وما

---

(٢٨٨) ابن الحكم ص ١٢٩

(٢٨٩) ابن الجوزي ص ١٠٢

(٢٩٠) الطبري ج٥ ص ٣٢٢

جرت عليه السنّة ؟ فكتب اليه عمر يقول : خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة ، فان لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله ! قال يحيى الغساني : ففعلتُ ذلك ، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقاً ونقبا .

وكان رياح بن عبيدة مع عمر ، فأحب رياح ان يستأذنه ليرى أهله وضيعته بالعراق ، فلما كان اليوم الذي ودعه فيه قال له : يا أمير المؤمنين ، حاجتك ، أوصني بها ، فقال له عمر : حاجتي ان تسأل عن اهل العراق ، وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم.

فلما قدم رياح العراق سأل الرعية فأخبرته بالخبر ، فلما رجع الى عمر سلّم عليه وأخبره بحسن سيرة الولاة في العراق وثناء الناس عليهم ، فقال عمر : الحمد لله على ذلك ! لو أخبرتني عنهم بغير هذا عزلتهم ولم استعن بهم بعدها ابداً [٢٩١]

### اهل المدينة

ومرّ الزمن يمضي وعمر يحن الى المدينة ، قد علق قلبه بها ولم يتحول ، وأوصى بها الولاة وفرّق على أهلها حقوقهم ، وما جاءه رجل منها الا سأله عن اهلها كافة : الأشراف والتجار والمساكين والرجال والنساء . ولقد جاءه رجل مرة فسأله عمر قائلًا : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا ؟ فقال الرجل : قد قاموا يا امير المؤمنين ، واغناهم الله ! وكان من اولئك المساكين من يبيع الخَبَط للمسافرين ، فالتُمِس ذلك منهم

(٢٩١) ابن الجوزي ص ٩٧ ـ الخراج لأبي يوسف ص ١١٩

بعد فقالوا : قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر [٢٩٢]

وقدم زياد بن أبي زياد المدنيّ رسولاً على عمر لعياش بن ربيعة في حوائج لعياش ، فلما اقبل أسرع فقال لعمر : السلام عليكم — ولم يتنبه الى أنه يسلّم على امير المؤمنين — فقال له عمر : وعليك السلام ، ثم تنبه زياد فأعاد السلام بالامارة فقال له عمر : يابن أبي زياد ، إنا لسنا ننكر الأولى التي قلت ! — وكان الكاتب يقرأ عليه مظالم جاءت من البصرة . فقال لزياد : اجلس ، فجلس على أسكفّة الباب — والكاتب يقرأ وعمر يتنفس الصعداء — فلما فرغ أخرج من كان في البيت حتى وصيفاً كان فيه ، ثم قام يمشي الى زياد حتى كان بين يديه ووضع يديه على ركبتيه .

قال زياد : وعليّ مدرعة صوف ، فقال لي عمر : يابن ابي زياد ، استدفأتَ في مدرعتك واسترحتَ مما نحن فيه ! ثم سألني عن صلحاء اهل المدينة : رجالهم ونسائهم ، فما ترك منهم احداً الا سألني عنه ، وسألني عن أمور كان أمر بها بالمدينة فأخبرته . . ثم قضى حوائج عياش وأعطى من ماله لزياد عشرين ديناراً وقال له : استعن بهذه ، فانه لو كان لك في الفيء حق اعطيناك حقك ! فأبى زياد أن يأخذها فلم يزل به حتى أخذها ، ثم كتب الى عياش يسأله ان يبيعه زياداً ليعتقه فأبى عياش أن يبيع زياداً واعتقه [٢٩٣] . وقد قالوا : إن عمر نزل عن موضع كان عليه الى الأرض وقال : إذا دخل عليك

---

(٢٩٢) ابن الجوزي ص ٧٦

(٢٩٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٩

رجل لا ترى لك عليه فضلاً فلا تأخذ عليه شرف المجلس [٢٩٤] ثم قال : اني أُعْظِمُ ان اكون في موضع اعلو فيه على زياد . فلما قضى زياد ما يريد خرج ، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد وأصحابه يأخذون منه حاجاتهم ، فنظر الخازن فاقتحمته عين عمر ففعل ما أمر به ، فدخل زياد فأخذ لنفسه بضعةً وثمانين درهماً . فلما رأى الخازن ذلك قال : امير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال ! [٢٩٥]

وخرج عمر يوماً فركب هو ومزاحم ، وكان كثيراً ما يركب فيلقى الركبان يتجسس الأخبار عن القرى ، فلقيهما راكب من اهل المدينة ، وسألاه عن الناس وما وراءه ، فقال : ان شئتما جمعت لكما خبري ، وان شئتما بعضته تبعيضاً . فقال عمر : بل اجمعه . فقال : اني تركت أهل المدينة والظالم بها مقهور والمظلوم منصور والغنيّ موفور والعائل مجبور ، فسرّ بذلك عمر وقال : والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحبّ اليّ مما طلعت عليه الشمس [٢٩٦]

ولقد قال رياح بن حيان ـ وكان على المدينة ـ : ما قدم علينا بريد لعمر بن عبد العزيز الا باحياء سنة او قسْم مال او أمرٍ فيه خير [٢٩٧] ، وقد صارت قريش والانصار تدعو لعمر

---

(٢٩٤) البيان والتبيين ج ٣ ص ٨٤
(٢٩٥) ابن عبد الحكم ص ٥٢
(٢٩٦) ابن عبد الحكم ص ١٣٥
(٢٩٧) ابن الجوزي ص ٧٥

بالبقاء حتى يردَّ عنهم المكاره ، حتى قالت فاطمة بنت الحسين :
لو كان بقي لنا عمر بن عبد العزيز ما احتجنا بعده الى شيء .

قال جرير :

أشبهتَ من عمر الفاروق سيرته ... قاد البرية وائتمت به الأمم
تدعو قريش وأنصار الرسول له ... أن يُمْنَعوا بأبي حفص وما ظلموا

وقال :

يعود الحلم منك على قريش ... وتَفْرُج عنهم الكرَب الشدادا
وقد آمنتَ وحشتهم برفق ... ويعيي الناسَ وحشُك أن يصادا
وتبني المجد يا عمر بن ليلى ... وتكفي المحل السنة الجمادا [٢٩٨]

### أهل مكة

ولما ردَّ عمر مظالم أهل مكة وزارها ثم خرج ، مضى معه رجل مع من يشيِّعه وكان احد الولاة حبسه وأخذ ماله غصباً واستحلفه ألا يخاصمه ابدا ، فشكا الرجل الى عمر قائلاً : ظُلمتُ ولا أستطيع أن أتكلم ! فأدرك عمر انه أُخذت عليه يمين ، فجاء بالوالي ونكف بالخيزران بين عينيه في سجدته وقال له : هذه غرّتني منك ! ثم قال للرجل : اذهب فقد رددتُ عليك مالك ولا حِنْتَ عليك ! [٢٩٩]

### أهل الرقة وأهل ايلة

اما الحسن والحسين فقد رأيا أنّ طالب الحاجة اليهما لا يستحق

---

(٢٩٨) الكامل للمبرد ج ١ ص ٤٠١
(٢٩٩) ابن عبد الحكم ص ١٣٨

الا بقدر علمه ، فان كان عالماً كل العلم أخذ كل حاجته ، وان كان عالما نصف العلم أو ثلثه او ربعه اخذ بقدر ما يعلم ، وذلك اذا لم يكن من أصحاب الفروض والصدقات . واما عمر بن عبد العزيز فقد امر بمالٍ للرزنة وأمر أن يُعطى منه كلّ من مدّ يده لعلمه بحاجة اهلها واضطرارهم .

### أهل سمرقند وأذربيجان

وجاء رجل من أذربيجان فقام بين يدي عمر يشكو عامل بلده فقال : انه عدا عليّ فأخذ مني اثني عشر الف درهم فجعلها في بيت مال المسلمين . فقال عمر اكتبوا الساعة الى عاملها حتى يرده عليه [٣٠٠] . واما أهل سمرقند فأرسلوا وفداً يشكو قتيبة بن مسلم وما فعله معهم من الغدر والظلم فكتب عمر من فوره الى سليمان ابن ابي السرح واليه على سمرقند ان ينصب لهم قاضيا لينظر في امرهم فأجلس سليمان القاضي ورضوا بما قضى .

### أهل خراسان

وكتب الجراح بن عبد الله الحكمي الى عمر : اني قدمت خراسان فوجدت قوماً قد ابطرتهم الفتنة ، فأحب الأمور اليهم أن يعودوا ليمنعوا حق الله عليهم ، فليس يكفهم الا السيف والسوط ، فكرهت الاقدام على ذلك الا بإذنك . فكتب اليه عمر : يابن أم الجراح ، انت احرص على الفتنة منهم ، لا تضرب مؤمناً معاهداً الا في الحق ، واحذر القصاص ، فانك صائر الى من يعلم خائنة

---

(٣٠٠) ابن الجوزي ص ٧٥

الأعين وما تخفي الصدور ، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغـــيرة ولا كبيرة الا احصاها [٣٠١] .

### عهد السباق

لقد اشفق عمر على الناس ولكنه ابى ان تخرج بهم الشفقة عن حدود الخير ، ولم تكن الشفقة إرخاء للحبل من اعناقهم فان ارخاء الحبل من اعنـاق الناس يدفعهم الى الشرور ، ولم يخرج عمر بن عبد العزيز عن حدود الشفقة غير مرة او مرتين اضطر لها اضطرارا لأنه رأى إن لم يفعل أن يرجع الناس الى بلادهم مقهورين .

كان سليمان بن عبد الملك قد أمر اهل مملكته ان يقودوا الخيل لسبق بينها . فأرسل الناس من اطراف الأرض خيلهم تجري في السباق ، وقلّ ان تكون قرية الا قادت اليه خيلا ، فمات سليمان قبل ان تجري الحلبة ، وغصت دمشق بالوافدين اليها من الناس ومعهم الخيل الجياد ، فلما ولي عمر لم تعقد الحلبـة ، وابى عمر ان يجريها ، فاحتال عليه الناس وجعلوا يقولون له : يا امير المؤمنين تكلّف الناس مؤونات عظاماً وقادوها من بلاد بعيدة ! وفي جرْي الحلبة يا امير المؤمنين غيظ للعدو ! فلم يزالوا يكلمونه حتى اجرى الحلبة ، واعطى الذين سبقوا ، ثم رجع فاعطى الذين لم يسبقوا ولم يخيبهم ولكنه اعطاهم دون ذلك [٣٠٢] . وهذه المرة لم يجاوزها في امر السباق فانه امر من بعدها الا يركض فرس في غير حق [٣٠٣]

---

(٣٠١) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ١٨١ ـ ابن الاثير ج ٥ ص ٢٤

(٣٠٢) ابن الجوزي ص ٥٦

(٣٠٣) ابن عبد الحكم ص ٥٥

هذه المجاوزة كانت في السباق ، اما المجاوزة الأخرى فكانت فيما يشبه اللهو ، وتلك ان خلفاء الامويين سنّوا الغناء واباحوه . وكان يزيد بن معاوية اول من سنّ الملاهي واستجلب المغنّين . وشمل عبدُ الملك برعايته ابن مسجح : واستقدم الوليدُ ابن سريج ومعبداً الى دمشق ، ثم ناهض سليمان بن عبد الملك المغنين ولكنه استدعى الدّلال المغني سراً من المدينة الى دمشق ليغني له . فلما جاء عمر بن عبدالعزيز الخلافة حال بين الشعر والغناء [٣٠٥] .

وانما بقيت في عمر رقة في الطبع وفضل في الحلم ، فسمع للغناء في قضية ذات خبر طريف : قالوا انه اتى من المدينة الى العراق فتىً يطلب جارية — وُصفت له — قارئة قوالة مغنية ، فوجدها عند قاضي بلدة ، ولم يكن القاضي يعلم صفاتها ، فلما غنّت امام طالبها في حضرة سيدها القاضي تقول :

الى خالد حتى أنخنا بخالد فنعم الفتى يُرْجى ونعم المؤمل

فرح القاضي بجاريته وسرّ بها وغشيه من الطرب امرٌ عظيم ، وقال لها : هاتي — بأبي انت وأمي — شيئاً ، فغنت :

اروح الى القصّاص كل عشية ارجّي ثواب الله في عدد الحطى

فزاد الطرب على القاضي ، ولم يدر ما صنع ، فجثا على ركبتيه وجعل يأتي بحركات ويقول اقوالاً تدل على انه قد سَفِه . فلما امسكتْ قال القاضي للفتى : انصرف ، فقد كنا فيها راغبين قبل ان نعلم ، ونحن الآن فيها ارغب ! فانصرف الفتى .

وبلغ عمرَ بن عبدالعزيز ما فعل القاضي وما قال ، فقال :

---

(٣٠٤) تاريخ العرب المطول ص ٣٤٨ — معالم الموسيقى العربية ص ٢٩

قاتله الله ! لقد استرقه الطرب ! وأمر بصرفه عن عمله ، فلما صُرِف قال القاضي : نساؤه طوالق لو سمعها عمر لقال اكثر مما قلت ، فبلغ ذلك عمر فأشخصه وأشخص الجارية ، فلما دخلا قال للقاضي : أعد ما قلت ، فأعاده ، ثم قال للجارية : قولي : فغنت تقول :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيسٌ ولم يسمرْ بمكة سامر
بلى نحن كنـــا اهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

فما فرغت حتى اضطرب لها عمر اضطراباً بيناً واقبل يستعيدها ثلاثاً ، وقد بلّت دموعُه لحيتَه ، ثم اقبَل على القاضي فقال : لقد قاربتَ في يمينك فارجع الى عملك راشداً !(٣٠٥)

درس قاس

ولكنّ الرقة في موضعها لم ينقلها عمر الى الموضع الذي لا تصلح فيه وانما استخدم العنف . فقد دخل عليه شيخ من اهل المشرق هو وابن اخ له فاختصما عنده ، وكان الشيخ قد اطال شاربيه حتى غطيا فمه وسال شعرهما عليه . وبينما هذا الشيخ يريد الصلة والصلح اذ التوى به الشر فمال الى اللجاج ثم غضب فدعته نفسه الى القطيعة ، فنظر اليه عمر متعجبا وقال له : ما رأيت احلى منك ولا أمر ولا ابعد ولا اقرب ، بينما انت تريد الصلة والصلح دعتك نفسك الى القطيعة والظلم ! قال عمر هذا ثم نادى قائلًا : يا مينا ، فانفرج الباب عن حجام لعمر قد أقبل مسرعاً يتلقى امر الخليفة ، فلما رآه عمر قال له: أخرج هذا الشيخ من الصف ثم خذ لي من شاربه ثم ائتني به ؛ وفعل مينا الحجام ما أمر به ، ورد الرجل الى مكانه

(٣٠٥) شذرات الذهب ج ١ ص ١٢٠

من الخصومة بين يدي الخليفة ، فقال عمر : هذا اطيب ، وأنظف مع الفطرة . هلم الى الصلح أيها الشيخ أنت وابن أخيك ! قالا : نعم . فأصلح ذات بينهما ، فرفع يديه الى السماء وقال : الحمد لله !

رحمة الضعفاء

ولم يقتصر رفق عمر على فريق دون فريق ، بل كلما ازداد الناس ضعفاً ازداد عمر بهم رفقاً ، وقد رقّ فوظف القواد للعميان [٣٠٦] ، وقد أمر أن يعاقب الناس على قدر ذنوبهم — لا كما فعل وهو والي المدينة ونبّهه مزاحم مولاه الى مجاوزته الحدّ في العقوبة . وأمر ألا يوثق السجناء فيمنعهم الوثاق من الصلاة وهم قيام ، وأمر ألا يبيت أحد منهم في قيده الا اذا كان مطلوباً بدم وقد اجرى عليهم من الصدقات ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم [٣٠٧]

وحرّم عمر أن يقتل النساء والصبيان والأسرى والجرحى في الحروب ، وجعل للأسير أن يتصرف في ماله كيف شاء فهو ماله. ولم يقتل من الأسرى سوى واحد من الترك ، قال له رجل ممن جاء بهم : يا امير المؤمنين ، لو كنتَ رأيت هذا وهو يقتل المسلمين لكثر بكاؤك عليهم ! فأمر بقتله [٣٠٨]

وجيء عمر ذات يوم بسارق فشكا اليه حاجته فعذره عمر وعفا عنه

(٣٠٦) ابن عبد الحكم ص ٤٦ ، ١٢٤

(٣٠٧) الخراج لأبي يوسف ص ١٥٠ — حياة الحيوان ج ١ ص ٦٨ — ابن الجوزي ص ٩٧ .

(٣٠٨) فجر الاسلام ص ٨٧ ط ٦

وأمر له بنحوٍ من عشرة دراهم ٣٠٩

لقد كان عمر اعطف الناس قلباً على الرجال اذا ضعفوا وكثر اولادهم ، وعلى الأرامل اذا اصابتهن الحاجة . وقد جاءه رجل فقام بين يديه فقال له : يا امير المؤمنين ، اشتدت بي الحاجة وانتهت بي الفاقة ، والله سائلك عن مقامي هذا بين يديك . فقال له : ما عيالك ؟ فقال : خمسة ، انا وامرأتي وثلاثة اولاد ، ففرض له ولأولاده .

وخرج بريد من مصر فدفعت اليه فرتونة السوداء، مولاة ذي اصبح، كتاباً تذكر فيه ان لها حائطاً قصيراً، وانه يُقْتَحَم عليها منه فيُسرق دجاجها ، فكتب عمر : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عمر امير المؤمنين الى فرتونة ... بلغني كتابُك وما ذكرتِ من قِصَر حائطك وانه يُدخل عليك فيه فيُسرق دجاجك ، فقد كتبتُ لك كتاباً الى ايوب بن شرحبيل ، آمره ان يبني لك ذلك حتى يحصّنه لك بما تخافين ان شاء الله والسلام .

وكتب الى ايوب بن شرحبيل - وكان ايوب عامله على صدقات مصر وحربها - من عبدالله عمر امير المؤمنين الى ابن شرحبيل ، اما بعد فان فرتونة مولاة ذي اصبح كتبت اليّ تذكر قصر حائطها وانه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها . فلما جاء الكتاب الى ايوب ركب بنفسه حتى اتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها سوداء مسكينة ، فأعلمها بما كتب به امير المؤمنين فيها وحصنه لها .

---

(٣٠٩) ابن الجوزي ص ٥٧ ، ٧٩ - ابن عبد الحكم ص ٦٥ ، ١٧٧

ولم تكن فرتونة السوداء تعرف حرفاً من حروف العدالة ، ولكنها كانت تذوق لها نفس المعنى الذي يذوقه الفلاسفة والعلماء، فشكت الى الخليفة بدمشق ، وربما لم تكن تعرف المسافة بين دمشق وجيزة الفسطاط .

وقدمت الى عمر امرأة من العراق ، فلما صارت الى بابه قالت : هل على أمير المؤمنين حاجب ؟ فقالوا : لا ، فلجي ان أحببتِ – وكان لمثلها ان تدخل من غير اذن – فدخلت المرأة على زوجته فاطمة وفي يدها قطن تعالجه ، فسلمت وجلست ، ثم رفعت بصرها فلم تر في البيت شيئاً له بال ، فقالت : انما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخراب ! فقالت لها فاطمة : انما خرَّب هذا البيت عمارة بيوت امثالك .

وأقبل عمر حتى دخل الدار ثم اقبل على المرأة فقال : ما حاجتك ؟ فقالت : امرأة من اهل العراق ، لي خمس بنات كُسُل كسد قد رغب عنهن الأزواج لفقرهن فجئتك ابتغي حسن نظرك لهنّ . فأخذ الدواة والقرطاس وكتب الى والي العراق فقال : سمي كبراهن ، فسمتها ففرض لها ، ثم فرض للثانية والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله . فلما فرض للأربع استفزها الفرح فدعت له دون ان تحمد الله ، فرفع يده وقال : قد كنا نفرض لهنّ حين كنت تولين الحمد أهله ، فمري هؤلاء الأربع ان يفضن على هذه الخامسة مما اعطاهنّ الله ، فمضت المرأة بالكتاب الى العراق .

### الخوارج والحرورية

ورفق عمر بالحرورية والخوارج حتى امتلك قلوبهم : ودخل

عليه ناس من الحرورية فذاكروه شيئاً ، فأشار اليه بعض جلسائه ان يرعبهم ويتغيَّر عليهم ، فلم يزل عمر يرفق بهم حتى أخذ عليهم ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقي ، فخرجوا على ذلك.

فلما خرجوا ضرب عمر ركبة رجل يليه من أصحابه فقال : يا فلان ، اذا قدرتَ على دواءٍ تشفي به صاحبكَ دون الكيّ ، فلا تكوينّه ابدا [٣١٠]

## أهل الذمة

هذه التسمية تشريف للنصارى ابتدعها لهم الاسلام اذا دخلوا في عهده ولم يحاربوا المسلمين ، وهؤلاء عاملهم عمر معاملة قامت على اساس الاحترام والودّ [٣١١]. بل ان حرسه كانوا يدفعون عن اهل الذمة المظالم دون ان يأذن لهم عمر ، ولقد تفقّد يوماً حارسه عمرو بن مهاجر ثم جاءه فقال له : اين كنت ؟ قال : كنتُ خارجاً ادفع مظلمة عن رجل من اهل الكتاب [٣١٢] .

كان عمر حقاً يعامل اهل الذمة على اساس الودّ والاحترام فلم يحب ان ينسب اليهم انهم غير امناء كما فعل الحجاج ، وكان الحجاج قد ابتدع ان يُختَمَ على بيادرهم حتى يؤدوا الجزية ، فكره عمر ان يفعل فعل الحجاج وان يؤذي كرامة اهل الذمة [٣١٣]

وما أراد عمر ارهاق أهل الذمة وهم دافعو الجزية وزارعو

---

(٣١٠) ابن الجوزي ص ٦٢

(٣١١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٨٤

(٣١٢) ابن عبد الحكم ص ١٦٤.

(٣١٣) ابن الجوزي ص ٨٨

الأرض وإنهم لا يعاشرون المسلمين سنة أو سنتين ، وإنما هو لبقية الزمن كله[٣١٤] وما ونى عمر في تعليم الولاة حقوق الذميين وقد أمر زيد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة ان يكف عن ارهاقهم فكف ، وكتب الى عبد الرحمن بن نعيم : لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه ، [٣١٥]. وحين اراد أمراء بني أمية ان يتساهلوا في البلدان أخذ عليهم ألا يفسدوا على أهل الذمة ، وألا يتناولوا أحدا من الأمة [٣١٦] .

وخفف عمر من أثقال الجزية المفروضة على النصارى في كل بلد حتى في قبرص وايلة [٣١٧] ونجران في جنوبي بلاد العرب [٣١٨] وكان على اهل أيلة ثلثمائة دينار حين قدم يوحنا بن رؤبة على النبي صلى الله عليه وسلم من ايلة وهو في تبوك ، فصالح على الجزية ، وقرر على كل حالم بأرضه في السنة ديناراً فبلغ ذلك ثلثمائة دينار ، واشترط عليهم قِرى من مرّ بهم من المسلمين ، وكتب لهم كتاباً أن يُحفظوا ويُمنعوا ، فكان عمر لا يزداد على أهل أيلة عن الثلثمائة دينار شيئاً [٣٢٠]

ولم يكن عمل عمر في عزل اسامة بن زيد صاحب خراج مصر

---

(٣١٤) ابن عبد الحكم ص ٦٧
(٣١٥) الطبري ج ٥ ص ٣١٤
(٣١٦) ابن الجوزي ص ٧٧
(٣١٧) أيلة هي العقبة اليوم.
(٣١٨) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٨١
(٣١٩) معجم البلدان ج ١ ص ٣٩١

الا مؤازرة لقبطها . ولما كان زريق بن حيان على مكس مصر كتب اليه عمر يأمره ان ينظر في الصدقات فيأخذها من الأموال العَيْن ومما ظهر من التجارات، من كل اربعين ديناراً ديناراً، وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين ديناراً، فان نقصت تلك الدنانير فلا يأخذ منها شيئاً . وأما أهل الذمة فيؤخذ مما يديرون من تجاراتهم من كل عشرين ديناراً ديناراً ، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ثم يدعها فلا يأخذ منها شيئاً [٣٢٠]

●

ويبدو أن زيف التاريخ على عمر فيما يتصل بأهل الذمة جاء من انه كان قد نزع قبط مصر عن كُورها ، وكانت في أيديهم حسبة المواريث . ولما كانت جسبة المواريث عملاً يتصل بالدين فقد نزعها عمر عنهم واستعمل عليها المسلمين لأنه عمل أشبه بعمل القاضي منه بعمل المحاسب . ولما لم يكن هناك تشريع للمواريث بين النصارى فقد جعلهم يتوارثون كما يتوارث اهل الاسلام . [٣٢١] أما ما عدا ذلك فلا .

ولم يغبَ عن بال عمر ان بقاء دور العبادة من صلاح الأمة ، وأن الكنائس من دور العبادة التي تتهذب فيها النفوس وتصفو ، وقد قدم عليه اثنان من الخوارج فسألاه عن أهل العهود

---

(٣٢٠) الخراج لأبي يوسف ص ١٣٧

(٣٢١) انظر النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣٨ – الخراج لابي يوسف ص ١٣١

فقال لهم عهودهم ، فسألوا هل يكلفهم فوق طاقتهم؟ فقال : لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، فسألوه أن يخرّب الكنائس فأبى عمر عليهم وقال لهم : هي من صلاح رعيتي! [٣٢٢] ثم لم يهدم عمر كنيسة قديمة قط ولكنه هدم ما استحدث عملا بما كان مسنوناً حين ذلك في العهود [٣٢٣]

الرفق بالحيوان

وما زال رفق عمر يمتد به حتى أصاب الحيوان منه حظ ، وكان ظلم النفوس أطغاها فشدّ الناس اللجم الثقال على الخيل وحمّلوا الدواب ما لم تحمل ونخسوها بالحديد لتسرع ، وأركضوا الأفراس في اللهو واللعب ، فنهى عمر ان يجعلَ البريدُ فى طَرف السوط حديدة ينخس بها الدابة . ونهى عن اللجم الثقال [٣٢٤] . ونهى عن ركض الفرس في غير حق . وكان فيما كتب الى عبد الرحمن بن نُعَيْم : ولا تجر الشاة الى مذبحها ، ولا تحدّوا الشفرة

---

(٣٢٢) ابن عبد الحكم ص ١٧٤

(٣٢٣) اكثر صاحب تاريخ العرب المطول من اتهام عمر بالاساءة لاهل الذمة وكرر ذلك في مواضع كثيرة من كتابه . والحق ان عمر لم يحدث في معاملتهم شدة من عنده ، وانما كانوا هم الزموا انفسهم شروطا عند الفتح اشترطوها لعمر بن الخطاب وكان عليهم عهود للنبي من قبل فلما جاء عمر اكدها. وقد ذكر ذلك ابو يوسف القاضي لهرون الرشيد ـ الخراج لأبي يوسف ص ١٢٧ ، ١٣٠ ـ العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٦ ـ تاريخ العرب المطول ص ٣١٢ ـ تاريخ دمشق ص ٥٦٩ ، ٥٧٤

(٣٢٤) الخراج لأبي يوسف ص ١٨٦

على رأس الذبيحة [٣٢٥] . وكتب الى والي مصر يقول : إنه بلغني أن بمصر ابلًا ثقالات يحمل على البعير منها ألف رطل فاذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفنّ انه يحمل على البعير اكثر من ستمائة رطل [٣٢٦]

## الاصلاح

وما يعمر الناس الا لأمرين : أمر يراد به الزينة والأبهة وآخر يراد به زيادة الخصب والانتاج . أماذاك فحشد عمر له عزماً وشدة، ولو لم تعترضه بعض الأمور لقضي عليه في جميع البلدان وقوض منه كل بنيان. وأما هذا الذي يراد به الخصب فقد جعله كل همه ، ولم يأمر باستنباط ماء أو انشاء خان او اصلاح ارض الا اذا وثق أن الماء والخان والارض ستنفع الناس . ولقد جاءه عدي بن الفضَيْل يستحفره بئراً بالعذبة فقال له : وأين العذبة ؟ قال عدي : على ليلتين من البصرة ، فتأسف عمر ألا يكون بمثل هذا الموضع ماء ، فأحفره واشترط عليه ان يكون اول شارب ابن سبيل [٣٢٧]

ولما أمر عمر بعمل الخانات في البلدان القاصية كتب الى سليمان ابن أبي السري : ان اعمل خانات فمن مرّ بك من المسلمين فأقرُوه

---

(٣٢٥) الطبري ج ٥ ص ٣٢٤

(٣٢٦) ابن عبد الحكم ص ١٦٦

(٣٢٧) اول شارب : اكثره . الكامل للمبرد ج١ ص ٩١ــ وعذبة هذه موضع على ليلتين من البصرة كانت فيه مياه طيبة : ذكره لقيط بن يعمر الايادي فقال: تامت فؤادي بذات الجزع خرعبة * مرت تريد بذات العذبة البيعا: معجم البلدان ج ٦ ص ١٢٠ واظنها من بلاد مملكة الحيرة التي دمرت مدينتها .

يوماً وليلة ، وتعهدوا دوابهم . ومن كانت به علة فأقروه يومين ، وان كان منقطعاً فابلغة بلده [٣٢٨]

أما اصلاح الارض للزراعة فقد جعله جلّ همه. ومما كتب الى عبدالحميد بن عبدالرحمن في امر الخراج : وانظر الخراب فان أطاق شيئاً فخذ منه ما أطاق واصلحه حتى يعمر [٣٢٩]

مسجد دمشق

كان المسجد الجامع في دمشق في أقدم الأزمنة « بيتاً للمشتري» أحد آلهة الكلدان اذ كان المشتري طالعَ الديانات والتأله ، ثم صار هذا البيت في العهد النصراني كنيسة لأهل دمشق ، وجعلت للقديس يوحنا . ولما فتح المسلمون دمشق فتحوا شطراً منها عنوة وشطراً منها صلحاً : دخل أبوعبيدة من غربيها بالأمان ودخل خالد بن الوليد من شرقيها بالسيف ، ثم التقى الجيشان بالكنيسة الكبرى [٣٣٠] ، ولكن المدينة عدت مفتوحة كلها صلحاً إشفاقاً بأهلها واكراماً لهم . هذا في المدينة ، أما من خارج أسوارها فقد عدّ كله مفتوحاً عنوة .

وأبقى المسلمون على الكنائس القديمة في الأرض المفتوحة بدمشق عنوة او صلحاً لم يمسوها . وأبقوا حرية العبادة في داخلها لأهلها ، وكتب خالد بن الوليد لأهل دمشق : اني قد أمنتكم

---

(٣٢٨) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ١٨٤

(٣٢٩) الخراج لابي يوسف ص ٨٦

(٣٣٠) مسالك الابصار ج ١ ص ١٨٣

على دمائكم وذراريكم واموالكم وكنائسكم ان تُهْدَم اوتسكن . . .
وشهد على ذلك أبو عبيدة عامر بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان
وشرحبيل بن حسنة ٣٣١

اما الكنيسة الكبرى فقد شطرت شطرين ، إشارة للعنوة والصلح ، فبقي نصفها للنصارى وصار نصفها مسجداً . وأقيمت العبادة متجاورة في النصفين من الفريقين ، فتأذى المسلمون لمجاورة النصارى ، وتأذى النصارى لمجاورة المسلمين في العبادة . وظل الأمر على حاله منذ الفتح الى أن جاء الوليد بن عبد الملك فاحتال للأمر حتى خلص المسجد كله للمسلمين برضا أهل دمشق .

وكان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام من افضل خلفائهم ، فقد بنى المساجد ووضع بها المنابر : مسجد دمشق ومسجد المدينة والمسجد الأقصى ، وبنى قبة الصخرة . وحين أراد أن يبني مسجد دمشق هدم النصف الذي كان كنيسة وأدخله في المسجد بعد رضا الدمشقيين حيث صالحهم على كنيسة مريم ٣٣٢

---

(٣٣١) تاريخ مدينة دمشق ص ٥٦٩

(٣٣٢) ابن الاثير ج ٥ ص ٤ ـ حياة الحيوان ج ١ ص ٦٦ ـ هذه الكنيسة تسمى اليوم بالمريمية وهي عند الباب الشرقي لدمشق القديمة قريباً من الغوطة ، وفي المدخل المؤدي اليها منارة مسجد قد عطل . وقد زرتها في يوم السبت الرابع عشر من حزيران سنة ١٩٥٣ ودخلت اليها فرأيت في جدارها الامامي تجويفاً كتجويف المحراب وضعت فيه صورة للسيد المسيح عليه السلام .

وكانت هي الاخرى شطرين في يد المسلمين والنصارى . فلما تراضوا شرع الوليد في بنائه وتحسينه وتحصين بنائه ، أبقى منه ما ابقى وجدّد ما جدّد [٣٣٣].

وبدأ الوليد في بناء الجامع في السنة التي تولى فيها عمر بن عبد العزيز المدينة ، ودام العمل في بنائه وزخرفته بالجد والاجتهاد اكثر من عشرين عاماً ، وتم في عهد سليمان ، وعمل في بنائه اثناعشر الف صانع حتى صار أحد عجائب الدنيا القديمة ، وكان كذلك من قديم لتركيبه على الفلك [٣٣٤].

وكان جدار المسجد قصيراً فأعلاه الوليد ، ولما احتاج الى الصناع من خارج بلاده تهدّد ملكَ الروم بالغزو اذا لم يعنه بالعمال فاستجاب له فوجّه إليه مائتي صانع كما سأل [٣٣٥] وبينما كان العمال يبنون سقطت قبة الجامع ، وكأنما قد خان عمال بيزنطة فتهاونوا

---

وتجويف المحراب كله مغطى بالقاشاني الملون بالزرقة والبياض. وكانت جدران الكنيسة كلها كذلك غير ان حريق سنة ١٨٦٠ م اتى عليه. وقد سألت فقيل لي ان مساحة الكنيسة تقرب من مساحة المسجد الاموي ولها ارض زراعية حولها تسمى ارض البطريركية صارت بها الان مبان كثيرة .

ولا توجد كنيسة باسم توما ولكن حيا بكامله في دمشق يقال له باب توما وبه ما يقرب من سبع كنائس للطوائف المسيحية المختلفة. وهذا الحي يمتد حتى يجاور الكنيسة المريمية .

(٣٣٣) مسالك الابصار ج ١ ص ١٧٩

(٣٣٤) شذرات الذهب ج ١ ص ٩٧

(٣٣٥) مسالك الابصار ج ١ ص ١٨٣

لتسقط القبة وشيكاً إذا غادروا دمشق ، ولكن الوليد فطن لذلك فرجع فأقامها ، وأقام على الصناع أخاه سليمان ، لا يبرح حتى يتموا ما يبنون باتقان ، فبنيت القبة مرة ثانية بناء محكماً ، وعقد رأسها بالذهب وسُقّف المسجد بالرصاص .

وقد أسهم في بناء المسجد أهل دمشق ونواحي الشام ثم الجند من أهل مصر وأهل العراق ، وكان يَفْضُل عند الرجل من أهل الشام الفَلْس ورأس المسمار فيجيء به حتى يضعه في الخزانة من أجل المسجد ، وحُشِدَ الناس ليجمعوا له الرخام والمرمر ما لا تُدْرَى قيمته ، وزينت جدرانه بالنقوش والفسيفساء .

انفق فيه الوليد أربعمائة صندوق ، في كل صندوق أربعة عشر الف دينار ، ثم بلغ الوليدَ أن أهل دمشق أرجفوا به وتكلموا فقالوا : محق الوليد بيوت الأموال في نقش الخشب وتزويق الحيطان ! فقال لهم : يا أهل دمشق ، إني رأيتكم تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فاحببت أن يكون مسجدكم الخامسَ ! ثم مات الوليد ولم يتم بناء المسجد فأتمه أخوه سليمان . ولما تم البناء والزخرف كان فيه ستمائة سلسلة من الذهب تحمل القناديل وما زالت به حتى جاء عمر بن عبد العزيز [٣٣٦]

●

فلما جاء عمر بن عبد العزيز ومضى قدماً في تحقيق العدالة والرفق بالناس قالت النصارى : يا أمير المؤمنين ، قد علمت حال كنيستنا ! قال : انها صارت الى ما ترون ، وان ما كان خارج

(٣٣٦) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٦

المدينة فتح عنوة ، ونحن نرد عليكم كنيستكم ونهدم كنيسة توما فانها فتحت عنوة ونبنيها مسجداً ! فقالوا : بل ندع لكم هـذا ودعوا كنيسة توما .

قال ابن المعلّى : وبلغني عن الوليد بن مسلم عن ابن جابر انهم رفعوا الى عمر بن عبد العزيز ما أخذوا عليه العهد في كنائسهم ، فكلمهم ورفع لهم الثمن حتى بلغ مائة الف فأبوا ، فكتب الى محمد ابن سويد النهري أن يدفع اليهم كنيستهم الا أن يرضيهم فأعظم الناس ذلك — وفيهم بقية أهل الفقه — فشاورهم محمد بن سويد متولي دمشق فقال الفقهاء : هذا امر عظيم ! تدفع اليهم مسجدنا وقد أذّنا فيه بالصلاة ؟ يهدم ويصير كنيسة ؟ فقال رجل منهم : ها هنا خصة ، لهم كنائس عظام حول المدينة : دير مرّان وباب توما والراهب وغيرها ، ان أحبوا ان نعطيهم كنيستهم ، ولا يبقى حول دمشق كنيسة الا هدمت ، وان شاءوا تركت هذه الكنائس ونسجل لهم سجلا . ثم عرضوا عليهم ذلك فقالوا : أنظرونا ننظر في امرنا ، فتركهم ثلاثا ، فقالوا لمحمد بن سويد : نحن نأخذ الذي عرضت علينا ، ونكتب الى الخليفة نخبره بذلك ويسجل هو لنا بامانٍ على ما في الغوطة ، فكتب الى عمر فسرّه ذلك وسجل لهم كنائسهم انهم آمنون ان تخرب او تسكن ، وأشهد لهم شهوداً بذلك [٣٣٧]

ولم يغب الزمن كثيراً ، وفكر عمر في الاصلاح . فذكر الكعبة ومسجد المدينة ومسجد دمشق ، وذكر صفائح الذهب وسلاسل

(٣٣٧) ابن الاثير ج ٥ ص ٥ — مسالك الابصار ج ١ ص ١٩٠

القناديل والرخام والفسيفساء ، وكان العدل عنده واسعاد الناس اولى من هندسة المدن وتنظيمها وترميم المساجد وتذهيبها فقال : رأيت أموالاً انفقت في غير حقها ، فأنا مستدرك منها فرادُه في بيت المال ! : أعمد الى ذلك الفسيفساء والرخام فأقلعه وأطيّنه ، وأنزع تلك السلاسل وأجعل مكانها حبالاً ، وأنزع تلك البطائن وابيع جميع ذلك من مسجد المدينة ومسجد دمشق . ثم امتدت يد عمر الى السلاسل الذهبية اول ما امتدت لأنها أنفقُ في سوق الشراء ، فأخذها وباعها وجعلها في بيت المال ، واتخذ عوضها صُفْراً وحديداً [٣٣٨]

وعرف اهل دمشق فاشتد عليهم الأمر ، وبينما كان عمر في دير سمعان ذات زيارة خرج اليه أشرافهم وفيهم خالد بن عبد الله القسري فقال لهم خالد : ايذنوا لي حتى اكون انا المتكلم ، فأذنوا له ، فلما أتوا دير سمعان استأذنوا عليه ، ثم قال له خالد : بلغنا يا أمير المؤمنين انك هممت بكذا وكذا ، قال : نعم ، فقال خالد : والله مالك ذلك ! فغضب عمر وعادت اليه حدته فقال له : لمن هو ؟ لأمك الكافرة ؟

وكان خالد القسري من أم ولد نصرانية ، ولم يكن من حق عمر ان يقول له ذلك الا انها الحدة ظلت معه تلازمه ، وتدنيه من الزلل . فقال له خالد : ان كانت كافرة فقد ولدت مؤمناً ! فاستحيا عمر وقال : صدقت ! فما قولك والله ما ذاك لي ؟ قال خالد : لأنا كنا معشر أهل الشام واخواننا من اهل مصر والعراق

(٣٣٨) حياة الحيوان ج ١ ص ٦٦

نغزو فيفرض على الرجل منا ان يحمل من ارض الروم قفيزاً بالصغير من فسيفساء وذراعاً في ذراع من رخام فيحمله اهل العراق وأهل حلب الى حلب ويُستأجر على ما حملوه الى دمشق . ويحمل اهل حمص الى حمص فيستأجر على ما حملوه الى دمشق . ويحمل اهل الشام ومن وراءهم حصتهم الى دمشق . فذاك قولي ماذاك لك ! فسكت عمر .

وفيما كان عمر لا يزال مصراً على ما نوادوقد اراد المضيّ ورأى ان يبدأ بتجريد قبلة المسجد من الذهب محتجاً بأنه يشغل عن الصلاة قالوا له : يا أمير المؤمنين ، انه أنفق عليه في سبيل المسلمين وأعطياتهم ، وليس يجتمع منه شيء ينتفع به ، فأراد أن يبيضه بالجص ، فقيل له : تذهب النفقات فيه ، فأراد أن يستره بالخزف فقيل له: ضاهيت الكعبة ، فبينما هو كذلك اذ جاءه بريد من والي مصر يخبره أن قارباً ورد عليه من رومية فيه عشرة من الروم يريدون الوصول الى امير المؤمنين فأذن لهم، وأمر أن يوجه معهم عشرة من المسلمين يحسنون الرومية ، لكل واحد واحد — ولا يعلمونهم أنهم يعرفون لغتهم ، حتى يحملوا إليّ كل كلامهم ، الا الرئيس ، فساروا حتى نزلوا دمشق خارج باب البريد . فسأل الروم رئيس العشرة من المسلمين أن يستأذن لهم في دخول المسجد فأذن لهم ، فمروا في الصحن حتى دخلوا من الباب الذي يواجه القبلة ، فكان اول ما استقبلوا المقام، ثم رفعوا رؤوسهم الى القبة، فقال رئيسهم : كم للاسلام ؟ قالوا : مائة سنة. فقال : كيف تصغّرون أمرهم ؟ ما بنى هذا البنيان الا مُلك عظيم ! ولم ينته من

قوله حتى خرّ مغشياً عليه ، فحمل الى منزله ، فأقام ما شاء الله ان يقيم ، ثم افاق ، فقال له أصحابه بالرومية : ما قصتك ؟ وما الذي عرض لك ؟ قال: كنا معشر أهل رومية نتحدث أن بقاء للعرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمتُ ان لهم مدة سيبلغونها ، فلذلك أصابني ما أصابني !

فلما قدموا على عمر اخبروه ، فقال : أما إذ غايَظَ العدو فإني أدعه . فترك ما كان همّ به من أمره [٣٣٩]

حسن البيان

كرِهَ عمر اللحن ومجاوزة الحق في القول وكره جفوة الكلام ومن اجل اللحن كره الوليد، ومن مجاوزة الحق كره الحجّاج ، ومن الجفوة اخذ يؤدب الجافين ولا يستكتب واحداً منهم . وقد دقّ ذوق الرجل للكلام لانه حسب له حسابه في امور السياسة وامور الاجتماع . وكان انكبابه على علوم الدين والحديث والقرآن ، منذ اول ، سبيلاً لارهاف حسه اللغوي بين قوم من خالصة العرب كلهم مرهفون .

ولقد ارتعد عمر حين قال رجل لرجل في حضرته : تحت ابطك ، فقال عمر : وما على احدكم ان يتكلم بأجمل ما يقدر عليه! قالوا : وما ذاك ؟ قال : لو قال تحت يدك كان أجمل !

وجيء بكاتب يخط بين يديه، وكان مسلما من أب لم يسلم، فقال عمر للذي جاء به : لو كنت جئت به من ابناء المهاجرين ! فقال الكاتب : ما ضرّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كفرُ أبيه! فقال

(٣٣٩) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢

عمر : قد جعلته مثلاً ؟ لاتخطّ بين يدي بقلم أبداً [٣٤٠]

ولم يؤمن عمر بقول لا يحققه العمل. بل كان يرى القول والعمل شيئاً واحداً وانما أحدهما بعض الآخر ، ومن لم يجعل كلامه من عمله كان مذنبا كثير الذنوب [٣٤١] ، ولعله لم يفطن الى ذلك كل الفطنة الا بعد ان تلقى الناس على الحجاج بن يوسف فنون الأكاذيب وزور الحديث ، فنهض عمر من بعده يقعدهم عن الاقتداء به ويردّهم الى الحياة الحقة التي لا يختلف فيها طريق القول وطريق العمل اذ هما طريق واحد لمن أراد ان يكون على الهدى والسداد.

أما الكلام الحقّ فسماه عمر سحرا حلالا ، وأما هو فقد اصدر عن نية صارمة وقلب صادق حين تكلم ، ولذلك سمعت آذان الناس في مدته ومنه صوتاً صارخاً لم تسمعه من قبل الا في صوت رسول الله وبعض أصحابه ، وحتى العظة الخالصة وقراءة القرآن كانت منه تثير القلوب والأشجان . وقد خطب مرة بالقرآن فقرأ « اذا الشمس كورت » وكان يقرأها بصوت يبكي ودمع يثور ، فارتج المسجد كله بالبكاء حتى ظُنت حيطان المسجد كأنما تبكي معه ومع الناس .

حتى اذا رأى الناسَ قد أخذوا بقوله وافتتنوا ببلاغته قطع كلامه مخافة ان يطغى رنين الكلام على معناه ومخافة المباهاة ، ومع أنه كان شديد التحفظ في كلامه عظيم الحرص على الحق فيه حتى قيل : ما رؤي رجل أشد تحفظاً في منطقه من عمر بن عبدالعزيز-

---

(٣٤٠) ابن الجوزي ص ٢٤٠، ٢٤١، ٦٢

(٣٤١) الطبري ج ٥ ص ٣٢٤

مع ذلك كله كان يقطع كلامه اذا فتن به الناس . وقد خطب يوم عيد فأرقّ كلامه فأبكى الناس جميعاً يميناً وشمالاً ، ثم قطع كلامه والناس ينتظرون ان يكمل ، ونزل ، فدنا منه رجاء بن حيوة فقال له : يا أمير المؤمنين ، كلمتَ الناس بما ارقّ قلوبهم وأبكاهم ثم قطعته أحوج ما كانوا اليه ، فقال : يا رجاء ، اني اكره المباهاة [٣٤٢]

وكما كان عمر صادقاً في قوله كان حَسَن الاداء حتى انه ليفتن المسافر عن سفره فيقيم ليسمعه ، ومن أقام ليسمعه المرة تلو المرة ودّ ألا يرتحل . ولقد سمعه رجلٌ يقال له عديّ بن الفضيل ، وكان ممن يعجبه القول البليغ والاداء الحسن — سمعه في يوم جمعة وهو يخطب ، وكان عديّ مسافراً فأقام ، وما زال مقيماً شهراً ما به الا انتظار الجمعة او انتظار الفرصة لاستماع كلامه [٣٤٣]

وما من خطبة لعمر ولا كتاب ، ولا كلام ولا توقيع الا وهو يضرب في البلاغة بسهم . وقد اشتهرت له كلمات صار لهنّ مقام الحكمة وبليغ الأثر . وذلك مثل قوله : ما بسط أمل امن لا يدري ، لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا — ألا واني لست بمبتدع ولكني متبع — لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق — انما هي خطايا مطوقة في اعناق الرجال ، وان الهلاك كل الهلاك الاصرار عليها — انقوا الله واجملوا في الطلب — ما قرن شيء الى شيء أحسن من

(٣٤٢) ابن الجوزي ص ١٦٣، ١٦٥، ١٨٥ — العقد الفريد ج ٢ ص ٩٢
(٣٤٣) الكامل للمبرد ج ١ ص ٩١

علم الى علم ، ومن عفو الى مقدرة — لقاء الرجال تلقيح لألبابها — ان رجلا ليس بينه وبين آدم أب حيّ لمعرق في المـــوت — من جعل دينه غرضاً للخصومات أسرع التنقل [٣٤٥]

وله توقيعات على كتب العمال تدل على صدق فراسته وفهمه وبصره بالدليل ، وما سُمع انه هاب ان يوقع على كتاب للخليفة حتى وهو والٍ تحته ، فقد وقع على رقعة للوليد بن عبدالملك حين كان عاملاً له على المدينة يقول : الله اعلم أنك لست اول خليفة يموت . وقد وقّع في قصة متظلم : العدل أمامك . وفي رقعة رجل شكا زوجته : أنتما في الحق سيّان . وفي رقعة رجل يشكو ابنه : ان لم انصفك منه فأنا ظلمتك!

وكان عمر مع تحفظه في المنطق وحرصه على الحـــق سريعَ الخاطر في سبك الكلام ، فالعدّة لديه حاضرة والصدق يعينه ، فلم يكن ليحتال او يبطىء اذا أعوزه القول الحـــاضر والأمر الحازب ، وطالما كانت اجاباته المرتجلة على الوليد مقنعة له ولأولاده بخاطر عمر وشدة حذقه . وكانت اجاباته السريعة للناس اهون عليه من اجاباته للوليد ، وقد قال له رجل : نحن بخير ما ابقاك الله ! فقال له : انت بخير ما اتقيت الله تعالى ! [٣٤٦]

ولما آمن عمر أشد الايمان بفعل البلاغة في نفوس الناس ، لم

---

(٣٤٥) عيون الاخبار : كتاب العلم والبيان ص ١٢٦ — ابن الجوزي ص ٦٣ ، ٢١٧ — الموافقات ج ٤ ص ٣٢٠

(٣٤٦) انظر باب التوقيعات بالعقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٨ — الحكمة الخالدة ص ١١٧

تحمد همته فيها ، ورأى حسن البيان شرطا لازماً للحاكم عامة ، فاذا تولى الحاكم هداية الناس وكان زعيم ارشادهم كانت البلاغة له ألزم ، وقوة البيان أولى ، ولم يغب عن عمر — راشداً — أن لأجادة القول سيطرة على القلوب وهيمنة على النفوس ، وقد يقاد بها الناس كما تقاد الابل الآنفة لتحمل على الطريق .



obeikandl.com

# دعوة الخير

•

القدرية والعصاة

لقد اضطرب قلب عمر للرعية تأخذها الضلالة ويردّها الزيغ ، فحشد نفسه وبلاغته لها لعله يهديها ، وحارب ضلالة الناس باعتقاده السليم ، وثبت لديه أن عذاب هذه الأمة انما يكون بالفتن بينها في الدنيا ، وكره أن تبدأ الضلالة بالكلام في القدر والتكذيب به . وقد حدّث عمرو بن مهاجر أنه سمع عمر بن عبدالعزيز يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هلكت أمة بعد ايمانها الا بشركها ، وما كان بدء شركها الا التكذيب بالقدر [٣٤٧]

ورأى عمر في أهل الكلام بالقدر أن يستتابوا ، فان تابوا خلى سبيلهم والا نفاهم . ولم يكن عمر مبتدَع هذا الرأي ولكنه تأثر خطى عمر بن الخطاب الذي كان يقول : إنه لا عذر لأحدٍ عبَدالله

(٣٤٧) تاريخ داريا ص ٨٣ ، ٩٢

بعد البيّنة بضلالة ركبها حسبَها هدى، ولا في هدًى حسبه ضلالة فقد تبينت الامور وثبتت الحجة وانقطع العذر ، فمن رغب عن انباء النبوة وما جاء به الكتاب تقطعت من يده أسباب الهدى ولم يجد له عصمة ينجو بها من الردى [٣٤٨]

وكان هناك بناحية سجستان وهراة وخراسان فرقة من الخوارج تقول بتكفير الأمة وتبرأ من الختنين عثمان وعليّ، ويتولون الشيخين، ويسبون ، ويستحلون المحارم ، ويأخـــذون ببعض القرآن ولا يقولون بالسنة أصلا ، وكانوا مع ذلك شجعانا تقاتل نساؤهم على الخيل مضمرات كما يقاتل رجالهن .

وبناحية هراة واصطخر جماعة من الشراة يكفرون اصحاب المعاصي في الصغائر والكبائر ، ويرون رأى الحرورية في الخلفاء ولكنهم يستحلون الأموال ولا يَسْبون النساء ، ولا يخالفون في دين ولا سنة ، وكانت لهم دنيا واسعة ولهم خصب ومروءة [٣٤٩] .

واشتعلت في الشام فتنة غيلان الدمشقي فانه كان من أهـــل القدَر والمتكلمين فيه وكان أهل القدر يقولون بارادة الانسان كما قال أهل الاعتزال من بعد - فعدّ عمر ذلك غلواً في القول ، ورأى أنه لو كان شيء لم يسبق في علم الله لكان له شركاء تنفـــذ مشيئتهم في الخلق دونه . [٣٥٠] وكان هنا وهناك وفي كل مكان بلبلة واضطراب وزيغ وضلالة ، فرأى عمر ان يجادل كل هؤلاء

---

(٣٤٨) ابن الجوزي ص ٦٨

(٣٤٩) التنبيه والرد ص ٥٦ ، ٥٧

(٣٥٠) ابن الجوزي ص ٦٩

ليهديهم سواء السبيل .

أما غيلان فأتى به عمر وحاجّه فلزمته الحجة فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد جئتك ضالاً فهديتني ، وأعمى فبصّرتني ، وجاهلاً فعلمتني والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر ابداً . وأدرك عمر خبث غيلان فهدده وتوعّده فقال : والله لئن بلغني انك تكلمت في شيء منه لأجعلنّك نكالاً ! فلم يتكلم غيلان في شيء حتى مات عمر ، فلما مات سال فيه غيلان سيل الماء او سيل البحر [٣٥١] .

وأما خارجة الحرورية بناحية الموصل فأخافت الطريق وأراقت الدماء ، فأرسل عمر فحملهم على مراكب البريد ، ثم أذن لاثنين منهم ان يخاصماه ، فلم يدع لهما حجة حتى كسرها فقالا : نرجع على أن نسيح في الارض ، وأقسموا على ألا يخيفوا سبيلاً ولا يريقوا دماء ، فان فعلوا فقد أذنوا بالحرب ، فساح أحدهما فأراق الدماء وأخاف السبيل ، فبعث اليه عمر بسعيد الجرشيّ في اهل الكوفة فقتلوه وقتلوا اصحابه .

وكتب عمر الى بعض العاصية الذين خرجوا : من عبدالله عمر ابن عبدالعزيز أمير المؤمنين الى يحيى بن يحيى والعاصية الذين خرجوا ، سلام الله عليكم ، اما بعد ، فان الله عز وجل يقول : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين » .. ثم جعل يلزمهم الحجة ثم قال : واني أقسم بالله لو كنتم ابكاراً من ولدي وتوليتم عما دعوتكم اليه ولم تجيبوا لدفعتُ دماءكم التمس

(٣٥١) التنبيه والرد ص ١٥٨

بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة ، فهذا النصح ان اجبتم ، وان استغششتكم فقديماً استغش الناصحون [٣٥٢]

وخرج في سنة مائـــة بسطام شوذب اليشكري في نواحي العراق ، وكان في ثمانين رجلًا ، فكتب عمر الى عبدالحميد بن عبد الرحمن ألا يحركهم حتى يسفكوا دماً ويفسدوا في الارض ، فان فعلوا وجّه اليهم رجلًا صليباً حازماً في جند ، فبعث عبُد الحميد محمد بن جرير بن عبدالله البجليّ في ألفين وأمر بما كتب عمر .

وارسل عمر الى بسطام كتاباً يسأله فيه عن سبب خروجه ، فبلغه الكتاب والبجليّ بالجند في وقتٍ معاً ، وقام البجليّ بأزائه لا يتحرك كما أمر ، وكان في كتاب عمر : بلغني انك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولستَ أولى بذلك مني ، فهلمّ إليّ أناظرك ! فان كان الحق بأيدينا دخلتَ فيما دخل فيه الناس ، وان كان في يدك نظرنا في أمرك . فرضي بسطام بما رأى عمر ورأى انـــه انصف وعدل فأرسل اليه برجلين يناظرانه أحدهما مولى حبشي لبني شيبان اسمه عاصم ، وآخر يشكريّ ، فقدما على عمر بخناصرة فدخلا اليه فناظرهم وناظراه .

وجاءه الخارجيـــان بسبّ بني أمية ، وطلبوا منه ان يتبرأ منهم — ولم يكن السبّ من شأن عمر — فجادلهم فيه حتى رضوا برأيه وأقروا أدَبه ، وأراهم أنه لا يستطيع أن يتـبرأ من أهله ، وقد اكتفى بافقارهم وحمى العبادَ منهم ، ولم يَرَ عمر أن يجري في المضمار بأكثر من ذلك ، فـان في أهـل بيته المحسن

(٣٥٢) التنبيه والرد ص ١٧٤ — ابن الجوزي ص ٧٧

والمسيء ، والمصيب والمخطيء .

وجاء الخارجيان باقرار عدله وإنصافه ، ولكنهما طلبا إليه أن يخلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد، وجاءهم عمر بأن يُنْظروه لينظر في خلع يزيد من بعده إن حانت له الفرصة .

أما عاصم فشهد بأن عمر على الحق وأقام عنده، وأما البشكري فرأى أن يرجع ليرى رأي من بعثوه . وأما البجليّ قائد جند عمر فظل قائماً مقابل الخوارج لا يتعرض لهم ولا يتعرضون له . كلٌّ منهم ينتظر عودة الرسل من عند عمر . فتوفي عمر والأمر على ذلك . وأسرع بنو أمية إلى دسّ السمّ لعمر مخافة خلع يزيد [٣٥٣] .

### جند المسلمين

وهكذا انطلق الشرّ والهوى في بلاد المسلمين وامرائهم . وكانت على الثغور والآفاق جيوشٌ تتعثر واخرى تتمزق وتذوب. فرأى عمر أن تمسك الأقواس عن سهامها حتى تقوى الدولة من داخلها ويتعلم الناس في البلاد التي فتحت حقيقة الاسلام ، وذلك خير من أن يتسع الخرق على الراقع .

حقاً إنه لم يشتهر عن عمر بن عبدالعزيز انه على علم بفنّ الحرب، ولم يسبق له ان اشترك في غزوات مع الجيش سوى ما قيل من انه سار مع سليمان مرة الى الصائفة ثم اختلفا فرجع عمر ومضى سليمان . ولقد قيل لذلك ان عمر أخطأ حين ردّ جيوشه من الثغور

---

(٣٥٣) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٣

فعطّل الفتوح التي كانت توشك ان تخـــترق اوروبا من الشرق والغرب وتلتقي في قلبها على أشلاء الروم والقوط وسائر الفرنجة ثم يلفظ الشرك انفاسه في خضمّ الارض. لكن عمر جاء يخالف بني امية في سياسة الفتوح . لأنه كان يشهد من بُعْد ان الفتوح لم تأتِ بما يُرْجى منها للدين إذ كان الغرض الأول من الفتح أن يُـــدْعى الناس الى السلم فيؤمنوا ، ولكن الفتوح ارتدت كلها تطلب الغنى والثروة والسبايا والعبيد . وليت الأمر اقتصر على ذلك بل انهـا ارتدّت الى الضدّ مما كانت ، فقد صارت مربحـة للأمراء والولاة على البلدان ، لا يضعون الجزية عمن يسلمون لئلا يُقفر بيت المـال كما يقولون ،فلم يعد الناس يرون من فائدة لهم اذا دخلوا في الاسلام.

وكانت طبقة القواد والجنود التي تتولى الفتح اليوم غير الطبقة الاولى من الاصحاب والتابعين ، فلم تكن تدرك تمـام الادراك حماسة هؤلاء لدينهم الذي انساحوا من اجله لفتوح البلدان ،وكانت الفتوحات العسكرية تثقل كاهل الفاتحين ، وما يأتي منها من غنائم يوزع على السادة دون العبيد ، ولا يدخل الاسلام هذه الأرضين الا قلقاً غير معروف . وان النطاق الضيّق الحصـــين لأفضل للاسلام نفسه من هـذا النطاق الفسيح الذي اصبح كله محوطاً بأضعف الثغور. هكذا رأى عمر او لعله، فردّ الجند عن الثغور .

واهتدى بما رأى إلى الصواب كله ، فان الأمر كان اكثر مما يُظَنّ ، ولم تكن البلاد التي تواجه الفتح بالهيّنة السهلة حتى يضحّى أمام أسوارها بالجند والمـال ثم لا تُفْتَح ، وإن فتحت فانهـا لا تزيد المسلمين إلا عبئاً وهماً ثقيلاً .

ومضى عمر في رأيه فردّ من فوره جند المسلمين عن الآفاق إلا ما كان في معركة يخوضها أو على ثغر يخاف عليه [٣٥٤]. وكان اول ما خيف عليه جندُ مسلمة بن عبد الملك، وكان قد حاصر القسطنطينية في ايام سليمان أشد حصار فرضه العرب عليها وتوالت فيه امدادات البر والبحر، ونصب المنجنيق، ورَمَى العربُ الرومَ بالنفط وأسرع أسطول مصر للنجدة، وكادت القسطنطينية تسلّم لولا ان الامبراطور « ليو الايصوري » السوريّ الأصل وفّق في انقاذ المدينة من مسلمة .

ثم استعان الرومُ والبلغار بالمجاعة والأوبئة وأهوال البرد فزادت بليةُ المسلمين . ومات سليمان بن عبد الملك حين ذلك فلم يثبط موته من عزيمة أخيه مسلمة ، وظل يحاصر المدينة وجيشه يذوب ويهلك ، فأرسل اليه عمر يأمره بالقفول بمن بقي معه مخافة هلاك الجند كافة ، فصدع مسلمة بالأمر وقَفَل في معونة من الخيل والطعام من قِرَى الناس فأتت على البقية الباقية معه وهو قافل عاصفة هوجاء [٣٥٥] . ثم أمر عمر جند طرندة بالقفول عنها الى ملطية [٣٥٦].

أما الحرب في اقصى الشرق وأقصى الغرب فقد استمرت في نطاق ضيق، وقد ظل السمح بن مالك الخولاني يحارب في الاندلس

---

(٣٥٤) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٧٦

(٣٥٥) تاريخ العرب المطول ص ٢٦٧

(٣٥٦) طرندة بلدة من ملطية على ثلاث مراحل داخلة في بلاد الروم — النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤٢

حتى استولى على «سبتمانيا» ثم نزل «اربونة» التي صارت حصناً منيعاً للعرب فيما بعد وصارت دار صناعة ومستودعاً للمؤن والمعدات [٣٥٧] وقاتل حاتم بن النعمان الباهلي عن أذربيجان وطرد عنها المغيرين [٣٥٨].

بدعة معاوية

وكانت سرت في البلدان بدعة قد وُقِحَتْ فكشفت عن وجهها ثم سارت، سارت تطأ كل المنابر وتصرخ في كل الآذان، ولم تستح فصعّدت في مسجد رسول الله وبين أهله وعلى منبره، كان ابتدعها معاوية بن أبي سفيان، وأصدر أمره الى الولاة ان يجعلوها تقليدا في خطب الجماعة، وظن معاوية أنه ما يزال يدق بها الآذان ويقذف بها في الصدور حتى تميل اليه.

وأراد معاوية أن يشيد ملكه ويقرر في انفس الناس أن بني هاشم لا حظ لهم في هذا الامر، وأن سيدهم الذي به يصولون ويفخره يفخرون هذا حاله وهذا مقداره فيكون من ينتمي اليه ويَدِلُّ به عن الأمر أبعد، وعن الوصول اليه أشحط وأنزح [٣٥٩].

وظن معاوية أن الناس اذا كرهوا وجه السوء في بداءة الرؤية فانه حين يعود ويشمل ويتكرر تذهب عنه الوحشة ويتوارى منه القبح، وظن معاوية انها ستكون غداً عادة مألوفة وسنة شريفة فاذا غابت عن الناس يوما اشْتاقوا لها وحنوا اليها.

وأخطأ معاوية الرأي وجاوز الحلم الذي قالوا إنه وُسِم به،

---

(٣٥٧) تاريخ العرب المطول ص ٥٩٥

(٣٥٨) حماة الاسلام ج ١ ص ١٧٦

(٣٥٩) خطط الشام ج ١ ص ١٥٥ عن ابي الحديد.

وعادت البدعة بغير ما ظنّ ورأى ، فانها كانت تحدث في نفوس الناس وجمة غيظ واستغفارة ندم يفطن لها الخطيب الفطين فيعثر ويتلعثم ، وتغيب عن غير الفطن فتنطلق اللعنة عليه جارفة صارخة من القلوب .

وقدّم معاوية الخطبة على صلاة الجمعة لأن الناس كانوا يكرهون سماع اللعن فكانوا اذا أدّوا الصلاة خرجوا من المسجد ، فألزمهم بتقديم الخطبة سماعَ المسبّة ، ولكنهم كانوا اذا فرغوا من سماع الخطبة اجتمعوا - ولا سيما الطالبيون - بعد كل صلاة وصبّوا لعناتهم على بني أمية جميعاً .

وخاض خطباء البلدان في دم البدعة فسبّوا علي بن أبي طالب على المنابر بأمر الأمير ، وجاوز خطباء بني أمية حدّ النهية والمروءة في الجهر بها ، ونطق بها عبد العزيز بن مروان فيمن نطق على منبر المسجد الجامع بفسطاط مصر ، ولكنه كان فطنا فقلق ورجف وتعثر وتلعثم كلما همّ بها فأحسّ القلوب تغضب ورأى الوجوه تشيح وسمع الأفواه تزفر ، ولكنه كان تقليداً مرسوماً ، ولم ينهه احدٌ عنه ، ولو وجد من يكفه لكفّ أو لعلّه !

وقد قال عمر بن عبد العزيز : كان أبي اذا خطب فنال من عليّ رضي الله عنه تلجلج ، فقلت : يا أبت إنك تمضي في خطبتك فاذا أتيت على ذكر علي عرفتُ منك تقصيرا ! قال : أوفطنت الى ذلك ؟ قلت : نعم ، فقال :

يا بني ، ان الذين حولنا لو يعلمون من عليّ ما نعلم تفرقوا عنا الى اولاده .

ولكن عمر بن عبد العزيز لم يتعظ بما فعـــل أبوه ، وغلبه الصّبا والنسيان ، فحين عاد الى المدينة يتعلم خاض في البدعة ونزع إليها منازع أهله، ولم يكن يعرف في نفسه حباً لعلي بن أبي طالب حتى دله عليه راهب قريش .

قال عمر : كنت بالمدينة أتعلم العـلم ، وكنت ألزم عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود فبلغه عني شيء من ذلك فأتيتـه يوماً وهو يصلي فأطال الصلاة ، فقعدتُ أنتظر فراغه ، فلمـا فرغ من صلاته التفت إليّ فقال لي : متى علمتَ ان الله غضب على اهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم ؟ قلت : لم اسمع ذلك ، قال : فما الذي بلغني عنك في علي ؟ فقلت : معذرة الى الله والبك، وتركتُ ما كنتُ عليه ! [٣٦٠] .

وكان نشأ عن فتنة عثمان وفتنة يزيـد أنْ سبّ بعضُ الناس عثمان مع تورع السلف الناجين عن سبّه ، ومدح بعضهم يزيد بن معاوية مع اجماع الناس على رميه بالخطأ،قد اختلف الناس هكذا، ولم يكن لهم أن يختلفوا في الرجلين هذا الاختلاف حتى لو كان اختلافهم للتعصب والعناد ، فالحلال بيّن والحرام بيّن ، ولكن الناس في الأرض عشاق ضلالة وأنصار خلاف .

وقد جيء عمر برجل سب عثمان فقال : لم سببته؟ قال الرجل: أبغضتهُ ! فقال له عمر : أو كلما أبغضتَ رجلا سببته ؟ ثم ضربه

---

(٣٦٠) ذكر الخضري في تاريخه ج ٢ ص ١٨٤ ان ذلك حدث من عمر وهو في امرة المدينة وهو وهم من الخضري ترده شهادة عمر نفسه كما ذكرنا – ابن الاثير ج ٥ ص ٢٠

ثلاثين سوطا . ثم سمع رجلاً يتشدق ويقول : أمير المؤمنين يزيد بن معاوية فضربه عشرين سوطا .

### بدعة الناس

وأثرت بدعة معاوية في الناس فابتدعوا سب الخلفاء أو بعضهم. وصار سبّ الناس بعضهم بعضاً عادة . وكما سبّت امية علياً سبّ الطالبيون بني اميّة ، وحيث هانت مقادير الرجال فقد صار السب لمن دون العظماء أهون وأسهل ، وقد جهد عمر في ان يمنع الناس عن عادة السب حتى ان الرجل كان يأتيه مظلوماً فيشكو له ظلمه فيهمّ ان يقضي له فاذا سبّ خصمه لم يقضِ وتركه ومظلمته .

إنه كان يعتقد ان السبّ ينتقص الحق ، ولقد مات الحجاج وهو يقول : اللهم اغفر لي فان الناس يزعمون انك لا تفعل ، فنفسها عليه عمر وظنها منجاة له وأمسك دونه . وحين دخل عليه رياح بن عبيدة وذكر عمرُ الحجاجَ شتمه رياح ووقع فيه ، فقال له عمر : مهلاً يا رياح ، إنه بلغني ان الرجل ليُظلم فلا يزال المظلوم يشتم الظالم ويتنقّصه حتى يستوفي حقه ويكون للظالم الفضل عليه .

ولما استوى عمر خليفة رأى ان يمحو البدعة ويدفع الناس عن سفساف الأمور ، فكان أول ما أمر به ان منع الناس عن سب علي في الخطبة على منابر البلدان [٣٦١] . وأثبت عمر في مكان السبّ قوله تعالى : ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ،

---

(٣٦١) الفخري ص ١٧٦ ـ التنبيه والرد ص ٥٢ ـ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٣٤

وكتب بذلك إلى الأمصار .

ولما أبطل سبّ عليّ أقبل عليه كثير عزّة ينشده ويقول :

وليتَ فلم تشتم علياً ولم تخف بريّاً ولم تتبـــع مقالة مجرم
تكلمتَ بالحق المبين وانمـــا تبيّن آياتُ الهـدى بالتكلم
وصدّقتَ معروف الذي قلت بالذي فعلتَ فأضحى راضيا كلّ مسلم

فلما أتم كثير عزة إنشاده قال عمر : أفلحنا اذن ! [٣٦٢]

وكان الخلفاء يغلظون في العقوبة لمن يسبّ أحداً لايرضون سبه ، ولم يكن عمر يرى هذا التجاوز والغلو في عقوبة السبّ وان كان يكرهه. وكان يرى خير رادع للسبّ أن يعلّم النـاس الدين ويبصروا به حتى يرتدعوا من انفسهم ويكون الخلفاء لهم في ذلك قدوة ، فلما صارت له الخلافة جعل من نفسه خير قدوة فامتنع عنه حتى لمن يستحق أن يُسبّ وحمل الناس على ما رآه . وكذلك لم ير في السبّ قتلاً كما فعل الوليد ، وقد كتب اليـه عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب العراق يقول له : إن رجلا شتمك فأردتُ أن أقتله ، فكتب اليه : لو قتلتَه لأقدتك به !

●

وغيّر رجال من القُصاص السنّة التي كان الناس عليهـــا ، وأحدثوا من الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عَدْل ما يصلون على النبيّ وآله والمؤمنين ، فكتب عمر الى أمراء الاجناد يقول فيما قاله : إن رجالاً من القصاص قـد أحدثوا صلاةً على خلفائهم وأمرائهم

(٣٦٢) مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥٣ ـ ابن الاثير ج ٥ ص ٢٠

عدل ما يصلون على النبي وعلى المؤمنين ، فاذا أتاك كتابي هـذا فردّوا قصاصكم فليصلوا عـلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وليكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم ، ثم ليصلوا عـلى المؤمنين والمؤمنات وليستنصروا الله ، ولتكن مسألتهم عامـــةً للمسلمين ، وليدعوا ما سوى ذلك [٣٦٣]

شيعة علي

وكان عمر بن عبد العزيز في سياسته بيْن الحفاظ عـلى اهـــله وسلطانهم ، وبين ترضية بـني هاشم ومسح جروحهم وآلامهم . وقد راودته فكرة خلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد ثم زال عنها ، ولم يسمح لأحد من كبار أهل البيت أن ينزل معه دمشق لئلا يعرف فضله ، فسرّحه سراحاً جميلاً . قد بقي عمر على عِرْقه الاموي . وقد حدّث فيما كان يرى في منامه عن الخلاف بين عليّ ومعاوية بأن علياً قُضِيَ له بالحق وان معاوية غُفِر له ، وقال عمر ذلك عن رؤيا رآها ولم يقله عن رأي ارتآه [٣٦٤]

وكانت سنّة الأموية الا ينزل معهم بالشام أحد من أهـــل البيت لمكان هؤلاء من الفضل والعلم ومحبةً الناس ، وقد سار على هذه السنّة عمر لم يفارقها إما مخافة أهله واما مخافةً عليهم ، وقـد قالوا انه لما قدم عليه عبدالله بن حسن كره عمر مكانه بالشام وعرف سنّه وعقله ولسانه وفضله ، فلم يكن شيء احب اليـه من ان لا

---

(٣٦٣) ابن عبـــد الحـكم ص ٩٠ وهو مذهب عمر كما يقول ابن قيم الجوزية ـ انظر جلاء الافهام لابن قيم .

(٣٦٤) ابن الجوزي ص ٢٤٨

يراه احد من أهل الشام ، فقال له : اني اخاف عليك طواعين الشام — وكانت الشام كثيرة الطواعين — وانك لم يغنم اهلك خيراً منك فالحق بهم فان حوائجك ستتبعك ! فكان ظاهر كلام عمر حسناً مشكوراً ، وباطنه أجود التدبير في تسريحه سراحاً جميلاً[٣٦٥]

ولكنّ عمر مع سياسته هذه جَهِد في مداواة جراح بني هاشم ما وسعته المداواة ، وحامَى عنهم كثيراً ، وكان ذلك منه قديماً ، ولكنه فشا وكثر حين صار خليفة . وقد كان سليمان بن عبد الملك وَقَع على كتاب من زيد بن حسن الى الوليد يخلع فيه سليمانَ من ولاية العهد ويبايع لعبد العزيز بن الوليد ، فأمر سليمان ابا بكر بن حزم واليه على المدينة ان يضرب زيداً مائة سوط . فطلب عمر من الرسول ان يتريث في السفر حتى يكلم الخليفة ويستطيب نفسه لعلها تطيب فيعفو عن زيد . وما لبث سليمان ان مات ولم يذهب الرسول الى المدينة وافضى الامر الى عمر فدعا من فوره بالكتاب فحرقه حين عاد من جنازة سليمان[٣٦٦]

ولم يكن بنو امية قد اكتفوا بسب علي ، بل انهم حرّموا ان يذكر اسمه بين أيديهم . وكان زريق مولى علي بن ابي طالب قد حفظ القرآن والفرائض ولكنه لم يرزق شيئاً من بيت المال ، فوفد على عمر فقال : يا امير المؤمنين ، اني رجل من اهل المدينة وقد حفظت القرآن والفرائض ، وليس لي عطاء في الديوان ، فقال عمر : ولم يرحمك الله ؟ من اي الناس انت ؟

---

(٣٦٥) ثمار القلوب ص ٣٥ :

(٣٦٦) ابن عبد الحكم ص ١٢٢

قال زريق : رجلٌ من موالي بني هاشم ، فقال عمر : مولى منْ ؟ فسكت زريق وهمّ واحد من الناس ان يجيب ، فقال عمر لزريق : اليك اسألك ! وصاح به : اتكتمني من انت ؟ فقال زريق بصوت خافت كأنه نجوى : انا مولى علي بن ابي طالب — قد خاف ان يجهر — فقال عمر رافعاً صوته : وأنا مولى علي ! أتكاتمني ولاء علي ؟ حدثني سعيد بن المسيب عن سعد بن ابي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه .

وقال عمر بن مُورِق : كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس فتقدمت اليه فقال لي : من انت ؟ قلت : من قريش ، قال : من أي قريش ؟ قلت : من بني هاشم ، قال : من أيهم ؟ فسكتّ ، فقال : من أي بني هاشم ؟ قلت : مولى علي بن ابي طالب ، فوضع يده على صدره وقال : أيا مولى علي بن ابي طالب ، حدثني عدة أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كنتُ مولاه فعليّ مولاه ! ثم قال : يا مزاحم ، كم تعطي أمثاله ؟ قال مزاحم : مائة درهم او مائتين ، فقال : اعطه خمسين ديناراً لولائه لعلي بن ابي طالب عليه السلام ، ثم قال له عمر : الحق ببلدك فسيأتيك مثلُ نظرائك [٣٦٧]

●

وكان لون البطولة قد تغيّر فصار الرجل يفخر بما سفك من دم اخوانه في وقائع المسلمين ، وكان الرجل قديماً يفخر بغزواته للمشركين وفتحه البلدان . ثم اختلط الامر فلم يَعُد هناك من

(٣٦٧) ابن الجوزي ص ١٥ ، ١٦

يفرق بين غازٍ اعداءه في الثغور وباطش بأهله في بلادهم ودورهم . هذا كان إثم بني أمية ، ولا محيص من ان يتحملوه . ولم يكن عمر يرى رأيهم في أبطال الحروب وشجعان القتال ، وانما كان يرى البطولة في مثل غزوات النبي وحروب الخلفاء الراشدين . وقد جاءه يوماً شيخٌ وجعل يعدد له غزواته بدير الجماجم وغيره مع مروان في مصر ، وجعل يفخر بعمله فيها ، فقام غلام من الأنصار — وكان حاضراً — فذكر انه ابن رجل شهد بيعة العقبة وشهد بدراً وأحُدا ، فقال عمر : هذه المكارم لا ما تعدّه ايها الشيخ منذ اليوم ، وقضى حاجة الفتى دون حاجة الشيخ [٣٦٨]

●

إن عمر بن عبد العزيز ما كان يسرّه ألا يختلف آل محمد في آرائهم وفقههم ، فقد رأى من وراء الخلاف في الرأي والفقه خيراً ، ولو لم يختلفوا فيما بينهم لكانت الامور كلها عزائم ولم تكن لهم رخصة تخفف عنهم . أما ما عدا ذلك فقد بالغ عمر في اطفاء الفتن بين الناس . وقد سئل عما يقوله فيما شجر بين الصدر الاول وعن قتال اهل صفين فقال : تلك دماء طهّر الله يدي منها ، أفلا أطهّر منها لساني ؟ مَثَلُ اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مَثَلُ العيون ، ودواء العيون ترْكُ مسّها [٣٦٩].

---

(٣٦٨) دير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف نهر للسائك الى البصرة ، والشيخ يشير الى اشتراكه في الوقعة التي كانت بين الحجاج الثقفي وعبد الرحمن بن الاشعث وقتل فيها القراء — معجم البلدان ج ٤ ص ١٣١

(٣٦٩) الانصاف ص ٦٠ — الموافقات ج ٤ ص ٣٢٠

وهكذا مضى عمر يؤلف بين الأحـــزاب ويطفىء ثورة الشيعـة والعلوية ، ويؤدب الخوارج ، ثم اخـــذ يميت عصبية الجاهلية التي استيقظت بين اليمنية والمضرية [٣٧٠] .

وفي ظل هذه السكينة التي نزلت القلوبَ في مدته بدأت دعوة بني العباس ، فوجّه محمد بن علي بن عباس دعاته إلى الآفاق [٣٧١] .

قصة فدك

وفـدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة ، وفيها عين فوارة ونخل كثيرة ، افاءها الله على رسوله في سنة سبع صلحاً ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل خيبر وفتح حصونها ولم يبق الا الثلث ، أو كان حاز كل شيء إلا حصنين يقال لها الوطيح والسلالم ، فلما أيقنوا بالهلكة [٣٧٢] واشتد الحصار راسلوا النـــبي يسألونه أن ينزلهم على الجلاء وحقن الدماء ، وفعل ، وبلغ ذلـك أهل فـــدك فأرسلوا إلى النبي أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم ، فأجابهم الى ذلـك ، وبعث إليهم محيِّصـة بن مسعود فنزلوا على ما نزل عليه اهل خيبر ، على أن يصونهم ويحقن دماءهم ، فأقرهم رسول الله على مثل معاملة أهل خيبر [٣٧٣] ، وقسم رسول الله أرض بني النضير وأرض بني قريظة ولم يقسم فدك [٣٧٤]

---

(٣٧٠) المرشد ج ٤ ص ١٢٨

(٣٧١) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٥

(٣٧٢) الخراج للقرشي ص ٤٣

(٣٧٣) الخراج لابي يوسف ص ٥١

(٣٧٤) الخراج للقرشي ص ٤١

ولما كانت فدك مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، فقد صارت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق ما يأتيه منها على اهله ثم ينفق ما تبقى في أبناء السبيل .

ثم قيل ان فاطمة الزهراء سألتها أباها فأبى وقيل بل رضي فاعطاها ، فلما قبض صلى الله عليه وسلم اختلف على فدك رأي فاطمة ورأي ابي بكر ، ولعل ابا بكر ابقاها بيده حتى اذا احتاج اليها المسلمون – وكانوا في مبدأ أمرهم وضيق ذات ايديهم – وجد ما يعينه . ومع ان ذلك العمل من ابي بكر لم يرض فاطمة فقد صارت فدك في ايدي الخلفاء يتولون امرها [٣٧٥] .

وقد أدّى اجتهاد عمر بن الخطاب لما ولي الخلافة وفتحت الفتوح واتسعت على المسلمين أن يردها إلى ورثة الرسول فكان علي والعباس بن عبد المطلب يتنازعان فيها ، وكانا يتخاصمان إلى عمر فيأبى أن يحكم بينهما ويقول : أنتما أعرف بشأنكما .

ثم صارت فدك الى مروان بن الحكم قد وهبها له معاوية ، ثم وهبها مروان لولديه عبد الملك وعبد العزيز ، ثم صارت اثلاثاً بين عمر بن عبد العزيز والوليد وسليمان ، فلما ولي الوليد أعطى نصيبه منها لعمر . فلما ولي عمر الخلافة كتب الى عامله بالمدينة يأمره برد فدك الى ولد فاطمة عليها السلام ، فكانت في ايديهم في مدة عمر ابن عبد العزيز ... ثم صارت تنتقل منهم واليهم كما شاء الولاة [٣٧٦]

---

(٣٧٥) فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٥٨ نقلا عن شرح ابي الحديد على نهج البلاغة – ابن الجوزي ص ١٠٩ ، ١١٠

(٣٧٦) معجم البلدان ج ٦ ص ٣٤٣

وقيل لم يردها الى ولد فاطمة وانما ردها الى بيت المال ، قال عمر : وما كان لي مال أحب إلي منها ! وانا أشهدكم اني قد رددتها الى ما كانت عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣٧٧] وأبي بكر وعمر وعثمان ثم كتب الى والي المدينة : فاقبضها وولّها رجلاً يقوم فيها بالحق ، وسلام عليك [٣٧٨]

علوم الدين

كان عمر يفسر غريب القرآن ويروي الحديث ويتفقه ، ويعنى بما تعلق من الفقه بالزهادة والعـــدل والنصح للناس ، ثم في شتى الأخبار والعبادات . وقد كتب الى ابي بكر بن حزم ان يجمع الحديث ويكتبه مخافة ان يَدرُسَ العلم ويذهب العلماء ، كما كتب الى اهل الآفاق ان ينظروا الى الحديث ويجمعوه . وحمل علم القرآن والفقه في عهده الى أقصى الشرق واقصى الغرب ، وكانت اول نهضة بمغرب افريقية بين البربر المسلمين . ولم يهتم أحد من خلفاء بني أمية بالتشريع والفقه كما اهتم بهما عمر . وقد كان رقي الفقـه والتشريع قبل عمر في حلقات الدروس المستقله عن الخلفاء [٣٧٩]

ورأى عمرُ العلم الحقَّ ما دعا الى القناعة وصدَّ صاحبه عن الطمع وكان يقول : تعلموا العلم فانه زين للغنيّ وعون للفقير ، لا اقول انه يطلب به ولكنه يدعو الى القناعة . ولم ير احداً في غنى عن العلم فكان يقول : إن استطعت فكن عالماً ، فان لم تستطع فكن

(٣٧٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٥

(٣٧٨) ابن الجوزي ص ١١٠

(٣٧٩) فجر الاسلام ص ٢٢١ — ٢٤٨

متعلماً ، فان لم تستطع فاحبهم ، فان لم تستطع فلا تبغضهم .[٣٨٠]

واول امره كان يدرس شريف العلم : هـذا الذي هو حول القرآن والحديث والفقه . ثم ادرك انه على اضطرار لأن يتعلم اكثر مما تعلم . لم يكن يدري غير هذا العلم الشريف بين جدران المساجد والمجالس حيث ينقطع عن جمهور الناس ، فلما صار والياً وخليفة عرف ان ذلك العلم لا يكفي ، وعلم ان مصاحبة سراة الناس لا تغني عن رعاعهم ، وان شريف العلم لا يغني عن سفسافه ، فجعل يقول : كنت اصحب من الناس سراتهم ، واطلب من العلم شريفه ، فلما صار لي امر الناس احتجت الى ان اعلم سفساف العلم ، فتعلموا من العلم جيده ورديئه وسفسافه .

واهتم عمر بنشر العلم فكتب الى اهله ان ينشروه في مساجدهم فان السنة كانت قد أميتت . وخطب ذات مرة فقال : ايها الناس ، انما يراد الطبيب الوجع الشديد ، الا فلا وجع اشد من الجهل ، ولا داء اخبث من الذنوب ، ولا خوف اخوف من الموت[٣٨١]

وكانت دفعة عظيمة في رسوخ اصول العلم حين خاف عمر غائلة النسيان فأوصى ان يقيد العلم بالكتابة مخافة الضياع ، ولذلك قيل انه اول من دون الحديث .

علوم الدنيا

وكما اهتم عمر بعلوم الدين اهتم بعلوم الدنيا ولا سيما الطب لحاجة الناس اليه في اول معاشهم . وليس يخفف عن الناس اعباء

---

(٣٨٠) ابن عبد الحكم ص ١٣٧ ، ١٧٩

(٣٨١) ابن الجوزي ص ٩-٩٣-٢٠٧-٢٣٩

الحياة لا اذا سعدوا بالعدل وتنوروا بالعلم في صحة ابدان وسلامة إيمان ، وكذلك كان عمر بن عبد العزيز اول من حارب فقر الناس وجهلهم وأمراضهم ، وحاربها بقوة في مختلف بلاد المسلمين .

وكان عبد الملك بن أبجر او ابن بجر الكناني طبيباً عالماً ماهراً ، وكان يتولى تدريس الطب بمدينة الاسكندرية ، وصحبه عمر في شبابه واستطبّه . وقد تأثر ابن ابجر بعمر فأسلم على يديه ، فلما صار عمر خليفة استعان صاحبَه واعتمد عليه في تفريق علم الطب وتدريسه بانطاكية وحرّان وغيرهما من البلدان ، فانتقلت بذلك صناعة الطب اليونانيّ الى بلدان المسلمين وكانت لم تزل قوية زاهرة في الاسكندرية [٣٨٢]

وقد أمر عمر باخراج كتاب في الطب ، أخرجه « ماسرجويه » الطبيب البصريّ الاسرائيليّ ، أخرجه للناس وبثه في ايديهم [٣٨٣]

العلماء والعلوم

وكرّم عمر العلماء وبحث عنهم في كل موطن ، وجعلهم سنده واعوانه في مجلسه وعلى عماله وقضاته ، وارسل قوماً كثيراً منهم لنشر الاسلام والعلم ، وجعل لمن انقطع الى القرآن والحديث نصيباً من بيت المال ، وفرض لمن نصبوا انفسهم للفقه وحبسوها في المساجد عن طلب الدنيا ـ لكل منهم مائة دينار قبضاً عاجلا ، وقد كتب الى والي حمص ليغني اهل القرآن والحديث فلا

(٣٨٢) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ص ٦٤ ـ تاريخ العرب المطول ص ٣٢٥

(٣٨٣) فجر الاسلام ص ١٦٣

يشغلون عنها .

وأجرى عمر على المعلمين الأرزاق والأجور ، وكان فيمن ارسله لتعليم يزيد بن حبيب ارسله عمر الى مصر قاضياً ومعلماً [٣٨٤] وفيمن أرسله لتفقيه البدو يزيد بن ابي مالك الدمشقي والحارث ابن يجد الاشعري ، واجرى عليهما رزقاً ، فاما يزيد فقبل الأجر والرزق ، واما الحارث فابى ان يقبل على عمله اجراً ، وكتب الى عمر بنبأه ، فكتب عمر : إنا لا نعلم بما صنع يزيد بأساً ، واكثر الله فينا مثل الحارث بن يجد .

وفتح الضحاك بن مزاحم في عهده كتّاباً للتعليم دون ان يتقاضى على تعليم الناس اجراً .

وأغدق عمر على عماله وقضاته ومعلميه حين ضيق على نفسه وولده ، فدخل عليه ابن ابي زكريا فقال له : يا امير المؤمنين ، اني اريد ان اكلمك بشيء ، قال : قل . قال : قد بلغني انك ترزق العامل من عمالك ثلثمائه دينار ، قال : نعم ، قال : ولم ذلك ؟ قال : اردت ان اغنيهم عن الخيانة ، فقال : فأنت يا أمير المؤمنين اولى بذلك ؟ فأخرج عمر ذراعه من ثيابه وقال : يا ابن أبي زكريا ، ان هذا نبت من مال الفيء ، ولست معيداً اليه منه شيئاً ابدا !. ولم يكن هذا غاية أجر العامل عنده ، بل كان يرتفع عن ذلك كثيراً حتى يبلغ ألف الف درهم في العام [٣٨٥]

---

(٣٨٤) الطبقات ج ٦ ص ٢١٠ — تاريخ العرب المطول ص ٣٢٣

(٣٨٥) ابن الجوزي ص ٧٤ ، ٩٥ ، ١٠٣ - ابن عبدالحكم ص ٤٣ — الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٦٨

وكما عني عمر بتعليم اولاده اختار لهم المؤدب الصالح ، واختاره بعد العلم به والثقة فيه ، ولم يدعه دون ان يزوده بنصحه ، ويفيده برأيه وخبرته . وحين اختار سهلا مولاه لتأديب ولده قال له : إني اخترتك على علم مني لتأديب ولدي ، فصرفتهم إليك عن غيرك من مواليّ وذوي الخاصة بي .

ثم رسم له طريق التأديب ومنهاج الدراسة ، فطلب اليه أن يجفو في كلامهم حتى يكون ذلك أمعن لاقبالهم ، وطلب اليه ألا يصحبهم كثيراً لتظلّ له مكانته ، وطلب اليه أن ينهاهم عن كثرة الضحك حتى لا تموت قلوبهم ، وان يبغّض إليهم الملاهي فان حضور المعازف واستماع الاغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشبَ الماء . وهو أمر حق فمتى استرسل الانسان للشهوة وانقاد للهوى ولم يؤدب نفسه كان في مسلاخ البهيمة ، وخرج به مزاجه عن الاعتدال وجمحت به نفسه الى أقبح مذهب واسوأ طريقة . ومن شأن المضحك ان يتطلب اموراً معدولة عن جهاتها ليستدعي بذلك تعجب السامع وضحكه ، وهو النفاق .

وأما منهاج الدراسة فقد طلب اليه ان يفتتحوا كل يوم بجزء من القرآن يتثبتون في قراءته ، ثم يتناولوا بقية العلم ، حتى إذا فرغوا تناولوا القسي والسهام وخرجوا الى الغرض حفاة فرموا به سبعة أرشاق وانصرفوا الى القيلولة ليستريحوا . (٣٨٦)

وكان هذا منهاجاً جيداً يجمع بنيه على الدين والدنيا ، ويراوح بين البدن والروح والقول والعمل . وكان كلام عمر

(٣٨٦) ابن الجوزي ص ٢٥٧

في الغناء واللهج به كلام العليم الخبير.

واختار عمر المعلم لدينه وعلو نفسه ثم لفقهه ورأيه وجوده وشدة وكثرة معروفه، ولم يفرق بين معلم عربي وآخر عجمي، ولا من كان اصله حراً واصله عبداً. وقد صارت في تهده طبقة من هؤلاء كثر عددها وذاع فضلها، فاختار منهم رجالاً البناء وارسلهم لأقصى البلدان، فاستوطن كثير منهم البلاد التي هاجروا اليها، وماتوا بها، واعقبوا بها ذرية صارت من اهلها.

الزكاة

لم تكن همة عمر بعد ردّ المظالم الا القَسْم في الناس[٣٨٧]. أما الأغنياء فحين رأوه مهتما بهذا القَسْم فقد تسارعوا من انفسهم يؤدون الزكاة والصدقات، وجاءوا العمالَ بقطع كبيرة من أموالهم ليجعلوها في الفقراء حيث يرون. وزكاة الفطر التي هي في ضمانة الناس انفسهم تسارعوا بها كذلك.

ومنذ جاء الأغنياء بهذه الزكاة انفقت في وجوهها من غير بطء، فانه لا نفع من زكاة ما لم تصل الى ايدي الناس في حينها حتى يسدوا احاجاتهم وشبكاً. ولم يكن للعمال اذا تولوا قسمها ان يبطئوا، فاذا فعلوا اسرع اليهم عمر يحثهم على الاسراع. وقد جاء احد العمال في عيد فطر من هذه الزكاة شيء كثير فحبسها حتى يرى رأي عمر فيها، فكتب اليه عمر يقول: لعمري، ما وجدوني واياك على ما ظنوا! وما حبسك إياها الى اليوم؟ فاخرجها حين تنظر في كتابي.

وألزم عمر العمال أن يأمروا مَنْ قِبَلَهم من الناس فلا يبقى أحدٌ إلا أخرج عنه صدقة فطر رمضان، لا يُعفَى منها حر ولا

---

(٣٨٧) الخراج لابي يوسف ص ١٦

عبد ولا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا انثى ، مدّين من قمح أو صاعاً من تمر أو قيمة ذلك نصف درهم – حسب رخاء الأسعار في بلده – فاما اهل العطاء [٣٨٨] فيؤخذ ذلك من اعطياتهم عن انفسهم وعمالاتهم .

وكان يقوم على كل قوم من الأغنياء رجلان من اهل الامانة ينصبهما العامل ، يقبضان ما اجتمع من الزكاة ثم يذهبان به فيقسمانه في مساكن أهل الحاضرة . اما البادية فكانت في غنى ولم يشع الفقر في أهلها كما شاع في المدن التي ازدحم فيها الناس .

وكثيراً ما كان يذهب العامل على الصدقات أو البلد الى أحياء المدن والقرى ثم يأخذ من الأغنياء صدقاتهم ، ويجمع فقراء الحيّ ويقسم بينهم من فوره . وعادت هذه الشدة في اخراج الزكاة والسرعة في قسمها وجودة المراقبة – عاد كل اولئك على الناس بالغنى والميسرة ، بل استغنى كثير من الناس من أول قسْم حدث ثم في مدة عمر بن عبد العزيز ، فعفّوا حين استغنَوْا ، وكان الفقير الواحد يصيب الفريضة والفريضتين والثلاث ، فما يفارق احد مكانه وهو فقير . حتى اذا جاء العام القادم ونودي على الفقراء لم يوجدوا .

حدث يحيى بن سعيد قال : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها ، قد اغنى عمر الناس ، فاشتريت رقاباً فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين .

---

(٣٨٨) اهل العطاء : الموظفون ومعنى ذلك ان زكاة فطرهم تستقطع من اجورهم .

وحدّث رجل من ولد زيد بن الخطاب فقال : انه ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً ، فذلك ثلاثون شهراً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع بماله ، قد اغنى عمر بن عبد العزيز الناس (٣٨٩) . وقد اغنت زكاة الفطر وحدها فقراء المسلمين .

### الدعوة الى الاسلام

ولم يكن احب الى عمر من ان يعمّ الاسلام بقـــاع الارض وان يهتدي به الناس ، مهما اصاب بيت المال من النقص والخسار. وكان ملحّاً يطلب الى عماله ان يدعوا اهل الذمة إلى الاسلام فاذا اسلموا وشكا العمال اليـــه نضوب بيوت الاموال كتب اليهم يلومهم على الشكوى . وقد كتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن يقول له : كتبت اليّ تسألني عن اناس من اهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة ، تستأذنني في اخذ الجزية منهم ، وان الله جل ثناؤه بعث محمد داعيا ولم يبعثه جابيا ، فمن اسلم من اهل تلك الملل فعليه في مال الصدقة ، ولا جزية عليه ، وميراثه لذوي رحمه اذا كان منهم ، يتوارثون كما يتوارث اهـل الاسلام ، وان لم يكن له وارث فميراثه في بيت مال المسلمين الذي يقسم بينهم ، وما احدث من حدث ففي مال الله الذي يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه والسلام (٣٩٠)

---

(٣٨٩) ابن الجوزي ص ٨٥ ، ٨٧ ـ ابن عبد الحكم ص ٦٩ ، ١٢٨ العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٦

(٣٩٠) الخراج لأبي يوسف ص ١٣١

وكتب عدي بن أرطاة الى عمر: اما بعد فان الناس قد كثروا في الاسلام، وخفت ان يقل الخراج. فكتب إليه: فهمت كتابك، ووالله لوددت ان الناس كلهم اسلموا حتى نكون انا وانت حراثين نأكل من كسب ايدينا.

وقد اخذ خراج مصر ينقص في عهده لأقبال القبط على الاسلام، وكان خراجها في عهد عثمان اثني عشر ألف ألف دينار وفي عهد معاوية خمسة آلاف ألف، ثم نقص في مدة عمر، فاقترح والي مصر عليه الا يعفي الداخلين في الاسلام من المصريين من الجزية، فأبى عمر وارسل إليه يقول له قولته المشهورة: ان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا.

انه لا جزية عنده على من اسلم من اهل الارض، وما اجدب من العامر من الخراج يؤخذ في رفق وتسكين لاهل الأرض [٣٩١]

وارسل عمر عشرة من التابعين كأفراس الرهان ليفقهوا اهل افريقية ويعلموهم دينهم ويحثوهم على الجهاد في سبيل الله، فاذا طلبهم الجهاد جاهدوا بأنفسهم. فكل منهم مثل وقدوة، ويتولون مع ما وكل اليهم امور القضاء والفتوى، وقد حملوا معهم الى المغرب علماً كثيراً.

وكان هناك جماعة من البربر اسلموا من قبل على يد موسى بن نصير، وتعلموا القرآن والفقه من العرب الذين كانوا مع موسى، فلما تولى افريقية اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر سنة مائة، وكان على حربها وخراجها وصدقاتها، وكان حسن السيرة فيهم

(٣٩١) ابن الجوزي ص ١٠٠ — الدعوة الى الاسلام ص ٩٣ — خراج لأبي يوسف ص ٨٦

أسلم البربر جميعاً ولم يبق أحد منهم الا أسلم (٣٩٢)

امر العشرة الذين بعثهم عمر ليفقهوا البربر فقد ألفهم من القبائل حتى يكون لكل منهم صوتٌ في ناحية من الناس . كان منهم اثنان من معافر ، وواحد من تجيب ، ومن كل من مخزوم وجذام وتنوخ وبني عبد الدار والانصار واحد ، ولم يكونوا جميعاً من العرب ومن الاحرار ، وانما كان من الموالي واحد ومن الفرس واحد . وألفهم عمر كذلك حتى يتفرقوا على جميع الناس ، وقد نسل معظم هؤلاء من القبائل التي نزلت بمصر في أول الفتح .

عبد الله بن يزيد وموهب بن حيّ من معافر ، وسعد بن مسعود من تجيب . وابنُ أبي المهاجر القرشيّ من مخزوم ، وأبو ثمامة بكر ابن سوادة من جذام ، وابو الجهم عبد الرحمن بن رافع من تنوخ ، واسماعيل بن عبيد من الانصار . أما ممثل الموالي فكان حيان بن أبي جبلة ، وممثل الفرس فكان طلق بن جابان . وعاشرهم ابو سعيد جعثل .

وقد هاجر إلى الله من هؤلاء هجرتين رجلان ، هاجرا إلى العلم والتعليم ، فلما أديا ما عليهما حضرتهما نية الجهاد فهاجرا اليه محاربين فغرقا في البحر ، هما ابو ثمامة الجذامي وابن عبيد الانصاري . وكان يسمى تاجر الله لكثرة ما حمل من علم وفقه وما فعل من صدقة ومعرفة .

وكان سعد بن مسعود التجيبيّ معلم علماء لا تأخذه في الله

---

(٣٩٢) فتوح مصر واخبارها ص ٢١٣ – ابن الاثير ج ٥ ص ١٠ – الدعوة الى الاسلام ص ٢٦٦ ، ظهر الاسلام ج ١ ص ٢٩٣

ملامة ، ولاتغشاه من ملك مهابة . ارسل اليه الريان بن عبد العزيز ذات مرة يدعوه الى داره من جامع الفسطاط فأبى ان يذهب وقال لرسول الريان : ليس لي اليه حاجة فآتي له ، فإن تلك له حاجة فليأت بها . وبلغ ذلك الريان فجاءه مغضباً فلما عاتبه قال له : أصلح الله الامير ! دعوتني الى ما يشينني ودعوتك الى ما يزينك ! فقال له : فكيف ذلك ؟ قال : إنه من رآك ماشياً اليّ مدحك وقال ذاك طالب علم وخير ، ومن رآني ماشياً اليك رآني طالباً حطاماً وعَرَضاً من أعراض الدنيا فشانني ! فقال الريان : سلمت والله ما كان بقلبي ونوّرته ، نور الله قلبك وعلمك [٣٩٣]

●

وكان حتماً مقضياً ان تدخل افواج من الناس في دين الغزاة الفاتحين متى عاملوا الناس بالحسنى ، وكذلك استجاب كثير من امراء السند لدعوة عمر حين دعاهم الى اعتناق الاسلام وتسمّوا باسماء العرب [٣٩٤] ، واسلم ملك الهند نفسه سنة تسع وتسعين ، وأهدى الى عمر هدية من المسك والعنبر والندّ والكافور [٣٩٥] . وفيما وراء نهر السند دان كثير من الناس بالاسلام تلبية لدعوة عمر . واجتهد الجراح بن عبد الله الحكميّ والي خراسان في الدعوة واخلص لها فأقبل على الاسلام نحوٌ من اربعة آلاف . ثم كتب اليه عمر : انظر من صلى قِبَلَك فضع عنه الجزية ، فسارع الناس

(٣٩٣) رياض النفوس ج ١ ص ٦٤ ـ ٦٨

(٣٩٤) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ١٨٧ ـ الدعوة الى الاسلام ص ٢٣٢

(٣٩٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤٠

الى الاسلام[٣٩٦] . وبلغت الرغبة من عمر في الدعوة ان أرسل الى «لاون الثالث» ملك الروم يدعوه الى الاسلام .

●

وكأنما عاد في مدته حق المؤلفة قلوبهم بعد ان منعه عمر بن الخطاب ، فكان ذلك سبباً الى الاقبال على الدين في حركة منظمة ملؤها الحماسة في نشر الدعوة وقبولها . ورأت الشعوب المختلفة من الخليفة وعماله ضروباً من الاغراء والتحبيب ، حتى إن عمر لم يأل جهدَه في الهبات لتأليف القلوب حتى انهم ليقولون إنه أعطى بطريقاً نصرانياً يتألفه بالعطاء الفَ دينار .

ومع أن المسلمين حديثاً لم يكونوا يُعفَون من ضريبة العشر فقد لقي عمر بن عبد العزيز نجاحا رائعا في اتمام ما قام به جده عمر ابن الخطاب ، فبادرت جموع هائلة الى الدخول في زمرة المسلمين[٣٩٧] . وكان الاعفاء من الجزية وابقاء الارض في يد اهل الذمة ومعاملتهم بالحسنى — كل اولئك كانت عوامل دافعة الى الدخول في دين الله افواجاً[٣٩٨] .

واستطرد بما عمل عمر اتساعُ رقعة الارض التي ينتشر فيها الاسلام ، واستمر الصلاح يتسرّب الى الأمة الاسلامية ، واتخذ العلم الديني والدنيوي سبيله الى الانتشار وسلّمه الى الارتقاء . وسلمت الأمة من داخلها واستعدت نواتها للبقاء اذا لم تَرْوَ من ظمأ وتنتعش في نور ، وللرقيّ والنماء إذا خصب لها الزمان وعمت العدالة وانطلقت انفاس الحرية وأشعة الضياء .

---

( ٣٩٦ ) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٤

(٣٩٧) الدعوة الى الاسلام ص ٧٦ .

(٣٩٨) تاريخ العرب المطول ٢٧٥

# دير سمعان

ديارات سمعانه

في شتى بلاد الشام أديرة كثيرة متفرقة يسمى كل منها دير سمعان: في ظهر انطاكية واحد، وفي اعمال المعرة او حمص واحد يقال انه كان بين جبل عليم والجبل الاعلى، وفي جبل لبنان واحد، وقيل ان بالغوطة واحداً [٣٩٩] ولكن العمري انكر ان يكون بالغوطة دير يقال له دير سمعان وقال انه لم يسمع بدمشق لهذا الدير ذابسة، ولم يعرف لمكانه في غوطتها خضراء ولا يابسة. [٤٠٠]

وقد نبهت هذه الاديار كلها لان واحداً منها نُبِّه ذكره ونبغ شأنه، هو دير المعرة او دير حمص، كان منذ اقدم الازمنة مرعيّاً مزوراً، وقد انعطف عليه في عصر بني امية جرير بن عطية الشاعر الاموي، وكان انعطافه اليه في يوم عيد، فلما رأى اهله وتقليدهم فيه انشد في الدير شيئاً من شعره، ولكن الدير ظل انبه من شعر

---

(٣٩٩) معجم البلدان ج ٤ ص ١٤٩ ــ غوطة دمشق ص ٢٣٩

(٤٠٠) مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥١

جرير وأذهب منه في صيت الزمن ،وحتى بعد ان مسته يد العفاء فخرب بنيانه ونسي مكانه ،فقد ظل الدير عالياً الصوت في التاريخ، ولم تطغ على شرفه ومنبهته اخواته الاخرى وان كانت لم تزل باقية المعالم مخطوطة البناء .

كان من اعظم الشرف الذي أصاب هـــذا الدير ان عمر بن عبد العزيز الخليفة الخامس الراشد ، مرض به مرضةَ موته ثم دفن في أرضه ، وبقي قبره بها معلماً مشهوراً حين امتدت يد التدمير الى قبور الملوك والخلفاء من اهله ، وظل واضحاً معروفاً على بيّنة من الطريق حتى أتى الزمان على الخير فمحاه كله ، وحين طغى الجهل فشمل هذا الشرق العربي ولف ارجاءه في شملته ، وحين زحفت جيوش المغيرين فطمست في طريقها المعالم ومحت المنابه ، وتاه القبر والدير عن عيون أهل الحاضرة والبدو ، ونسوا أنهم كانوا يفدون عليه أزماناً طويلة يعظمونه لمدفن عمر به ، من أصابه خير منه في حياته ومن لم يصبه [٤٠١]

وقد وقف به وهو معلم مشهور أحد بني خزاعة يرثي عمر يقول:

أما القبـور فانهنّ أوانس ... بجوار قبرك والديار قبور
جلت رزيتـه فعمّ مصابه ... فالناس فيـه كلهم مأجور
ردّت صنائعه إليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور
والناس مأتمهم عليه واحد ... في كل دار رنة وزفـــير
يثني عليه لسانُ مَن لم توله ... خيراً لأنك بالثناء جدير [٤٠٢]

---

(٤٠١) مروج الذهب ج ٢ ص ١١٩

(٤٠٢) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٦٧

### مخافة الموت

كانت مخافة الموت قد هيمنت على عمر بن عبد العزيز حتى شملته كله وغمرت قلبه وعقله ، غمرته مذ كان صبياً صغيراً ، فجعل يبكي كلما لاحت له فاعترضته المخافة. وبلغ أمّه يوماً أنه بكى ، ولم يكن بكاؤه من شيء أساءه ، وقد جمع القرآن في صدره ، والقرآن يشفي كل صدر من حزنه ، فأرسلت اليه تسأله عن سبب بكائه ، فأرسل اليها يقول : قد ذكرتُ الموت ! فلما جاءها الرسول بردّه بكت هي أشدّ مما بكى ابنُها ، بكت لانها ذكرت الموت ، وبكت لأن ابنها يفكر وهو صغير في زحفة الزوال [٤٠٣]

وجعلت دائرة المخافة تكبَر في نفسه وتتسع كلما شب وأينع ، وهي حال لا تسير الى جانب اليَنعة والشبـــاب في كل الناس ، ولكن الأمرين المختلفين سارا معاً في عمر وهما متقاربان او يمتزجان. بل ان مخافة الموت كانت تفحل وتضخم كلما تمكّن عمر من الدنيا وقبض على مُتَعِه منها ، ولم يعد لفكرة أخرى أن تحل مكانها في موطن قلبه وعقله أو تزيحها لتستقر قليلاً ثم تروح .

ولعل الأحداث التي جرت حوله في الحجاز وهو صبي ، وفي مصر والشام وهو غلام ، كان لها ذلك القهر على نفسه ، فقهر بها اكثر مما قهر بأقوال الفقهاء ونصائح الوعاظ والزهاد الذين أحاطوا به كحلقة الحديد حين حَبَا وحين درج وحين شب ثم صار رجلا . وقد قضى امام عينيه من الخلفاء عبد الملك والوليد وسليمان وواراهم التراب بيده . ومع انه كان يكره الوليـد فإن موته كان له عظة

(٤٠٢) ابن الجوزي ص ٩

وكان كثيراً ما يخلو لنفسه ويبكي فيسمع نحيبه بالبكاء وهو يقول : أبعد الثلاثة الذين واريتهم بيدي : عبد الملك والوليد وسليمان!

وقضى امام عينيه سهلٌ أخوه ومزاحم مولاه وعبد الملك ابنه ولم تكسر الرزايا طبعه . وأصلب الطباع ينكسر ولو مرة واحدة وقد يلازمه الانخذال والانكسار . ولكن مصائب المنايا زادت نفس عمر ايماناً بالموت وحباً فيه واصراراً على طلبه [٤٠٤]

وقد اقترنت مخافة الموت في نفسه بايمان خالص بقرب البعث كأنما قنطرة القبر نومة ليلة ثم يفيق على جنة أو نار ، وكما أخبر الاسلام بالعقاب والمثوبة باتت نفس عمر على رهبة أخرى هي اشد هولاً من رهبة الموت في نفوس من يفكرون في الموت وحده دون أن يؤمنوا ببعث أو حساب .

وكذلك صارت للموت رنة صارخة في جوفه وهزة راجفة على بدنه . فاذا ذكر لفظ الموت على سمعه ، أو حانت منه حومة على خاطره ارتجفت اعضاؤه واضطربت اوصاله . ولم يكن قد بقي في زمانه راهب يرهب الموت مثله الا واحد ، هو الحسن البصري كان يرتجف منه مثل رجفته ، حتى قال يزيد بن حَوْشب : ما رأيت اخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز للموت ، كأن النار لم تخلق الا لهما [٤٠٥]

ولما وطّن عمر نفسه للموت قبل ملاقاته سهل عليه ان ينفض عنه غبار الشهوة ، ثم لم يلبث حين تدرب على احتمال الشدائد ان ضحى بذات نفسه لاسعاد الناس وردّ حقوقهم واكثر منها ، فاتخذ

(٤٠٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٣

(٤٠٥) ابن الجوزي ص ١٨٣ ، ١٩١

لنفسه جسراً من السعادة لا يهنأ في السير عليه إلا كل صبّار. ولقد استولى الايمان عليه مستيقظاً ونائماً يقول له : اثبت على ما انت عليه ! ولم يصبح نزول القبر عنده الا زيارة يخفّ الميت بعدها وشيكاً الى داره التي ينزل بها من جنة او نار.

ولما خلع عمر من نفسه حبّ العاجلة واقتلع الطبع المبذور في طينتها ، وأقصى عنها لذّات البدن واستراحاته انقاد لنفسه الناطقة حين قويت وتقبل تأديبها بالدين والآداب وصمّم على ان يخط طريقه الى الجنة ، وبينها وبين المرء عقبة مضرّسة كئود لا يجوزها الا الضامر المهزول .

ولم يكن شيء يغير من لون عمر ويهدّ من قوته ويكسر من عنفوانه اكثر من رؤيته القبور ومروره عليها . وقد حدث ميمون ابن مهران انه خرج معه الى المقبرة ، فلما نظر الى القبور بكى ، ثم أقبل على ميمون فقال له : يا أبا ايوب ، هذه قبور آبائي من بني امية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ! اما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى ، واصابت الهوامّ في أبدانهم مقيلا ! ثم بكى وأطال ، فلما افاق قال لميمون : انطلق بنا ، فوالله ما أعلم احدا انعم ممن صار الى هذه القبور وقد أمن عذاب الله .

وأصغى عمر بسمعه وقلبه لاقوال الوعاظ في الموت : دخل عليه الرقاشي يوماً فقال له : عظني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، انت اول خليفة يموت ! قال : زدني . قال : ليس بين الجنة والنار منزلة ! وأما هو فقد صار أول وعاظ الموت في زمانه ، وكان كثيراً ما يتمثل

بقول القائل :

من كان حين تمس الشمس جبهته أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته فسوف يسكن يوماً راغماً جدثا[٤٠٦]

ومما وعظ به في خطبة له قوله : أيها الناس ، إنما الدنيا أجل مخترم وأمل منتقص ، وبلاغ الى دار غيرها ، وسير الى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرءاً فكر في امره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه ونوّر قلبه . أيها الناس ، قد علمتم أن اباكم قد خرج من الجنة بذنب واحد ، وأن ربكم وعد على التوبة ، فليكن أحدكم من ذنبه على وجل ، ومن ربه على أمل[٤٠٧] .

ولقد ظل عمر يبكي مخافة الموت حتى صار البكاء طابعاً له فبكى من غير سبب[٤٠٨] . ولما سئلت فاطمة بنت عبد الملك عن عبادته قالت : والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا اكثرهم صياماً ، ولكن والله ما رأيت أخوف لله من عمر ! لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول : ليصبحن الناس ولا خليفة لهم ![٤٠٩]

النفس التوّاقة

وكان من خير الناس — ولو في مدة واحدة قد مرّت كما يمرّ الطيف — أن تصيب مخافة الموت نفسَ واحد منهم يتولى شئونهم ، من حيث لم تزده المخافة إلا خفّة لنجدتهم ، فلم يبطىء عن الاجتهاد

(٤٠٦) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٧٥
(٤٠٧) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٣١٧
(٤٠٨) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦٨
(٤٠٩) ابن عبد الحكم ص ٤٧

لهم ، ولم تقعده المهابة عن أن يعمل لخيرهم مع نفسه أو قبلها كما أقعدت غيره من الزهاد الذين لم تُلْقَ عليهم مسئولية النـــاس ورعاية العباد .

وقد خلا الزهاد إلى أنفسهم في خلواتهم للخوف والعبادة . أما عمر فقد اقتحم ولم يفرّ كما فرّ معاوية الثاني حـــين ولّوه الخلافة وأدرك أنه ليس صاحب الأمر . ومضى عمر يحمل العبء ويضيف على كاهله الاثقال حتى لا ينجو ،وكلما انحط عنه واجب تاقت نفسه إلى واجب .

وهفَتْ نفسه إلى الولاية حتى يكون أقدر على العمل وأمكن من النفع . فلما كان والياً على المدينة تاقت نفسه الى الخلافة — ولم يكن يدري أنها قدرٌ له — فلما تولاها تاقت نفسه الى الجنـة . ولم يكن توق أمانٍ باطلة لا يتقدم العمل الصالح بين يديها ، بل عمل جهده وأنفد اصطباره حتى لم يصر أحدٌ أولى بها منه ، وعمل للخلافة حتى لم يبق من يتطاول لها غيره ، وعمل للجنة حتى ظُنّ الحسابُ أنه قد سقط عنه .

ولم يصدأ خاطر عمر أو يخمد شعوره مهما طال به الشجن ، كما يبلد شعور الملوك والرؤساء حـــين يصيرون الى الملك والرياسة فيظنون أنهم بلغوا الغاية فينهمكون في ملذاتهم وكأنهم أمنـوا مكر الدنيا جهـلًا منهم وغروراً ، ولكنه استمر لامعاً متدفق الحياة تواقاً إلى المعالي عاملًا لها ، وقد أقر هو على توق نفسه ودل على طموحها حين قال : ان لي نفساً ذواقة تواقة ،كلما ذاقت شيئاً تاقت الى ما فوقه ، ولقد رأيتني وانا بالمدينة غلام مع الغلمان ثم

تاقت نفسي إلى العلم بالعربية فالشعر فأصبت منه حاجتي ، ثم تاقت نفسي الى فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها ، وتاقت الى الامارة فوليتها ، وتاقت الى الخلافة فأدركتها ، فلما ذاقت الخلافة ولم يكن شيء في الدنيا فوقها تاقت نفسي الى ما عند الله في الآخرة [٤١٠]

بقاء الروح

واستبصر عمر فرأى حياته — وإن انقطعت في الدنيا — لا محالة مفضية الى وجود سرمديّ ، فليست في الموت نهاية المخلوق ، وانما هي نقلة من حياة الى حياة — كما صوّر الاسلام — فهو مخلوق للأبد مصنوع للخلد ، ولكن من دار الى دار ينتقل . وليس بالجسد يخلد الانسان ، وليس للجسد أن يكرم أكثر من الوقت الذي تنتثر فيه عظامه وينهتك عنها اللحم وتنفك العروق . فالشيود التي يشيدها الناس لقبورهم في الأرض ، والمعالم التي ينصبونها شواهد تدل وتشهد ، لم تكن في رأي عمر إلا وهماً باطلا وظلا حائلا . فليس سوى عام واحد تبقى الجثة ثم يجب ان تحرث الأرض وتسوّى لينتفع الناس بالأرض ، وحتى لا يعلق الزهو بالنفوس ويتشبث الناس بالدنيا فيخافوا ان يزولوا .

محبة الارض

وكان عمر — من كثرة ما مثل امامه الموت — كلما نزل أرضاً يظن أن الموت ملاقيه بها ولن يبرح ؛ فكان يود كلما نزل أرضا فأحبها أن يلقى بها منيته وأن يُدفن في أرضها . احب أرض المدينة أول

(٤١٠) شذرات الذهب ج ١ ص ١٢٠ — ابن الجوزي ٦٦ — وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦١

ما أحب وطالما عاوده الشوق اليها وحنّ لها ، وودّ لو رجع لئلا يكون ممن نفت المدينة ، ثم ألف الاسكندرية حين زارها ورآها فأحب لو عاش ثم مات بها ، وقد قالوا إنه قال لزهرة بن معبد احد فضلاء المؤمنين وأحد غزاة إفريقية في البر والبحر : أين تسكن ؟ فقال زهرة : بالفسطاط ، فقال له عمر : وأين انت عن الطيبة ؟ قال : وأين الطيبة ؟ قال : الاسكندرية ، فانك تجمع فيها دنيا وآخرة . انها الطيبة الموطن . والذي نفس عمر بيده لوددت أن قبري يكون بها ! فسكن زهرة الاسكندرية بعد قول عمر له وترك سكنى الفسطاط .[٤١١]

فلما كان عمر خليفة ومكث في الخلافة سنتين واشهراً قليلة ، ذهب في زورة له إلى الشمال ثم نزل بدير سمعان في جانب قرية عرفت بالبقرة من قبليّ معرة النعمان في انحراف الى حلب [٤١٢] نزل به يستجم من علة تحركت به كأنها علة سمّ قاتل يدب خفياً وهو سريع ، ولم يلبث الداء ان فشا فيه ، فظل يشكو عشرين يوما ثم الحت عليه الشكوى تسعة ايام [٤١٣]

ومنذ بدأته العلة في خناصرة وأيقن بالموت نهض يخطب بها ويقول : واعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه وباع نافدا بباقٍ ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان . . . فلما انتهى من خطبته رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق وأبكى الناس حوله ثم نزل فكانت

---

(٤١١) رياض النفوس ج ١ ص ٩٠

(٤١٢) مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥١

(٤١٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٤٠

اياها [٤١٤] ، ولم يُرَ بعدها على تلك الاعواد حتى قبضه الله [٤١٥] ، ثم أحسّ انه في حاجة ليستجم فأسرع الى دير سمعان .

وعرف عمر ان السّم من يد خادم دسّه يزيد بن عبد الملك، أو قيل، واتى بالخادم فأعترف بأنه وضع له سمّاً على طرف إبهامه ودسّه في الماء وسقاه له فتركه عمر . ومن غريب أمره أنه كان يكره الخوارج ولكنه صار كالخارجيّ في حرصه على الموت ، وكان الرجل منهم اذا طُعِن قنّع فرسه ليسبح في الرمح وينتهي الى طاعنه وهو يقول : وعجلت إليك ربّ لترضى !

وقالوا لعمر : لو تداويت ! فقال : لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها ! نعمَ المذهوب اليه ربي !

وكان عمر بعث من قبل الى عبد الله بن أبي زكريا ، وكان رجلًا من صلحاء اهل الشام فقال له : يابن أبي زكريا ، هل تدري لم بعثتُ اليك ؟قال:لا . فقال : لأمرٍ لست ذاكره لك حتى تحلف لي . قال : لا تسألني شيئاً الا فعلتُه ! فقال عمر : فاحلف لي ،فلما حلف له قال : ادع الله أن يميتني .

قال الرجل :بئس الوافد أنا للمسلمين! وأنا إذن عدو لأمة محمد! فقال عمر : هاه ! قد حلفتَ لي ، فلم يجد الرجل الصالح ابن أبي زكريا بدّاً من الوفاء فدعا لعمر بالموت ! ولم يلبث أن عز عليه ما فعل فرفع يديه داعياً يقول : اللهم لا تبقني بعده ، وبينما هو يدعو كذلك اذ أقبل صبي صغير لعمر ، فقال لابن أبي زكريا : وهذا

---

(٤١٤) الطبري ج ٥ ص ٣٢٣

(٤١٥) الاغاني ج ٨ ص ١٥٢

فأني أحبه ،فدعا له ابن أبي زكريا . ثم لم يلبث حين مات عمر ان مات ابن زكريا ثم مات الصبي [٤١٦]

وحين وثق عمر من انه ميت في مكانه لا محالة نام للعلة ولذهبي الخاطر في قميص من شعر مما يلي جسده ، يمتد الى ركبتيه، أما كبّاه فقد بلغا مرفقيه [٤١٧] واشير عليه أن يخلع قميصه ذاك فأبى ، وجعل يتلقى به عرقه وجهده ، ورفض ان يؤتى له بثياب أخرى من بيت المال ، وهي مرة فريدة في حياته امتنع فيها عمر أن يخلع قميصا لم يغسل لأنه لم يجد له من بقاء ، وإنما يُبْقي على جديد الدنيا من يأمل فيها البقاء .

ولما ثقلت به العلة دخل عليه صاحب الدير يطرفه بهدية من فاكهة مما أثمر شجر الدير ، فتقبل عمر الفاكهة بقبول حسن ، وأمر له بالثمن ، فأبى الديرانيّ ، فلم يزل به عمر حتى رضي وقبل ثمن الفاكهة . ثم قال عمر لصاحب الدير : اني ميت من مرضي هذا ! فحزن الديرانيّ ، وبكى لرقة في قلبه ونبل في نفسه وقرب في مودته ثم قال له عمر : قد بلغني أنك تملك هذه الارض – واشار له نحو أرض الدير – فبعني موضع قبري من أرضك لعام واحد ، فاذا حال الحول فانبش الارض وازرعها وانتفع بها . وتم البيع على ثمن لم يُدْرَ بعد كم كان ، أكان دينارين أم كان أربعين [٤١٨]

(٤١٦) ابن عبد الحكم ص ١١٥

(٤١٧) ابن الجوزي ص ١٤٨

(٤١٨) اختلفت الروايات في ثمن قبر عمر اختلافاً كبيراً ولكنه انحصر بين دينارين وخمسين – مسالك الابصار ج ١ ص ٣٥٣ – معجم البلدان ج ٤ ص ١٤٨

ان الاسلام نظر الى ما بعد الموت ، وجعل الثواب والعقاب في الخلد بعدُ ، ورفع الاسلام أبصار الناس وافكارهم عن تقديس الجسد حياً وميتـــاً ، ولذلك نهى عن زيارة القبور الا للعظة ، فالركون الى القبور وتكريم اجساد الموتى يقف القلوب دائماً عند حدّ الحياة الدنيا . وقد ابصر عمر ذلك فطلب الى الديراني ان يحرث الارض بعد عام .

المال الموروث

واسرع الى عمر فيمن أسرع اليه حين علموا بمرضه عديل له ، فقال له عمر : نزل بي الموت ولم أتأهب له ، اللهم انك تعلم أنه لم يسنح لي أمران لك في احدهما رضا ولي في الآخر هوى الا آثرت رضاك على هواي فاغفرلي [٤١٩] . ثم جاء مسلمـــة بن عبد الملك — والصرعة تهلكه فيظن من يراه انه لا يفيق — وافاق عمر فرأى مسلمة فأوصاه ان يحضر موته وأن يلي غسله وأن يمشي معه الى قبره وأن يكون ممن يلي ادخاله في لحده . ورأى مسلمـــة الفرصة قد سنحت ليفرض عمر شيئاً لأولاده فقـــال : يا امير المؤمنين ، انك أفرغت أفواه ولدك من هذا المال وتركتهم عيلة لا شيء لهم ، فلو وصيتَ بهم اليّ والى نظرائك من أهل بيتك ! فسكت عمر : فقال مسلمة : ألا توصي يا امير المؤمنين !

قال عمر : فيم أوصي ؟ فوالله إنْ لي من مال ! فقال مسلمة : هذه مائة ألف فمر فيها بما أحببت ! قال عمر : أوتقبل يا مسلمة ؟ قال : نعم ، فقال عمر : تُرَدُّ على من أخذت منه ظلماً ! ثم غاب

( ٤١٩ ) البيان والتبيين ج ٣ ص ٧٣

عمر غيبته فبكى مسلمة وقال : يرحمك الله ، لقد ألنتَ منا قلوباً قاسية وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً [٤٢٠]

ولم يكن عمر ممن يرضى أن يورّث أبناءه مالاً فان الولد الصالح لا حاجة له في مال موروث ، والولد الطالح يفسده مال أثله حين يرثه . فلما أفاق عمر مرة ثانية قال : اسندوني ، ثم قال لمسلمة : أبالفقر تخوفني يا مسلمة ؟ أما قولك اني أفرغت أفواه ولدي من هذا المال ، فوالله اني ما منعتهم حقاً هو لهم . وأما قولك لو أوصيت بهم فان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وان بنيّ احد رجلين : اما رجل يتقي الله فسيجعل الله له رزقاً واما رجل مكبّ على المعاصي فاني لم أكن لأقويه على معصية الله .

وكان اولاد عمر قد اسرعوا الى الدير فيمن أسرع ، كانوا احد عشر بقوا من أربعة عشر ، فدعاهم فنظر اليهم ثم قال : بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم ! أي بنيّ ، لقد تركتكم وتركت لكم خيرا كثيراً ، لا تمرّون باحد من المسلمين وأهل ذمتهم الا رأوا لكم حقاً . يا بني ، ان أباكم مثلَ بين امرين : اما ان تستغنوا ويدخل ابوكم النار ، او تفتقروا ويدخل ابوكم الجنة ، فكان ان تفتقروا ويدخل الجنة أحب إليه ! قوموا يعصمكم الله ! قوموا يرزقكم الله [٤٢١]

ودخل رجاء بن حيوة على عمر فقال له : يا أمير المؤمنين ، اكتب الى يزيد بن عبد الملك توصيه وتخوفه فقال : والله اني لأعلم أنه من ولد مروان ! فقال له رجاء : يكون حجةً عليه وعذراً

---

(٤٢٠) الكامل للمبرد ج ١ ص ١٤٠

(٤٢١) ابن عبد الحكم ص ١١٧ ، ١٢٧

لك عند الله ! فامر كاتبه أن يكتب اليه : أما بعد يا يزيد فـاتق الصرعة عند الغفلة فلا تُقال العثرة ولا تُقدر على الرجعة وتترك ما تترك لمن لا يحمدك ، وتنقلب الى من لا يعذرك والسلام. وكانت صيحة في واد .

ثم اشتدت الصرعة بعمر وجاء الهول، ولم يبق حول سريره الا فاطمة بنت عبد الملك زوجه ومسلمة أخوها ووصيف له يقال له مرثد فسهر وسهروا معه ثم تفرقوا عنه حين طلع النهار. قالت فاطمة : اشتد علزه ليلة فسهر وسهرنا معه ، فلما اصبحنا أمرتُ وصيفاً له يقال له مرثد ، فقلت له : يا مرثد ، كن عند أمير المؤمنين ، فان كانت له حاجة كنتُ قريباً منه، ثم انطلقنا فضربنا برؤوسنا لطول سهرنا ، فلما انتفخ النهار استيقظت فتوجهتُ إليه فوجدت مرثداً خارجاً من البيت نائماً فايقظته فقلت : يا مرثد ، مـا اخرجك ؟ قال : هو أخرجني ! قال : يا مرثد ، اخرج عني فوالله اني لأرى خلقاً ما يزدادون إلا كثرة ، مـا هم بانس ولا جن ، فخرجت فسمعته يقول : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .

فدخلت فاطمة مسرعة فوجدته قد وَجَد نفسه وأغمض عينيه وإنه لميت . رحمه الله [٤٢٢] .

### سن الاربعين

كان عمر يستعجل الموت ، ولقد أحسّ حين دنا من الاربعين ـ وكانت اعمار بني امية في معظمها قصاراً ـ انه قد بلغ حدّه ،

(٤٢٢) الطبري ج٥ ص ٤٢٤

وكان عمر قد جعل هذه السنّ غاية لم يَعُدْ بعدها عذر لانسان ان يسرف ويعصي ربه ، فكان يقول: تمت حجّة الله على ابن الاربعين. ثم مات لها او حولها بقليل من الشهور والايام بعد ان أبلى عذره واستقال ذنبه . ابن اربعين او اقل منها ، ولكنّ الناس باتوا يظنون زهده اشق على ابن السبعين او الثمانين ، وعمله أشق على ملكٍ عُمّرَ في ملكه عهداً طويلاً[٤٢٣]

ومات عمر في أخريات رجب لسنة إحدى ومائة ، وخُمس أو ست او عشر بقين من الشهر ، وكان موته يوم الجمعة ، وتقدم للصلاة عليه الخليفة من بعده يزيد بن عبد الملك . وكان يزيد متهماً في سمّه ، قالوا انه دسّ الى خادم يخدم عمر ، فوضع الخادم السمّ على ظفر ابهامه ، فلما استسقى عمر غمس ابهامه في الماء ثم سقاه فمرض مرضه الذي مات فيه ، وكان موته من السم من قريب[٤٢٤]

ولو لم يعجل السمّ على عمر لعجلت عليه المخافة ، فقد كان مرضه جُلّه من كثرة الخوف من الله. كانت اقوى سبباً من السمّ الذي ادعوا أنه استقاه مع الماء فمات به[٤٢٥] بعد خلافة دامت سنتين وخمسة اشهر أو ستة ومعهن أيام كما كانت خلافة أبي بكر الصديق. سنتان وقليل من الأشهر ظنها الناس اعواما طويلة لكثرة ما أصابهم من خير ووفرة ما عمّهم من عدل وانصاف .[٤٢٦]

---

(٤٢٣) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٣٢ ــ تذكرة الحفاظ ج١ ص ١١٤

(٤٢٤) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٢ ، ٤٣٩

(٤٢٥) طبقات الشعراني ج ١ ص ٣٣

(٤٢٦) الصفوة ج ٢ ص ٧٢ ــ شذرات الذهب ج ١ ص ١١٩

وعاطفة المخافة متى صارت مألوفة فانها تصبح قادرة على احداث انقلاب نفسيّ ومَرض حقيقيّ ، فاذا انضم الى الخوف تفكير لا ينقطع وشعور بالمسئولية والعاقبة فان الموت قادم لا محالة مسرعاً على رجلٍ لم يبلغ من السن غير قليل .

نبش القبور

ودفن عمر في مـــكانه الذي اشتراه من أرض الدير ، [٤٢٧] ووقف عليـــه مسلمة بن عبد الملك يقول : اما والله ما أمنت الرق حتى رأيت هذا القبر او مر الحول على دفنه ، وصار لصاحب الدير أن ينبش القبر ويزرع الارض . ولكنه لم ينبشه ولم ينتفع بها ، بـل ابقى عليه وصانه وجعله مَعْلما على الطريق يفد اليه الناس فيدعون له ويترحمون عليه ويبلون ترابه ، وكان الناس فيه جميعاً كما قال جرير :

لو كنت أملك والاقدار غالبة تأتي رواحاً وتبييتاً وتبتكر
رددت عن عمر الخيرات مصرعه بدير سمعان لكن يغلب القدر

وأحب الناس عمر لأنه تعفف عما في أيديهم وقل رزؤه ، وكلما ازداد الزاهد تمنعاً ازداد الناس في حبه لحاجة ، فاذا مات اتخذوا قبره مصلى . واذا عَرَض لهم من يأكل الكثير ويتذرع في اللقم مقتوه ونبذوه وكرهوا قربه واستسرفوا أدبه . ولعلةٍ ما هجر الناس زيارة مقابر الملوك والخلفاء ولهجوا بزيارة قبر عمر بن عبد العزيز .

قال هشام بن الغاز : نزلنا منزلاً مرجعنا من دابق ، فلما ارتحلنا مضى مكحول ولم يعلمنا أين ذهب ، فسرنا كثيراً حتى رأيناه فقلنا : أين

(٤٢٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٧

ذهبت ؟ فقال : أتيت قبر عمر بن عبد العزيز وهو على خمسة اميال من المنزل فدعوتُ له ، ثم قال : لو حلفتُ ما استثنيتُ ، ما كان في زمانه أخوف لله عز وجل من عمر ، ولو حلفت ما استثنيت ، ما كان في زمانه أزهد في الدنيا من عمر [٤٢٨] !

●

لمّا مَرِض عمرو بن العاص اوصى ان يدفن بالمقطم من ناحية يقال لها الفجّ ، وكان هذا المكان طريق الناس يومئذ الى الحجاز فأحب أن يدعو له كلّ من مرّ به ! [٤٢٩]

أما عمر فتوارى عن الطريق وصار أبعد القبور عن مزدحم الارض وملتقى الناس . وكان جم التواضع ، اذ آثر ان يكون في أرض دير ، ولكنه كان متعاظماً اذ دلّ على ما بين المسلمين وأهل ذمتهم من مودة ، وعلى ما كان بين عمر نفسه وبين أهل الذمة من صفاء ، وهو المتهم ظلماً بالشدة فيهم والقسوة عليهم .

وظل القبر حيناً طويلاً في أرض الدير يعلو بتواضعه على القبور المعلمة ، ويقصده الناس حين ينكرونها ، حتى قامت الدولة العباسية على سنان منشبة في اكباد الأمويين الاحياء ، ثم غلا الثأر الجامح غليانه فخرج بأهله عن الوقار ، وثار أهل الشام مع الثائرين لما ملّوا امية فنبشوا مع العباسيين قبور الأموات ، وأخرجوا الجثث يجلدونها بالسياط ويحرقونها بالنار .

وأمعن العباسيون بعد مذبحة الأمويين في « أبي فطرس »

---

(٤٢٨) ابن الجوزي ص ٢٩

(٤٢٩) فتوح مصر واخبارها ص ٢٥٣

بفلسطين في محو آثار الموتى بدمشق وقنسرين ودابق والرصافة ، وأخرجوا جثة سليمان بن عبد الملك من قبره بدابق وجلدوها ، وجثة هشام من مدفنه بالرصافة — وكانت جثته لم تزل متماسكة — فأحرقوها وذروا رمادها .

ولكن قبر عمر بن عبد العزيز سلم من البطش ، وجاوزته حمى الغضب وُرحَضاؤه فلم تمتد اليه يد بالأذى . وضاعت معالم القبور المشهورة ، وبقي القبر المتواضع مُعلَما مشهورا . وكان زهد عمر وورعه وعدله منجاة لعظامه ومأمنا لترابه [٤٢٩] . وظل القبر سنين طوالا يحج اليه المقيمون والوافدون ، ثم دهم الشرق ما دهمه فنهب الدير وضاعت معالم القبر وانقطع عنه الناس ، وبقيت كل اديار سمعان تعرف إلا دير سمعان المعروف .

### عظة المنصور

قال الخليفة المنصور لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن ابي بكر : عظني ، قال : بما رأيت أو بما سمعت ؟ قال المنصور : بما رأيت ، فقال : مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلف أحد عشر ابنا ، وبلغت تركته سبعة عشر دينارا ، كفن بخمسة واشتري له موضع قبره بدينارين ، وقسم الباقي على ولده ، فأصاب كل ذكر منهم تسعة عشر درهما .

ومات هشام بن عبد الملك ، فقسمت تركته على أولاده ، فأصاب كل واحد منهم ألف ألف ، ورأيت رجلًا من ولد عمر قد حمل في يوم

---

(٤٢٩) تاريخ العرب المطول ص ٢٨٩ ، ٣٥٧

واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من ولد هشام يتصدق عليه الناس [٤٣٠] .

### عظمة المظهر

ولقد ظلت الدولة الأموية تملك الخلافة مائة عام أو نحوها ، وهذه المدة اقصى مدة تعيشها دولة يتردّى أمراؤها في حمأة الانحراف ، وكان خليقاً بهذه الدولة - في المظهر - ان تعيش أطول مما عاشت بسبب الفتوح الضخمة التي تمت في عهدها ، ولكن الفتوح لم تكن مقياساً صحيحاً لها لتبقى أو تزول ، فانما كانت امتداداً للدفعة القوية الجبارة التي دفعتها غزوات النبي وسراياه ، ثم لما فعل أبوبكر وعمر من بعد .

أما المقياس الحق لبني أمية فكانت سياستهم في داخل البلاد المفتوحة ووطأتهم على العراق والحجاز خاصة ، وعلى أصحاب النبي وأهل بيته على الأخص الأخص . ومن المؤسف أن فتوحهم لم تقم شفيعاً لهم في مسلكهم وسياستهم ، فانهارت الدولة برغم ما اصابها في بعض الاحيان من نوبات للخير والعدالة . الا أن النوبات لم تطرد ولم تمتد ، وانما كانت تفد مع مزاج صاحبها وتزول بزواله ، ثم ترجع الامور الى سفسافها . لذلك ولغيره لم تظل الدولة غير مائة عام أو نحوها ، وهي أقصى المدة لدولة يتردى امراؤها في حمأة الانحراف عن جادة الصواب .

ولم تفقد الامة العربية في دولة بني أمية صلاحها وتقواها ولا

---

(٤٣٠) ابن الجوزي ص ٢٩٦

علمها وفقهها ولا جهدها وكسبها ، وان ظل أكثر الفقهاء والعلماء بمعزل عن الخلفاء ومنأى . وبينما كانت قصور الامراء تنحل وتسلم أقدامها للزوال كانت الأمة تعمل على أن تعيش وتبقى في ظل دينها الجديد . ولم يسلم من البيت الاموي غير اولئك الافراد الذين سلكوا مسالك الزهاد وانخرطوا في نظام الفقهاء والعلماء فأبقوا على أنفسهم وأولادهم مع الأمة الحية الصالحة التي كانت تحارب وتستشهد وتتفقه وتتعلم حتى تبقي على كيانها أن ينحل وعلى ملكها المكسوب أن يزول .

obeikandl.com

# مراجع الكتاب


١ الأغاني لأبي الفرج

٢ الالحاد في الاسلام لعبد الرحمن بدوي

٣ البيان والتبيين للجاحظ

٤ تاريخ آداب العرب للرافعي

٥ » داريّا للقاضي الخولاني تحقيق سعيد الافغاني

٦ » الشعوب الاسلامية لبروكلمان ترجمة منير البعلبكي ونبيه فارس

٧ تاريخ الطبري

٨ » العرب مطول لفيليب حتي (ترجمة)

٩ » مدينة دمشق لابن عساكر تحقيق صلاح المنجّد

١٠ » اليعقوبي

١١ تذكرة الحفاظ الذهبي

١٢ التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية لعبد الرحمن بدوي

١٣ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين الملطي الشافعي




obeikandl.com

| | | |
|---|---|---|
| ١٤ | ثمار القلوب | للثعالبي |
| ١٥ | جلاء الأفهام | لابن قيم الجوزية |
| ١٦ | الحكمة الخالدة | لمسكويه تحقيق عبدالرحمن بدوي |
| ١٧ | حماة الاسلام | |
| ١٨ | حياة الحيوان | للدميري |
| ١٩ | الخراج | لابن آدم القرشي |
| ٢٠ | الخراج | لأبي يوسف |
| ٢١ | خطط الشام | لكرد علي |
| ٢٢ | الدعوة الى الاسلام | لسير توماس أرنولد (ترجمة) |
| ٢٣ | رياض النفوس | لأبي بكر المالكي |
| ٢٤ | الأزمنة والأمكنة | للمرزوقي الاصفهاني |
| ٢٥ | زهر الآداب | للحصري |
| ٢٦ | زين العابدين | للمؤلف |
| ٢٧ | سيرة عمر بن عبدالعزيز | لابن الجوزي وأشرنا إليه بابن الجوزي |
| ٢٨ | سيرة عمر بن عبدالعزيز | لابن عبد الحكم |
| | « « | بابن عبد الحكم |
| ٢٩ | شذرات الذهب | لابن العماد |
| ٣٠ | صبح الأعشى | للقلقشندي |
| ٣١ | صفة الصفوة | لابن الجوزي |
| ٣٢ | الطبقات | لابن سعد |
| ٣٣ | الطبقات الكبرى | للشعراني |



obeikandl.com

٣٤ طريق الهجرتين لابن قيم الجوزية
٣٥ ظهر الاسلام لأحمد أمين
٣٦ العقد الفريد لابن عبد ربه
٣٧ عمر بن عبد العزيز لأحمد صفوت (سلسلة اقرأ)
٣٨ عيون الاخبار للدينوري
٣٩ غوطة دمشق لكرد علي
٤٠ فاطمة الزهراء والفاطميون لعباس العقاد (سلسلة دار الهلال)
٤١ فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (طبعة ليدن)
٤٢ فجر الاسلام لاحمد امين
٤٣ الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقى
٤٤ قصص العرب لجاد المولى وصاحبه
٤٥ القومية المصرية الاسلامية لابراهيم جمعة
٤٦ الكامل لابن الاثير وأشرنا إليه بابن الاثير
٤٧ الكامل للمبرد
٤٨ محاسن السلوك لمحمد غنيم
٤٩ محاضرات تاريخ الامم الاسلامية للخضري
٥٠ المرشد في الدين الاسلامي لجماعة من الاساتذة المصريين
٥١ مروج الذهب للمسعودي
٥٢ مسالك الابصار للعمري
٥٣ المطالعة التوجيهية لجماعة من الأساتذة المصريين
٥٤ المعارف لابن قتيبة
٥٥ معالم الموسيقى العربية لنسيب الاختيار

٥٦ معجم البلدان لياقوت
٥٧ الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي
٥٨ الموشح للمرزباني
٥٩ النجوم الزاهرة لأبي المحاسن
٦٠ الانصاف للباقلاني
٦١ وفيات الأعيان لابن خلكان

حمانا ــ لبنان

في يوم الثلاثاء ٥ من صفر سنة ١٣٧٣ ،
الموافق ١٣ من تشرين اول ــ اكتوبر ــ سنة ١٩٥٣



obeikandl.com

# تصويب

| الخطأ | الصواب | الصفحة | السطر |
|---|---|---|---|
| بني هلال | فتاة بني هلال | ٩ | ١٦ |
| عمر نفسه | ورأى عمر نفسه | ٦٧ | ٥ |
| ما علم | ما علمنا | ٩٧ | ١٣ |
| تركهن | تركها | ٩٩ | ١٣ |
| من | بعض | ١٠٠ | ٢٣ |
| أنه | إنه | ١٠٢ | ٥ |
| ومورود | مورود | ١٠٢ | ١٥ |
| يريد أن | يريد إن | ١١١ | ١٩ |
| الشاعر :أو | الشاعر أو | ١٢٦ | ١٥ |
| نوس | النفوس | ١٢٧ | ٢٢ |
| فأكتب | فاكتب | ١٣٨ | ٢١ |
| فعله أن | فعله ورأوا أن | ١٦٥ | ١ |
| ابن مسجح | ابن مسيح | ١٧٢ | ٤ |
| المنتي | المغني | ١٧٢ | ٦ |
| حاكم | حالم | ١٧٨ | ١٢ |
| عسّ | تمسّ | ٢٢٩ | ٢ |
| وأنفذ | وأنفد | ٢٣٠ | ١٣ |
| فتزوجها | فتزوجتها | ٢٣١ | ٢ |



obeikandl.com

obeikandl.com

# الفهرس


١ **الباب الاول** : نبعة السهام ٦

عمر بن الخطاب ٦ أولاد عمر ٨ عاصم بن عمر ٨ فتاة بني هلال ٩ ام عاصم ١١ عبد العزيز بن مروان ١٢ عمر ابن عبد العزيز ١٤ نشأة عمر ١٦ رؤيا صادقة ١٩ الجوهر السليم ٢٣ علم عمر ٢٤ فاطمة بنت عبد الملك ٢٦ القطائع ٢٧ قطائع عمر ٣٢ إمرة خناصرة ٣٣

٢ **الباب الثاني** : ولاية المدينة ٣٤

بداية الفطنة ٣٤ مشورة الفقهاء ٣٥ ميول عمر ٣٩ غضبة على فقيه ٤٢ الأمير الأمير ٤٣ مسجد المدينة ٤٣ اصلاحات شتى ٤٥ زيارة الوليد ٤٦ سعيد بن المسيب ٤٧ خطبة الوليد ٥٠ مفترق الطريق ٥٢ عزل عمر ٥٧ عهد جديد ٥٨

٣ **الباب الثالث** : منزل السويداء ٦٠

رحلة ليل ٦٠ الفقه الأصغر ٦٣ الظلم الشامل ٦٤ اول

التوبة ٦٦ الى دمشق ٧٠ عمر والوليد ٧١ عمر
وسليمان ٧٥ مرضة سليمان ٨٢ رجاء بن حيوة ٨٤
٤ الباب الرابع : يوم عصيب ٨٦
موت سليمان ٨٦ بيعة عمر ٨٨ ثلاثة كتب ٩١ هبوب
العاصفة ٩٣ مطامع النساء ٩٥ بيت سليمان ٩٧ أول
العدالة ٩٨ فقه جديد ٩٩ أمراء بني أمية ١٠٠ ارباح
التجار ١١٢ عزل الولاة ١١٣ مسلمة بن عبدالملك ١١٤
مشية الرهبان ١١٥ حنين عمر ١١٦
٥ الباب الخامس : طريق العدالة ١١٨
المسئول الأول ١١٨ عبد الملك بن عمر ١١٩ عزيمة
صادقة ١٢٥ الذوق والكسب ١٢٦ أصحاب عمر ١٢٦
الفقه الأكبر ١٣٤ شروط العامل ١٣٥ القضاة والعمال ١٣٦
بلال بن أبي بردة ١٣٧ صورة العدالة ١٤٠ ماليس من
العدل ١٤١ تنفيذ الأحكام ١٤١ انواع المحاكم ١٤٥ مراقبة
العمال ١٤٦ الشكاوى ١٤٩ فن جديد ١٤٩ أثر العدالة ١٥١
٦ الباب السادس : سياسة الناس ١٥٥
الزمان الأول ١٥٥ بيت المال ١٥٧ القصد والاسراف
١٦٠ الرفق بالرعية ١٦٢ أهل العراق ١٦٤ اهل المدينة ١٦٦
أهل مكة ١٦٩ أهل الرقة وأهل أيلة ١٦٩ أهل سمرقند
وأذربيجان وخراسان ١٧٠ حلبة السباق ١٧١ درس
قاس ١٧٣ رحمة الضعفاء ١٧٤ الخوارج والحرورية ١٧٦
أهل الذمة ١٧٧ الرفق بالحيوان ١٨٠ الاصلاح ١٨١

مسجد دمشق ١٨٢ حسن البيان ١٨٩
٧ الباب السابع : دعوة الخير ١٩٤
القدرية والعصاة ١٩٤ جند المسلمين ١٩٨ بدعة معاوية ٢٠١
بدعة الناس ٢٠٤ شيعة علي ٢٠٦ قصة فدك ٢١٠ علوم
الدين ٢١٢ علوم الدنيا ٢١٣ العلماء والمعلمون ٢١٤
المعلم ومنهاج الدراسة ٢١٦ الزكاة ٢١٧ الدعوة الى
الاسلام ٢١٩
٨ الباب الثامن : دير سمعان ٢٢٤
ديارات سمعان ٢٢٤ مخافة الموت ٢٢٦ النفس التواقة
٢٢٩ بقاء الروح ٢٣١ محبة الأرض ٢٣١ المال
الموروث ٢٣٣ سن الأربعين ٢٣٧ نبش القبور ٢٣٩
عظة المنصور ٢٤١ عظة الدهر ٢٤٢

انتهى طبع هذا الكتاب على

مطابع دار الكشاف - بيروت

في الرابع من شهر ربيع الثاني ١٧٧٣ هـ
والعاشر من شهر كانون الاول ١٩٥٣ م